عقرای ارر۲

اللطائف الاصبهانية والمنن التوفيقية

في رحلة

الحاج بابا الاصبهاني داخل الممالك الفارسية

ترجمت بقلم

حضرة محمد افندى لطفى تلغرافجى المعية السنية

للحاج بابا رحلة * فيها بدائع للادب
كانت بزاوية الخمو * ل من اللغات لها حجب
فجلوتها للناظريـ * ـن بحسن ألفاظ العرب
فأتت تهادى كالعرو * س تميس فى حلى الذهب
فاغنم أخى وصالها * كى ما تنال بها الارب

۲۸۲۷۷۵

الجزء الاول

الطبعة الاولى
بالمطبعة الخيرية بجمالية مصر المحمية
سنة ١٣٠٨ هجرية
الموافقة سنة ١٨٩١ افرنكية

(ماشاء الله كان)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد والانبياء والمرسلين أجمعين *(أما بعد)* فيقول الراجى عفو ربه الكريم محمد لطفى بن ابراهيم انى لما انتهيت من ترجمة كتاب تحفة المريد فى زواج أودت بفريد وزها بعد الطبع نشره حتى عم البلاد بطيب نشره لما احتوى عليه من الفكاهات الغزلية واللطائف الادبية قد عثرت الآن عند من كنت أثق بوطيد صحبته على كتاب فتصفحته فاذا هو آت من غرائب السياحة بالعجب العجاب بل نزهة لأولى الالباب وروضة شرقية معجبة للطلاب جمع من لطائف الاخبار ما يحير الالباب فكنت كلما انتهيت من باب رأيت الذى يليه أعجب منه فى الاغراب فانبعث قلبى لكشف دره المكنون واستخراج ما فى كنوزه من جواهر الآداب والفنون لارفع عنه القناع وان كنت فى هذه الصناعة قصير الباع ورأيت ان أبذل فيه جهد الاستطاعة وأنقله من اللغة

الانكليزية الى اللغة البراعة لتتحلى عرائسه من الآداب بتاج من الزبرجد مهداة الى الكوكبين النيرين والبرنسين الفخيمين سلالتى المجد والسودد (البرنس عباس وشقيقه البرنس محمد) أدام الله مجدهما وأقام على المشترى سعدهما متمتعين بوجود سماء المجد وبحر الجود وغرة الدهر عزيز مصر المليك الاكرم والخديوى الاعظم من حاز كل فضل على التحقيق ولى نعمتنا أفندينا (محمد توفيق)

يا أهل مصر انى ناصح * فاستمعوا نصحا كنظم الجمان
بلدتكم قد أصبحت جنة * فى عصر توفيق المفدى المصان
اذ نحن فى ظل المليك الذى * تشملنا منه النوايا الحسان
وما زال يولى العدل من فضله * حتى تبدى قطرنا فى أمان
وكم زها للعلم من روضة * للمجتنى منها قطوف دوان
ان قصر النيل فلا تيأسوا * عنى أبى العباس خصب الزمان

أدام الله دولته واجلاله وخلد الى الابد ذكره وحفظ أنجاله وآله ما طلعت ورعت الغزاله فشمرت اذ ذاك عن ساعد الجد وأخذت أشرع فى ترجمته وتنقيحه بحزم أسد وعزم أشد ولكننى أقول متأسفا انه قد عارضنى فى اثناء الترجمة صاحبه فنظر لى شذرا واختطفه منى قسرا فعجبت وما عجبى من منعه كتابا مطبوعا قد انتشر فى عالم الوجود بأعجب من اعتقاده باستحالة وجوده وجعله فى حيز المفقود فعاودت استعارته منه وتلطفت جهدى وطالما توسطت اليه باخص أصحابه فما كان يجدى فلما يئست من احياء ميت وداده وعلمت ان نجم المشترى أقرب من استجلاب مودة فؤاده عملت كل حيلة فى احضار الكتاب بمعاونة أحد الاصحاب المسمى المسيو اسكندر بيانكردى حتى أرشدنى على رجل من كبار تجار وأعيان الانكليز قاطن بلندره المدعو المستر جون بروسر

فكاتبته على انه لم يرنى ولم أره ولحت اليه بشاحة صاحبى به على ومذ تحقق انها بلية اهتم بتحصيله وأرسله لى هدية فحمدت الله وشكرت هذا المفضال على حسن مسعاه وماغرسه فى قلبى من الجميل الذى لا أنساه ثم عرضته على صاحب العزة والسعادة والمجد وسلالة الشرف والسيادة رئيسنا الهمام الصادق المحرز قصب الفضل السابق (مصطفى بيك صادق) فشجعنى وقوانى على العمل فشكرته واستبشرت بحسن مستقبل الامل وسأشرع فى ترجمته وتعريبه وأبذل الجهد فى توضيحه وتقريبه وبما ان فيه من المعانى الرقاق مايفوق الدر فى الاتساق فرمت أن أحليها بالاشعار وأجلوها عروسا للانظار فقد تكرم علىّ حضرة الماهر الاديب والشاعر المتفنن اللبيب زميلى اللغوى الفاضل أحمد أفندى كامل بنسج بردها ونسق عقدها وعلى الله حصول المأمول فاقول

﴿الفصل الاول﴾

(فى منشأ الحاج بابا وتربيته)

حدث الحاج بابا عن نفسه فقال ان والدى المدعو كربلى حسن كان أصبهانى المنشأ وكان من أشهر الحلاقين بها لمهارته فى هذه الصناعة وانه لما بلغ من العمر السبع عشرة سنة تأهل بابنة شماع بجوار دكانه الاان هذا الزواج كان منغصا لمعيشته لانه لم يعقب منها نسلا فلذلك هجرها وغض طرفه عنها ولم يمل اليها الا قليلا ولما اكتسب مالا عظيما من اتقان صنعته وتوفر أدواتها واشتهاره بين التجار ونال مالا يحصى من الثروة والافتخار ومالم ينله أحد من أبناء حرفته فى تلك الاعصار فبعد ان مكث مع زوجته عشرين سنة وهو يكلمها كالذى اعتراه من النوم سنة تزوج بامرأة أخرى خطبها من أبيها الذى كان من أشهر صيارف

زمانه وتساهل فى تزويجها اياه بالنسبة لكونه كان يحلق له طول هذه المدة بمهارة وصناعة تحصل بهما على هذه البضاعة وبعد ان دخل بها أتته الافكار من كل جانب بالاهوال وكل أمر مشيب وذكرته مايحصل من زوجته الاولى من النزاع والغيرة عند كشف ماوراء القناع فتشاور فيما يجريه نحو ذلك مع نسيبه الجديد لاخماد نار الغيرة حتى تصبح كبارد الحديد فاستقر رأيه أن يتوجه بها للحج فى هذه السنة لزيارة قبر سيدنا الحسين فى كربلاء وبذا يتخلص من تنغيصها وينجو من كيدها فاطاع الامر وجهز نفسه وأخذ زوجته الجديدة معه تاركا القديمة فى منزله بدون ان يوقفها على خبر أو تلحظ أدنى اشارة من هذا الاثر فحملت بى ووضعتنى أثناء الطريق فكنت لهما ثالث رفيق

وكان اسم والدى المشهور قبل سفره حسن المزين ولما ان تشرف بزيارة القبر الشريف الذى فى كربلاء فبالنسبة الى محبة والدتنا لنا سمتنا بالحاج وقد أطلق أيضا علىّ هذا اللقب مدة حياتى وهو السبب فى منحى الشرف السامى بدون استحقاق لندرة اطلاقه على أىّ انسان الا على الذين أدوا الحج الشريف الى بيت الله الحرام وقبر النبى عليه الصلاة والسلام وكان والدى أناب عنه فى دكانه أكبر صبيانه مدة غيابه ومذ حضر أقام فى صنعته بهمة ونشاط زائد لانه كان يحترف بصنعته أثناء السياحة حتى اكتسب اسم (مسلم غيور) اذ كان ذلك داعيا لجذب قلوب الاعيان والتجار اليه أكثر من قبل وأما أنا فقد رأيت ان فى عزم والدى أن يجعل مستقبل تربيتى قاصرة على صنعة القايش وانى لا أتحصل على شئ من المعارف سوى بعض أشياء دينية تختص بالعبادة والصلاة فلولا ماتداركنى الله به من تسخير أحد فضلاء ذلك العصر بارشادى لبقيت مغفلا من كل المعارف وذلك ان الفاضل السالف الذكر كان يتردد الى والدى ليحلق له

مرة فى كل أسبوع وكان من دأبه اظهار رغبته وميله لتعليم الاولاد بخلوص نية ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى فطلبنى منه فقبل والدى وأوصاه بالالتفات نحوى فانجز الفقيه وعده ووفا بعهده وعلمنى القراءة والكتابة ومازلت أعلو درجات النجاح تحت لوائه طالبا للفلاح لا أخرج من كمينه حتى انه فى مدة يسيرة صرت أفسر القرآن وأشرح معانيه وأكتب خطا جميلا وبعد خروجى من مكتبى كنت أتوجه يوميا بعد خلاص الدرس الى دكان والدى حيث فيها تعلمت أول حرفتى حتى اذا اضطره الحال يأذن لى بالمساعدة معه رغبة فى تمرينى على هذه الصناعة بحلق رؤس المكارية والجمالة الذين كانوا من أول الامر يدفعون لى أجرة عظيمة لما كانوا يرونه من الراحة وسرعة يدى

ولما بلغت سن الستة عشر سنة كان يشق على الوقوف على حالتى وهل أتممت صنعتى أومازلت صبيا قابلا للتعليم لانه بخلاف ما تعلمته من حلاقة الرأس وتنظيف الآذان وقص اللحية ومساواتها اكتسبت الشهرة التامة فى اتقانى وظائف الحمام حيث لايوجد خلافى له معرفة تامة بالدلك والتكبيس المختلف أجناسه كانى تعلمته فى الهند أو كشمير أو بلاد الترك وصنعة خصوصية أيضا لا يعرفها أحد فى طقطقة المفاصل ورنة أصوات كفوفى على بعضها وكذا شكرا لاستاذى الفقيه فانه علمنى الاشعار والقصائد الكافية التى بها امكننى احياء وتزيين المحاورة بين الاصحاب بواسطة ابراز بعض اقتباسات مستخرجة من مؤلفات سيدى حافظ وخلافه حتى ان هذا الفن الذى كان يخرج من فمى بصوت رقيق صيرنى محترما وأعظم رفيق عند جميع أولئك الذين كانت رؤسهم وأعضاؤهم فى قبضة يدى وبالاختصار فانى أقول الحق عن نفسى ان الحاج بابا هو الرجل وحيد زمنه وفريد عصره بين الناس أصحاب الذوق والرقة والانبساط كما قيل فيه

لا تحقرن

لا تحقرن الدهر حلاف نباهة * ولوانه يعزى لايسر محترف
فالحاج بابا وهو حلاق غدا * من صغره بالجد قد حاز الشرف
كالدر مابين الجواهر قد رقى * جيد الغوانى بعد أبيات الصدف

ولمناسبة ان دكان والدى كانت بالقرب من الخان الملوكى وهو أعظم محل فى المدينة تتردد عليه الناس من كل فج فكانت ملجأ للاجانب والسكان من تجار وأعيان وعلى انى ما كنت أنتفع منهم بسوى أجرة الحلاقة المعتادة فانهم لازالوا يزدحمون بدكانه بالنظر لتسليتهم بما يجدونه من نجابتى وفصاحتى وعذوبة ألفاظى التى أطرب منها السامعين واشرح بها قلوب المتفاكهين

بنى ان البر شئ هين * وجه طليق وكلام لين

هذا وفى يوم من الايام حدث ان أحد التجار الذين كانوا يأتون الى الدكان وهو تاجر بغدادى اشتد ميله نحوى وكان على الدوام يلح ويشدد على بالاصغاء اليه أكثر من التفاتى لمصالح والدى الخبير بكل أمر ثم أراد أن يكلمنى باللغة التركية ولمعرفتى بعضا منها كنت أخاطبه بها قليلا فلما علم ما أنا عليه من المعارف ابتدأ يهيج أفكارى ويدهش حواسى باوصاف جملة مدن مختلفة جميلة المنظر بهيجة الرونق ساح فيها حتى اشتاقت نفسى للسياحة وكان التاجر اذ ذاك محتاجا لكاتب يضبط حسابه ويدبر أشغاله وبما رآه منى من الدراية فى صنعة الحلاقة وفن الكتابة قدم لى مرتبا وافرا للدخول فى خدمته فلذلك قبلت منه لتكرار طلبه وشدة رغبته وبوقتها أخبرت والدى بهذا العزم فلما سمع منى ذلك غضب غضبا شديدا واجتهد فى منعى عن هذا المشروع الذى مآله الاخطار وتحملى تقلبات الزمان فاريته ما فى ذلك من عظيم الفائدة فلما سمع ما قدمه لى التاجر من المرتب الجسيم العائد عليه بالمنفعة خطر بفكره انه لابد ان يأتى وقت يستحيل فيه انفرادى

بعزمى فاذن لى فى السفر ودعالى بالبركة وأعطانى صندوق أمواس وودعنى وعلامات الحزن ظاهرة على وجهه ولكنه كان مخفياله

أخفيت عنه الحزن جهدى رأفة * منى عليه ورحمة لفؤادى
كى لا أراه آسفا فيزيدنى * حزنا طريفا فوق حزن تلادى

وقد اشتد على والدتى الاسف والحزن حين بلغها خبرى وتلبست بالخوف العظيم والجزع لان الشفيق بسوء الظن مولع وبالنسبة لما كنت أمنيها به واسكن خاطرها مما أبثه لديها من رجاء مستقبل سعادتى بهذه الرحلة فما كان ذلك ينتج منه أدنى تسكين لخاطرها أو تلطيف لغضبها لان العجم لا يعتقدون نجاح حالة مبدؤها خدمة رجل سنى وصعبت عليها هذه الحاله ولكن لما لم تتمكن من ابطال هذا العزم فلمحبتها الاموية أعطتنى صندوقا ملآنا من البقسماط وعلبة كبيرة داخلها هم من المراهم ذات القيمة وقالت انه دواء لشفائك اذا لا سمح الله حصل جبر فى عظامك سيما من الآلام العصبية

ولما أردت تقبيل يدها عند الوداع قام بها من الشفقة ما أوجبها ان تمسكنى بكلتى يديها فلم استطع ان ألفت بوجهى الى باب المنزل ولم أتخلص منها الا بصعوبة زائدة وهى ترجو عودتى سالما غير مصدقة بنجاتى فى هذه السياحة التى تشاءمت منها ثم ودعتها وهى باكية العين شاكية غراب البين

فلاندبن عليك جهدى دائما * ولاهجرن الاهل والاصحابا
كيف التصبر بعد بعدك انه * قد غال عقلى والفؤاد أذابا
فارقتنى فأرقت لا تبعد فكم * بلقاك قد لذ المنام وطابا

﴿الفصل الثانى﴾

(ابتداء سياحات الحاج بابا ومقابلته مع التركمان وأخذه أسيرا)

فعزم

فعزم عثمان أغا وهو سيدى التاجر على الرحيل الى مدينة مشهد لجلب جلود غنم بخارى ثم يتوجه بها الى اسلامبول ليبيعها هناك وكانت هيئته قصير القامة غليظ الجسم ذا أنف اسفنجية كبيرة وأما أطواره فكان رجلا مسلما صالحا للغاية متمسكا بالديانة وأداء الفروض ولم أره يوما ما يتأخر عن خلع جواربه مهما بلغت درجة البرد اتماما لفرائض الوضوء ولهذا يكره الطوائف التابعة للامام على كرم الله وجهه كراهة تامة وكنت أشاهد فيه هذه الحالة مدة اقامته فى بلاد العجم وله ميل زائد الى التكسب ولا ينام مالم يكن فى أمان من وضع دراهمه فى محل لا يخشى منه الا انه مع هذا كله لا يتساهل فى لذة نفسه فكان يكثر من شرب الدخان والطعام الدسم ويتعاطى النبيذ خفية مع انه كان ينذر ويهدد بالتلف والهلاك الاخروى الذين يراهم منهمكين فى شربه جهارا فهو كما قيل

يحرم فيكم الصهباء صبحا * ويشربها على عمد مساء
اذا فعل الفتى ما عنه ينهى * فمن جهتين لا جهة أساء

وبعد أن أمر القافلة بالتجمع فى فصل الربيع أخذ يجهز نفسه للرحيل فاشترى بغلة قوية مرهونة خاصة لركوبه وقدم لى حصانا أركب عليه ولم يكن خاصا بى بل كان عليه الكليان (وهو نوع من شبكات الدخان يشبه الشيشة الهندى) وقلاية وزمزمية جلد وفحم وزيادة على ذلك خرجى أيضا وكان معنا عبد أسود يطبخ لنا ويفرش السجاجيد وينزل الاثقال ويحملها على البغال ولما يركب كان يبسط رحله على البغل لما عليه من جملة الادوات والسجاجيد وآلات المطبخ والبغل الثالث عليه صندوقا السفر داخلهما خزينة سيدى وكافة الاشياء الضرورية وجميع ما يلزمنا ومن شدة حرص سيدى عثمان أغا قبل قيامنا بيوم خاط فى حشو لبدته التى تحت عمامته الثقيلة خمسين دينارا بدون ان يعلم بها أحد سوانا

والقصد من ذلك صرفها عند حصول حوادث تطرأ عليه على حين غفلة وأما باقى النقدية المخصوصة لمشترواته التجارية فخبطة فى أكياس جلد أبيض صغيرة وموضوعة فى وسط الصناديق محفظا عليها اما القافلة التى تجهزت للسفر فتحتوى على خمسمائة حصان ومائتى جمل وأغلبها محمل بالتجارة لشمال العجم ويصحبها نحو المائة والخمسين رجلا بين تجار وخدم ومرشدين للقافلة وبخلاف ذلك استصحب هذه القافلة شرذمة قليلة من الحجاج قاصدين زيارة قبر الامام رضا فى مدينة مشهد وكانوا يصفون هذا الموكب بالتقوى والطهارة وكل من يصحبه يتبارك به ويعتبرون ان أربابه لهم المقام الاعظم وذلك بالنسبة لعزمهم الممدوح لزيارة تلك الجهة كما يفعلون بالناس الذين يحجون

ولما استعدوا للرحيل أخذ كل انسان يسلح نفسه اما سيدى الذى كان بمجرد سماعه صوت بندقية يميل برأسه ويصفر لونه عند رؤيته سيفا مسلولا ما أدرى الا وظهر امامى متقلدا بقربانة طويلة معلقة بالعرض على وسط ظهره وسيف منحنى فى جنبه وزوج طبنجات كبار نافذ من منطقته واما أمامه فاغلبه مغلول بعلب الخراطيش وآلاتها وأوعية البارود ومدكات البنادق وخلافها كانما عناه الهمزانى بقوله

توشحت أبا الفتح * بهذا السيف مختالا

فما تصنع بالسيف * اذا لم تك قتالا

وكنت أنا بالمثل متسلحا من الرأس الى القدم وزيادة عما يحمله سيدى كنت متزينا بحربة عظيمة وأما العبد الاسود فمعه سيف بنصف نصل وبندقية بدون زناد

ثم قمنا فى طلعة النهار من جهة شمال أصبهان بدلالة جاويشية الحجاج وقد أعلنونا بالقيام بواسطة أصوات عالية والضرب على طبلهم النحاس وفى

أقرب وقت تصاحبنا بمن كانوا معنا من السياحين اذا الجميع متسلحون ومع كل هذه الاستعدادات الحربية أظهروا البعض هم علامات الهدوء والاطمئنان بحالة التواضع والخضوع فسررت من هذه الهيئة اللطيفة الا أنه ما كان يمكننى الرماحة والقفز بحصانى خوفا من غضب سيدى الذى كان بعض الاحيان لما يرانى أفعل ذلك يصيح نحوى بنغمة مغضبة ويأمرنى بالسكون قائلا ان الحيوان لا يتحمل السفرية بأسرها اذا أتعبته بهذه الافعال الصعبة التى لا تتأتى الا من رجال حربية أما أنا فصرت محبوبا لدى عموم القافلة وحلقت لكثيرين ثانى يوم الرحيل وأما سيدى فانى لا أقدر أن أصف مقدار ما سليته وسروره الزائد منى بمجانستى له فانه بعد حصول التعب الشديد له ونزوله من فوق بغلته كنت أستعمل له صنعة الاستحمام لازالة تخذل أعضائه بتكبيس جميع جسمه وتدليكه بيدى

هذا وما زلنا سائرين بدون أن يعيقنا عائق أو يسوقنا سائق حتى وصلنا مدينة طهران وأقمنا بها عشرة أيام لراحة البغال وازدياد عددنا بالذين يرغبون فى السفر معنا من تلك الجهة

اما الخطر الذى سيحصل لنا فهو من قبيلة يقال لها التركمان وهى التى كانت مع ملك العجم فى احدى الحروب وقد اشتهرت بقطع الطريق وتقدم انها هجمت على قافلة ونهبتها وأخذت من بها أسيرا وهكذا كانت الاخبار المخيفة التى تنقل عن التركمان حتى ان كثيرا من فريقنا ومنهم سيدى بالاخص حصل لهم الفزع الاكبر من سفرهم الى مشهد ولكن الاموال العظيمة التى أخذها فى ثمن الجلود المبيعة فى اسلامبول أدخلته الغرور وألزمته جبرا عن أنفه بعدم الانزعاج قط لما هو عليه من الميل الشديد فى حب طلب المكاسب حيث قيل

بقدر الكد تكتسب المعالى * ومن طلب العلا سهر الليالى
ومن طلب العلا من غير كد * أضاع العمر فى طلب المحال

وكان المعرّف فى اثناء هذه المدة يجمع الحجاج فى طهران ومايجاورها لانتظار حضور قافلتنا فلما وصلنا لتلك الجهة أخبرنا انه جهز فرقة عظيمة للسفر معنا وأكد لنا انها تقوية لنا وأوصانا بوجوب الترحيب بها نظرا للخطر الذى سيصادفنا عن قريب وكان هذا المعرف رجلا مشهورا بمعرفة الطريق مابين طهران ومشهد ولذا اكتسب الصيت بقطعه غير مرة رأس تركمانى حينما يصادفه فى طريقه ويرى من هيئته انه جسور شديد البطش لطول قامته وعرض كتفيه وغباشة وجهه المحترق من حرارة الشمس ومتزين بالشعر المسترسل من رأسه على عارضيه بهيئة اللحية ولابس درع حديد وعلى رأسه خودة بها جدائل مفتولة من الحرير تهف على أكتافه وبجنبه سيف مقوس وبمنطقته طبنجات وعلى ظهره ترس وفى يده حربة طويلة كانه يطلب البراز والقتال وصار يتفاخر ببسالته ويتباهى بشجاعته ويتكلم باحتقار كلى عن التركمان وبذلك عزم سيدى ان يركن على هذا الرجل فى سفره ويكون مرافقاله تحت حراسته ثم استعدت القافلة للقيام بعد عيد النيروز باسبوع وبعدان أدواصلاة الجمعة فى أكبر جامع فى طهران تحتفل فيه الناس ذلك اليوم توجهنا القرية الشاه عبد العظيم حيث تقوم منها عموم القوافل للسفر ولما وصلنا تلك القرية قمنا منها وكنا نمشى مراحل خفيفة حتى وصلنا البلادة جافة قفرة وبها اقرت أعيننا وهدأت قلوبنا وكنا كلما نصل لقرية أونتقابل مع سياحين تنادى الجاويشية (بسم الله والصلاة على النبى) بنغمات عالية طنانة ويردفونها بالضرب بسيور جلد على طبولهم الموضوعة داخل منخنيات سروجهم وكانت أغلب مسامرتنا عن التركمان

هذا وان كنا أجمعنا آراءنا بانكسار العدو وكونه فى تلك الجهات الا اننا صرنا نسلى أنفسنا مؤملين انه مهما بلغ عدده لاشئ يوقف عدد ناضده لما نحن عليه من الاهبة والاستعداد ونحن ننادى (باسم الله الله أكبر) ونقول من هؤلاء الكلاب الذين يتجاسرون بالهجوم علينا ونحن الليوث الهوامر والاسود الكواسر والابطال الفواتك وصار كل منا يتفاخر ويعجب بقوته وشدة بأسه اما سيدى الذى بخلاف غيره فاسنانه تخبط ببعضها لهذا المحذور الخطر فمع افتخاره بما سيجريه من الشجاعة عند الهجوم فكان كل من يسمع كلامه يظن انه لم يشتغل بشئ مدة حياته الا بمحاربة وقتل التركمان ولما رأى الجاويش ان صوت سيدى يعلو على جميع الاصوات داخله الغيرة العظيمة حيث رآه يظهر نفسه انه أقوى وأشجع هذه القافلة ولم يعلم انه كما قيل

واذا ماخلا الجبان بارض * طلب الطعن وحده والنزالا

فصاح بصوت عال قائلا لا يلزم أحد منكم التكلم فى حق التركمان مالم تنظروهم ألم تعلموا انهم الملقبون بآكلى السباع ولم يسلم أحد من ضرر قبضتهم وبوقتها صار يبرم فى شواربه جهة أذنيه وما كان سيدى يقول الصدق الا عند قوله ان الشاب مهما بلغ استعداد آلاته الحربية وكان عنده من القوة مايضاهى قوة الفيل فانه يكاد ان يمزق من الخوف حبال الكعب اربا أى قطعا يوم الحرب (وهى الحبال التى تستعمل فى الشرق لصيانة الخيل) ولم ير سيدى عثمان أغا طريقة بها يأمن على نفسه من غوائل العدو فى حال الهجوم يتميز بها عن رفقائه فى المسير أحسن من جعل نفسه من أتباع سيدنا عمر رضى الله عنه ولكى يشهر نفسه بهذا المذهب مزق قطعة شاش خضراء ولفها على عمامته وجعل نفسه على شكل أمير أو رسول من النبى الكريم عليه السلام على انه ما كان يفارق بغلته التى

يركبها ولم يتحد مع أحد أكثر من اتحاده معها
ولما قطعنا مدة أيام ونحن سائرون على هذه الحالة ماندرى الا والجاويش نادى بصوت مزعج يريد به أهمية التفاتنا اليه وقال اننا الآن واصلون لجهات التركمان الذين ينتظرون فيها القوافل وأوصانا بالسير جميعا حزبا واحدا وبالاستعداد للمقاومة العنيفة اذا حصل الهجوم علينا فأول حالة جبرية حصلت لسيدى عثمان أغا عند سماعه هذا النداء هى كونه قفل بندقيته ورفع طبنجاته وأدخل سيفه فى غمده ووضعها على احدى البغال الحاملين العفش وتوجع من حصول ألم بمعدته تاركا جميع اشغاله الحربية التى كان فى أوائل الامر مشغولا بها وأدرج نفسه فى عباءته وظهر على وجهه المذلة والفزع وأخرج سبحته وصار يتلو عليها (سبحان الله واستغفر الله) وبهذه الحالة استعد لان يسلم نفسه للقضاء والقدر مع انه ظهر ان معظم اعتماده لحماية نفسه على الجاويش الذى رأى منه عدم مبالاته بالاخطار لاسباب أخرى تحققت عنده وهى تحويطه بالطلاسم العديدة والتمائم المربوطة على ذراعيه وبذا تأكد له ان ذلك يبعد عنه سهام التركمان فى أى وقت كان

ومازال الركب سائرا على هذا المنوال يتقدمه الجاويش بحسامه ذى النصلين وبرفقته فارسان من أشجع القافلة متباعدون عنها بمسافة قليلة بصفة خفراء لها وصاروا يظهرون قوتهم ويشجعون أنفسهم كل لحظة ويطلقون خيولهم فى البطاح ويلعبون بالاسنة والرماح ويضربون بها الهواء وهم لا يبالون بالعدا وبينما نحن على هذه الحالة اذ سمعنا طلق البنادق والرصاص وأصواتا وحشية خرقت آذاننا فقلنا شئ خفنا منه فوقعنا فيه ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

فعند ذلك وقف الجمع من تعب وتأخرت الرجال والابطال والحيوانات عن

المسير وصاروا يضطربون كفرقة العصافير عندما يرون صقرا يهجم عليها من بعد فانضممنا من الخوف وصرنا كجسم واحد ونحن لا نجد مدافعا الى أن تحققنا هجوم طليعة من التركمان علينا وبوقها اصفر لوننا واقشعر جسمنا وتغير حالنا والبعض ممن كان ذا قوة فر هاربا من جهة والبعض من جهة أخرى ومن ضمنهم سيدى عثمان أغا ولكن كيف السبيل وقد أحاط بنا الهلاك الوبيل وتسلط عليهم الخوف الشديد وانحلت قواهم وهم يصيحون ويتضرعون ويقولون يا الله يا الله يا أئمة الدين ويا محمد يا نبى الله وخاتم المرسلين راحت أرواحنا وفقدنا أموالنا وأحاق بنا العطب وعن قريب يدركنا الموت المبين فيا مغيث المغيثين أغثنا بحق الرسول الامين وفى أثناء ذلك نزلت المكارية الاحمال عن البغال فى هذه الفلاة وهربوا طالبين النجاة وكان العدو يتبعنا برمى السهام ويتساقط علينا كالغمام حتى لحقونا واحتاطوا بنا وأصبحنا غنيمة باردة بين أيديهم أما الجاويش الذى خلص نفسه من جملة معارك كهذه فعندما رأى العدو فر هاربا ولم نر ولم نسمع عنه شيأ هذا واستمر العدو ينهب العفش والاحمال وانتشر بجيشه العرمرم فى الخلاء وملأ بعدده وعدده الصحراء

فلما رأى سيدى ذلك الامر المهول ولم يجد له مفرا من المقدور اندرج ضمن بالتى بضاعة لينتظر ما يكون من هذه الواقعة فاكتشفه أحد التركمان ذو الهيئة الهائلة والمنظر المخيف بحمله فى أول الامر على ظهره ضمن الطرود فلما أحس بشئ يتحرك على ظهره كالموسوسة طرحه على الارض فقام مرعوبا مفزوعا وعايتذلل اليه وهو لا يصدق بالنجاة بغاية الخضوع والمسكنة واجتهد فى ملاطفته وتهدئة خاطره وهو يستغيث بسيدنا عمر لاعتقادهم فيه ويسب الامام عليا كرم الله وجهه لكراهتهم له ولكن أين من يسمع ومن دوائه ينجع فما ازداد التركمانى الا صلابة

وقساوة وجرده من ملابسه ولم يترك عليه سوى عمامته لقبح لونها مع قبصه ولباسه وأخذ برنسه اللطيف وسرواله ولبسهما أمامه ولكون ملابسى رثة لا تستحق السلب سمح لى بعدم قلعها وبذلك استحوذت على صندوق أمواسى وهذه منة عظيمة بالنسبة لما حصل لسيدى

وعندما أتم التركمان السلب ابتدؤا يوزعون الاسرى على بعضهم وركب كل منا خلف خيال بعد ان غموا أعيننا لنضل عن الطريق ثم استمروا سائرين بنا طول النهار حتى أنزلونا ليلا فى واد صغير واستراحوا فيه تلك الليلة وفى الصباح كشفوا غمانا فوجدنا أنفسنا فى مسالك لا يعرفها الا التركمان ثم قاموا وما زالوا سائرين فى أودية معرقلة وجبال مقفرة حتى وصلنا الى خلاء فسيح قدر مد البصر كاننا فى آخر حدود الكرة فوجدناه مزدحما بخيام سود من خيام العدو وأغنامهم ومواشيهم وهناك أنزلونا ننتظر ما يكون من أمرنا

الفصل الثالث

(الكلام على من وقع فى أيديهم الحاج بابا وما ناله من السعادة والحظ الوافر باسباب أمواسه)

أما التوزيع الذى حصل فى الاسرى بين التركمان فكان فى غاية الانتظام لان من حسن البخت كونى أنا وعثمان آغا وقعنا فى يد سيد واحد وهو ذلك اللص الوحشى الذى ذكرته سابقا واسمه أصلان سلطان رئيس جردة عظيمة مبدؤها أول نزولنا من الجبل لغاية وصولنا للخلاء الفسيح وخيامه منصوبة على تخوم أخدود صغير ممتد وفى وسطه قناة ماء متفرعة لتلول مجاورة له وبه مراعى مخضرة مملوءة بالمواشى المنتشرة عليها بقدر ما يرى الانسان امار فقاؤنا المصابون معنا فحملوهم لجهة أبعد منا داخل هذه البلدة

ووزعوهم على قبائل التركمان المختلفة القاطنة فى هذا الاقليم

وبمجرد ظهورنا فى هذه البلدة قامت العساكر جميعها وأحاطت بنا من كل جانب للتفرج علينا اما قائدنا فاستقبلوه بالبشر والترحيب وهم يهللون باصوات عالية فرحا بقدومه منصورا وأما عنا فحدث ولا حرج عما حصل لنا من استقبال كلابهم فانها لما رأتنا هجمت نحونا عصبة كبيرة من كلاب الغنم وظلوا ينبحون علينا حتى كادوا يبتلعوننا حيث علموا اننا غرباء فقلت لا اله الا الله أهذا يقابل بالبشر والفرح ونحن نقابل بالذل والنبح بين هؤلاء الاجرام والقوم اللئام فلعل الله يأتينا بالفرج القريب ويأخذ بناصر الغريب والحمد لله على هذه المصيبة

يا نائم الليل فى جثمان يقظان * ما بال عينيك لا تبكى بتهتان
ان الليالى لم تحسن الى أحد * الا أساءت له من بعد احسان
أما رأيت صروف الدهر ما فعلت * بالهاشمى وبالفتح بن خاقان

وفى هذا الوقت حصل لسيدى نوع احترام بالنسبة لشاله الاخضر المعمم به ولكن بمجرد ما رأته البانو (وهى الزوجة الاولى للقائد كما يلقبها التركمان) مالت نفسها اليه وأخذته بوقته فلم يبق على رأسه غير قاووقه المحشى الموضوع فيه دراهمه فاستحسنته احدى زوجاته الاخرى فأخذته قائلة انه ينفع لحشو رحلى الذى أضر بظهر جملى وحذفته بين الادوات فى أحد أركان الخيمة بعد ان اجتهد غاية الجهد فى عدم تسليمه لما فيه من الدراهم فلم يمكنه ذلك ثم ألبسوه بدلا عنه قاووقا من جلد الغنم كان يلبسه رجل من المصابين مثلنا كان مأسورا عندهم ومات حزينا محصورا

وبعد أن ألبسوه هذا القاووق عينوه فى وظيفة المتوفى وهى سوق الابل حال ارسالها للمرعى فى الجبال حيث لم يتوهموا منه الهروب لسمنه وثقل جسمه أما أنا فلم يسمح لى بالانتقال وترك الخيام وكانت وظيفتى

يومئذ نخض الاكياس الجلد الموضوع فيها اللبن لاخراج ما فيه من الزبدة

ولشهرة انتصار التجريدة أعد القائد وليمة شائقة لعموم المعسكر وأحضر قزانا كبيرا ملآنا من الارز المفلفل وعليه شاتان مشويتان ودعا الرجال من الخيام المحيطة به وبعض الذين حضروا الهجوم على قافلتنا واجتمعوا فى خيمة واحدة وأما النساء فاجتمعن فى خيمة أخرى وبعد ان قدموا الارز واللحم للرجال وشبعوا حملوه الى النساء فاكلن ما يكفيهن وأعطين الباقى لاولاد الرعاة فاكلوا ولم يتركوا غير العظام وفضلات الصحون فاحضروها لنأكلها مع الكلاب ولانتظارى هذه اللقمة مهما كانت بكل اشتياق لعدم أكلى من وقت أسرى الى الآن مكثت عليه بكل شهوة فرأتنى احدى النساء اللواتى أخذتها الشفقة علىّ وأومأت لى فتوجهت نحوها فاخفتنى خلف احدى الخيام وقدمت لى وعاء ملآنا من الارز وعليه قطعة من دهن الغنم كانت أعطته لها احدى زوجات القائد ورحمة لمصيبتى أهدته الىّ وأمرتنى بتشجيع نفسى ثم عادت لمحلها بسرعة بدون أن تنتظر لتشكراتى

هذا وقد مضى النهار على الرجال بالتدخين وسرد خطراتهم لبعضهم وعلى النساء بالغناء وضربهن على الطنبورة أما أنا وسيدى المسكين فكنا نتفكر ونتأمل فى حالتنا الكئيبة ولكن علامات الالتفات التى حصلت لى الآن من تلك المرأة أهدأت روعى وأسكنت خاطرى وأراقت فكرى للشغل وعلمت من ذلك عدم اليأس كلية من تحسين مستقبل حالتى وما ذلك الا بدعاء والدىّ ووالدتى

هى المقادير تجرى فى أعنتها ✱ فاصبر فليس لها اصبر على حال
يوما تريك خسيس الناس مرتفعا ✱ الى السماء ويوما تخفض العالى

ثم

ثم اجتهدت بلا طائل فى تطييب خاطر صاحبى الذى لم يفتر عن البكاء لحظة على ما لحقه من هذه المصيبة العظمى ومازلت أسكن عقله وأسهل عليه أمره بقولى ان المسلم الحقيقى ليس له ملجأ سوى كونه يسأل الله الرحمة ويلتجئ لكرمه وينتظر عفوه سبحانه وتعالى فى حال الحزن والمصيبة

تعز فكم لك من سلوة ✱ تفرج عنك غليل الحزن
فوت النبى وقتل الوصىّ ✱ وقتل الحسين وسم الحسن

فما كان منه الا وأجابنى بقوله مثلك الذى يقول (انه كريم الله كريم) لانك لم تفقد شيأ ولكن ها أنا نهبونى وضربونى وأصبحت لا أملك فتيلا ولا قطميرا ولا نقيرا ثم سكت ولم يتكلم وجميع أفكاره متحولة نحو خساراته واعدام أمواله ومكث يحسب ما ضاع منه من الاموال والبضائع ولم يترك بارة مما خسره فى هذه الوقعة الا وأدرجها ضمن الحسبة مع اننا كنا أيسنا من الحياة ولم يحمد الله على نجاة نفسه ولم يعلم ان رزية المال خير من رزية العيال فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

ثم أرسلوه ثانى يوم الى الجبال ومعه خمسون جملا للمرعى بعد ان أصدر اليه القائد التنبيهات والتهديدات المشددة بالمحاذرة والتحفظ عليها واذا ضاع منها جمل فثمنه يضاف على قيمة الفدية التى سيأخذها عليه فيما بعد فصعبت علىّ حالته وكان وقتئذ شعره هائلا فأردت ان أحلق له لحيتى له وأجلسته على رحل جمل وأخذت جزء ماء من ينبوع بجانبى وأحضرت قطعة صابون ووضعتها داخل الماء وأخرجت أمواسى التى نجيت بها من نكبات المقدورات وحلقت له على رؤس الاشهاد فلما رأتنا الناس على هذه الحالة أحاطوا بنا يتفرجون على هذه الحرفة العجيبة التى اتضح لى منها فائدة نتيجتها المستقبلى حيث كنت أحلق لمن يريد من الأمام لان من عادة العجم ترك جديلتين خلف كل أذن كهيئة الضفيرة

وأما الاتراك فيربون لهم شوشة فى منتصف الرأس فعند ذلك وصلت شهرتى للقائد فاحضرنى وأمرنى بحلق رأسه بلاتوان فباشرت العمل وقد وجدت برأسه جملة علامات من ضربات السيوف وشعره به خشونة كشعر كلاب الغنم السالفة الذكر وقد ترا آى لى انه متعود على قص شعره فقط وربما كان يقرطمه بالآلة التى كانوا يجزون بها غنمه حيث كانت أعظم لذة عنده بواسطة أحد حلاقى بلدته فلما رأى ما رأى من حسن صنعتى وغريب حلاقتى استشعر من تحت يدى بالنعيم وأظهر لى بطلاقة وجهه ممنونيه لاحساسه بخفة رأسه وقال لى كأنك حلقت طبقتين من تحت جلدى ومكافأة لى أقسم انه لا يقبل منى فدية مهما بلغت قيمتها وسكن خاطرى ولقبنى بعزيزه الخصوصى وهنا أترك للقارئ النبيه التنصيص على ما حصل لى من المسرة والانتعاش لهذه الحالة ثم جثيت على ركبتى لتقديم تشكراتى لسيدى الجديد على حسن تعطفاته نحوى الا انى كنت أثناء ذلك أتدبر فى انتهاز فرصة لخلاصى من مخالبهم وبالنسبة لتقربى للقائد ومحبته لى صرت أتدلل عليه شيأ فشيأ وأعلو بكلمتى وأمرى عليه مع غاية المحافظة على نفسى ومازلت على هذه الحالة مدة أيام وأنا أتدبر فى الطرق المستحسنة لهروبى وفكى من أسر العبودية الكريهة التى وقعت فيها نظرا لما أكابده من المشقة والعناء وان كنت مستريحا بالنسبة لغيرى

﴿الفصل الرابع﴾

(فى حذاقة الحاج بابا واحتياله فى خلاص دراهم سيده من أيدى التركمان والطريقة فى حفظها)

ومن ضمن مقاصدى التى تراءت لى ان الواسطة فى اسعافى ومساعدتى

على الهروب لا تكون الا بتدبير طريقة بها يمكن الحصول على دراهم سيدى المخيطة فى حشو عمامته القديمة السابق حذفها فى احد أركان خيمة النساء وان الحصول عليها لا يكون الا بالمهارة التامة بشرط عدم شبهة أو تهمة خلافى هذا وقد شاع ذكرى واشتهر أمرى بين عموم الناس والعساكر المجاورة لنا وصرت محبوبا وفقط لم يبق لى حيلة للدخول على البانو وباقى النسوة الا التشكر اليهن وابداء اشارات الممنونية التى بها أظهر لى صلة المحبة والمودة منهن الا انه لا يمكننى التطرف نحوهن لعدم لزومى عندهن بأى صفة من الصفات وانما لما تعلمه الرجال والنساء ان حلاقى العجم لهم دراية تامة بالجراحة وذلك بخلاف ما يتقنونه من صناعة التكبيس والتدليك فى الحمامات خصوصا فى الفصادة وخلع الاسنان وتجبير العظام فللتعطفات الالهية والمنن الربانية ارادت البانو الفصد فى يوم من الايام فكان هذا غاية القصد وأرسلت وكيلها تستفهم منى عن مقدرتى فى اجراء هذه العملية فقلت فى سرى كيف لا يمكننى وهذه هى الفرصة التى أتوصل بها الى وقوفى على موضع الامانة وأخذها بأى حالة ثم أسرعت مجيبا (نعم) وقد كنت استعددت باحضار مشرط من أعظم الاسلحة أفصد به بمهارة عجيبة بغاية الدقة والاحتراس فلما أخرجت العدة من جيبى أتى رجل من كبار القبيلة يدعى انه منجم يعرف علم الفلك وحسب الطالع وقال ان النجوم السيارة التى يصلح فيها الفصد لا تكون الا فى الصباح فلما رأيت ذلك أكذوبة تركته فى اثناء حديثه ولم أصغ اليه ودخلت خيمة النساء فوجدت البانو جالسة على سجادة مفروشة على الارض تنتظرنى بلا صبر فلما تمثلت أمامها وسلمت عليها وجدتها امرأة لا تميل اليها الجوارح البشرية ولا تهيج منها الشهوات الذاتية سيما الشاب مثلى فى يانع شبوبيته وعلى كلا الحالات كنت أكره النظر اليها لسببين أولهما شدة

نحافة جسمها وقبح شكلها الذى لا تهواه النفس وثانيهما خوفى من زوجها أصلان سلطان وبذلك ما كان يمكننى التملق ولا الميل اليها وان كانت تظهر محبتها نحوى خوفا من أن يكون عاقبة هذا الامر تخليص آذانى واعدام حياتى مع انها كانت تنظر الى نظرة رضا وتراعى فى مزاجى كانى سيدها كما أن النساء اللواتى يصحبنها كن يعظمننى ويلتفتن الى كل الالتفات وجميعهن يتمنين ان أجس نبطهن لانظر أيتهن يلزمها الفصد وفى اثناء تجهيزى آلة الفصادة للبانو كنت أتطلع وأحول نظرى فى أركان الخيمة لعلى أقع على هذه الامانة التى أتمنى أخذها ولانتهاز الوقت الطويل للحصول على اتمام الفائدة بالنسبة لاغراضى فى هذه العملية خطر بفكرى اعادة تجربة نبطها مرة أخرى فأمسكت يدها وأنا أتأمل بشدة لنبطها واتماما للغاياتى أريتها ان الدم معقد وفاسد ولا يصح اسالته على الارض بل يلزم جمعه فى وعاء لامتحانه عند القضاء حيث وقع نظرى على موضع الامانة فكان نتيجة قصدى ضجيج النساء وصياحهن مع بعضهن ولكن البانو لم توافقهن بل عدلت عن رأيهن ووافقت على آرائى وذلك لما فيه من الصعوبة الكبرى بما انه يشق على التركمان تعرض أى اناء للاتلاف بواسطة استعماله بشئ ينشأ منه تلف الاناء بالكلية وعلى ذلك صرن يناقض بعضهن بعضا وينكرن وجود أوعية بطرفهن وكل ما يرونه يستخسرن رميه واتلافه ويظهرن معزته عندهن هذا وبينما أردد أفكارى بالمجاسرة لتوجهى ذلك المحل الذى فيه القاووق فما كان من البانو الا وافتكرت وعاء قديما من الجلد وأمرت احدى النساء بالبحث عنه فلما أحضرته ونظرته قلت لها انه لا ينفع لما فيه من المناور الموجودة فى قاعه وهممت نحو باب الخيمة ورفعته امامى للكشف عليه ولاتمام مرغوبى شققته بالسكين ومازلت كذلك حتى خرقته نحو ستة خروق ثم أريتها

عدم نفعه وصاحت البانو على النساء أين القاووق القديم الذى كان يلبسه الامير المأسور فاجابتها الزوجة الثانية انه تعلق وأخذته لاحشى به رحل جملى فقالت لها بعنف شديد لا اله الا الله كيف يكون ملكك وتمنعينه عنى وأنت تعلمين انى سيدة هذا الحرم وكبيرة عليكن فالبتة من احضاره فاجابتها الزوجة الثانية مغضبة وقالت لا أحضره

فهاجت النساء لذلك وعلا الصياح والضجيج وعندها خشيت ان يأتى هذا الخبر لمسامع أصلان سلطان فيفصل المسئلة باستولائه على الشئ الواقع عليه المشاجرة من أيدى المتشاجرتين

انما من حسن بختى وسعدى تداخل المنجم فى حل هذه المسئلة وأكد على الزوجة الثانية مشددا انه اذا استمر النزاع على هذا المنوال فحينئذ يهرب الدم الى رأس البانو فيؤذيها فلما سمعت كلام المنجم انجبرت على ابطال دعواها وسلمت لها القاووق فحمدت الله على ما أنعم على به من التسهيلات وعلى ذلك أجريت الاستعدادات اللازمة لفصدها فلما ان نظرت المشرط والوعاء من تحتها لنزول الدم فيه والاعين المتطلعة اليها من كل جانب المتشوقة لمشاهدة تلك العملية داخلها الفزع والخوف ولم تسمح لى باتمامها فلخوفى من ضياع الثمرة المقصودة نظرت اليها بعين الشفقة والحلم وجسست نبطها وقلت ان امتناعها مضر بها وضرورى من فصدها والامتثال لما قدر عليها الان كل انسان لا يمكنه يعلم المانع للقضاء المقدر عليه من ابتداء خلقته فعند ذلك لم تجاوبنى بشئ بل اتفق آراؤهن جميعهن انها اذا عارضت الاحكام الالهية فتكون بذلك ارتكبت الخطيئة والاولى امتثالها القضاء الرحمن فمدت ذراعها عريانا وثبتت بقوة ظاهرية لضرب مشرطى فلما انقطع سيلان الدم وانتهت العملية أمرت بنقل الوعاء الذى به الدم الى محل بعيد عن المعسكر بمسافة قليلة وان لا يسمح لاحد قط ان

يصل اليه خلافى حتى أعلم اصابة المريض من خير أو شر الناتج من الفصد بعد سيلانه وامتحانه بمفردى
ثم انى انتظرت حتى أظلم الليل ونامت جميع الناس وخرجت خارج المعسكر ومزقت بطانة القاووق وأخذت الخمسين دينارا بفرح وسرور لا مزيد عليه وأخفيتها فى حفرة قريبة ثم حضرت الى حفرة أخرى أيضا فأخفيت فيها القاووق وعدت لمكانى فلما أصبح الصباح توجهت للبانو مظهرا الاسف وأخبرتها اننى لما خرجت بالامس خشيت حصول شئ منها يضر بالدم فدفنته مع القاووق فى الارض فاقتنعت بكلامى وحصل لها الانبساط ومكافأة لى على خدمتى أرسلت لى صحنا صناعة يدها وعليه قوزى محشى بالارز والزبيب وبجانبه وعاء مملوء لبنا حامضا ومنثور عليه الملح ثم ويلزمنى الاقرار بما رأى بفكرى وقر عليه رأيى وهو انى لما استحوزت على الخمسين دينارا خطر ببالى سيدى القديم الذليل الذى نغصت عليه معيشته بالمقت فى الجبال برعى الجمال حال كونى فى درجة مناسبة من اللذة وعزمت فى نفسى وأنا متقلقل النية على رد هذا المبلغ اليه ومازلت أحاول الافكار وأتباحث رويدا فى الآراء المرار وأقول لولا شطارتى وحذاقتى لضاعت الدراهم كلية فمن ذا الذى حينئذ له الحق فى أخذها خلافى ولو فرضنا واستحوذ عليها صاحبها الثانى فلا تفيده فائدة بالنظر لوظيفته التى هو بها الآن لان واحدا بين تسعة وتسعين شخصا لا يمكنه اعمال شئ ومن حيث انه لو أخذهم لابد من سلبهم منه بواسطة الناس الذين بصحبته فالاولى ابقاؤهم معى الآن بما انه موعود بفقدهم وأنا موعود بالاستيلاء عليهم وعلى ذلك انفصلت صعوبة هذه المسئلة ورأيت فى نفسى بهذه الادلة كأنى المالك الاصلى للخمسين دينارا ولا يجوز لاحد فى أى شريعة كانت ان يأخذها منى

و بعد انتهائى من هذه الورطة اجتهدت فى ارسال نصف القوزى المشوى اليه الذى أهدى لى ليسد به رمقه ويرد جوعه فناديت أحد الرعاة وكان ذاهبا للجبل وأخبرته بتفاصيل المسئلة وعاهدته بتوصيله اليه فوعدنى بعد أن أقسم لى انه لا يمسه فى الطريق بل يوصله له بكماله فمع هذا كله مازلت أشك فى كلامه ولكن بعد نهوضى مذاكرة الدنانير السابقة قلت لا يهدأ خاطرى مالم يشاركنى رفيقى التعيس فى اقتسام لذاتى وعلى ذلك سلمت للراعى نصف القوزى لتوصيله اليه ولكن يا ألف حسرة وخسارة ما حسبته وجدته فانه لم يستغرق هذا الشق بجهة النهر الذى فى حدود المعسكر الا ورأيته يقطع فلذات من اللحم ويضعها فى فمه ولا أشك فى كونه أكله وخلصه قبل وصوله بل ونظف على عظامه من قبل أن يختفى عن بصرى وترائى لى عدم النجاح فى اقتفاء أثره لطول المسافة التى قطعها ولم يفرج عن نفسى الا كونى التقطت حجرا من الارض ونشنت على رأسه وحذفته فلم يصل اليه ولا يتم مقصودى حتى أشفى غليلى فتركته وأنا كاظم الغيظ

الفصل الخامس

(صيرورة الحاج بابا الصادر محاميا لنفسه واغارته على وطنه)

أقول قد مضى الآن نحو السنة وأنا فى أيدى التركمان وتحصلت فى أثنائها على محبة سيدى وميله الى حتى آل أمره الى أن يشاورنى فى جميع مصالحه الخارجية بل وفى داخليته وكنت أنا الآخر ملازما ومصادقا له ومطيعا لجميع أوامره فلما رأى صداقتى وحسن سيرى وعلم بذلك علم اليقين انه يركن الى فى مهمات الامور المتعلقة بشؤنه مالت طبيعته الى أن يسمح لى بمرافقته فى سياحته على قبول التنزه الى بلاد العجم بقصد السلب فحال ما بلغنى هذا الخبر كدت أطير فرحا حيث بهذا الاذن فرصة عظيمة لهروبى منه بغاية

الراحة فانى طالما ترددت وكررت عليه بان يأذن لى فما كان يقبل منى حتى سمح الزمان وآن الاوان بمنتهى بغيتى ووصولى معززا لبلدتى على أنه ما كان يسمح الى هذه الساعة بالفسحة خلف المعسكر ولا بالتوجه خلف المراعى المحيطة به خوفا من الفرار مع انه ما كان يمكننى ذلك لانى كنت عادة أجهل الطرق التى داخل الصحراء العظيمة المالحة الفاصلة بيننا و بين بلاد العجم وعلمت أنى لو اجتهدت فى الفرار لا يفيدنى شيأ لجهلى وعدم استدراجى على هذه المسالك حيث اتضح ان كثيرا من الناس قبلى هربوا وأغلبهم هلكوا والبعض عادوا السادتهم فعاملوهم بشدة وعنف عن قبل وعلى ذلك ابتهجت سرورا لعلمى انى ملكت الفرصة لمشاهدة الصحراء التى سمر منها وعزمت فى نفسى ان لم أتمكن من الهروب أثناء هذه التجريدة فما يمنعنى شئ عند العودة عن الفرار بالنسبة لوقوفى على الطريق فى الرحيل

ولكون أغلب سياحات التركمان كانت فى فصل الربيع لوجود المزارع والمراعى فى الاراضى العالية لخيولها والغلال الناضجة فى الاراضى السهلة والداعى الاكبر أيضا تحققهم مقابلة القوافل فى هذا الفصل حتى يشنوا عليها الغارة بالنهب والسلب حال سفرهم فلقرب هذا الفصل دعا ذات يوم أصلان رؤساء قبيلته ورؤساء العشرات والمئات وكل من كان مشهورا بالشجاعة فى النهب وأبان لهم التفاصيل التى يقصد بها السياحة الى وسط بلاد العجم اذ كان قصدهم الوصول الى نفس أصبهان والدخول ليلا بعد نيام أهلها وهجوع من فيها فيسلبون الخان الذى يلتجئ اليه أغنى تجار المدينة وكان سيدى المذكور هو القائد لنا فى هذه الصحراء العظيمة لان المامه وخبرته ومعرفته بالطرق كانت أحسن من أى انسان معاصر له ثم قال للمجلس حال انعقاده انه بالنظر لعدم معلومية أحد منكم بشوارع وأسواق مدينة أصبهان خلاف الحاج بابا فقد عينته دليلا لنا فى الطريق عند دخولنا المدينة

فلما سمعوا كلامه عارضت جملة ناس هذا الرأى وقالت أيها القائد كيف يكون ذلك فان من عدم التبصر الاعتماد على أجنبى حالة كونه وطنيا أى من نفس المدينة المراد سلبها اويوده الفرار فى هذه الدقيقة من هنا فكيف اذا وجد من يوصله الى بلدته وهو آمن مطمئن على نفسه فاتفقت الآراء أخيرا بعد حصول جملة مجادلات بانه لا بأس بان أكون الدليل لهم فى اصبهان بشرط أن يحتاط بى رجلان حتى اذا رأيا أى اهمامنى علامات الخيانة فبوقتها يقتلانى فى نفس البقعة

ولما انفض المجلس على ذلك أخذت التركمان فى استعداد خيولها وقد جهزت لى حصانا من أعظم الخيول المشهورة التى خرقت بندرة السبق دفعتين وتهيأت على شكل التركمان حيث لبست على رأسى طربوشا كبيرا من جلد الغنم وتسلحت بحسام وقوس ونشاب وحربة ثقيلة برأس ترفع وتوضع عليها عند اللزوم وكان مربوطا خلفى على ظهر الحصان كيس حنطة وحبال لعقل الحصان عند الوقوف وقرص من الخبز الطعامى الخصوصى كانوا يخبزونه على ألواح صاج وتراه بعد الخبز فى سمك ورق الكرونة ومعى أيضا ستة بيضات آكلها عند الضرورة وشدة الجوع حال حصول مشقات أو مناوشات لا يمكن استعمال الخبز فيها وقد عودت نفسى على التخشن والتقشف من وقت ما أسرت الى هذه المدة ونومى على الارض وأى شئ أجده أجعله وسادة تحت رأسى وبذا فوجود فراش للنوم وعدم وجوده مستويان عندى وكانت رفقائى تشابهنى فى القوة والتخشن ومن الجائز انه كان يمكننا فى حالة تعب أجسامنا الى آخر درجة أن نكون اكفاء لمقاومة أى أمة فى الدنيا

وأول شئ احترست عليه هو أخذ الخمسين دينارا من الحفرة وربطها جيدا فى حزامى ثم وعدت سيدى الاول الذى فى جسمه وتغير شكله من شدة

الحزن والغيظ انه لو أمكنتني الفرصة أبذل مجهودي بان أوصى أصحابه باطلاق سبيله فلما سمع كلامي تأوه وقال لا فكاك لي من هذا الذل الى الممات ولا أحد يسال عنى امامن جهة ابنى فأود ماعليه هلاكى واستحواذه على أمتعتي وكذلك زوجتي أحب ماعليها أن تتزوج زوجا آخر وبذلك خاب أملي لحين انقضاء أجلي ولا يلزمني الاحاجة واحدة وهى أن تعمل معروفا وتسأل لى عن أثمان جلود الشياه في اسلامبول فتاسفت على حالته وعدم حسن مقالته وتذكرت مصيبة من تلاهى في خزانة ماله ولم يتفكر في أمر أولاده عند شبوب النار بمكانه وقد قيل في حقه خطابا له

قبحت ياهذا ولقيت الردى * وجزيت بالخزلان والخسران
شبت بيتك ليلة نارلها * سعر حكى لون النجيع القانى
ياويح قلبك والنواظران ترى * ولديك في النيران يحترقان
لما سعيت الى الخزينة مسرعا * لا الدرهم الفانى كما اللهفان
وتركت أمهما تدق بصدرها * وتفيض منها العين بالهملان
فجزيت من قبح الفعال جهنما * وحباهما بالحور والولدان
وكفاك أن قد صرت أقسى واحد * أمثولة في الخان والبلدان

فتركته وأنا أحاول الافكار عن الخمسين دينارا وأردد في ضميري هل ينبغي ارجاعها اليه أو الاحسن حفظها عندي ولو تكون برمته لانه لو أمكنني الهروب يلزمني قليل من الدراهم أستعين بها في الطريق وباى طريقة لا يمكن سيدي الخلاص من الاسر الاعدا خلتي هذا ومازلت أقلب الافكار وأجوب موارد التذكار حتى قررأي أخيرا بابقائها في منطقتي وبعد ان أخبر المنجم عن أحسن ساعة يستحب الرحيل فيها قمنا في أوائل الليل وكانت عصبتنا تشتمل على القائد العمومي لهذه التجريده وهو أصلان سلطان وعشرين فارسا وأنا من ضمنهم وكانت رفقاؤنا من

أعظم فرسان العساكر المجاورة لنا وجميعهم فوارس كاملوا العدد وراكبون على أحسن الخيول المشهورة في السرعة وجودة الاصل المجلوبة من الخيول المشهورة داخلية آسيا وعندما ركبنا اعتقدت أن هيئتنا كهيئة طائفة السفهاء والاشرار وتصورت أننا ملكنا الصحراء لضجة الخيل فيها امامن جهتي فكنت أشعر من نفسي أن الطبيعة البشرية لا تخيل لى بان أكون فارسا ومع ذلك رأيت أن الاحسن ثباتي وتحفظي على هيئة الشجاعة والفروسية ظاهرا مادمت بهذه الحالة مثل الاشقيا الذين برفقتي فسلكت على هذا الاسلوب مظهرا القوة والبطش كى يعتقد سيدي ورفقائي انى فارس رستام (وهو اله الشجاعة والقوة قديما عند العجم كما هو مذكور في تاريخهم وفي شاهنامة العجم) ويعتقدوا أيضا انهم استحوذوا على فارس ضرغام مثلي مع انى في حقيقة الامر كان حاصلا لى انزعاج وجل شديد خصوصا كنت أتوقى اليوم الذى سيجرى تجربتي فيه كانما عنانى أبو العلاء بقوله

أسد على وفى الحروب نعامة * فتخاء تنفر من صفير الصافر

وكنت أتعجب كل العجب من فطانة ومهارة القائد الذى كان يقودنا في المزارع والغابات المهولة المغطية الجبال التى على حدود كبشالك أماروية المسالك الخطرة ومطالع الجبال الشامخة لسواح حديث السن مثلي فكان يرتعد منها جسمي ويضعف عزمي ولكن رفقائي لا يبالون بمثل هذا الخطر بل كانت عندهم سهلة العبور لا يشعرون بتعب ولا فتور لجودة خيلهم التى ربوها بحسب سيرهم وكنا لما نصعد فوق الجبل وندخل في سهول بلاد العجم الواسعة التى اشتهر سيدي بمعرفتها وبمسالك قفارها وأوديتها فبمجرد ما يظهر له أى علم كان يعرفه في الحال ما كأنه الابحارى افرنكى خبير بمسافة الجهات التى ينظرها من بعد في البحر والاعجب من ذلك

ما اشتهر به من الفطانة والفراسة التى يستخرجها من العلامات وخطوات الحيوانات التى يجدها فى الصحراء فنها يخبر عن جنس السواحين وعن بلادهم ومن أى الجهات آتين ولاى الجهات متوجهين وهل هم أعداء أو أحباء أو كانوا محملين أو فاضيين ومقدار عددهم التقريبى بكل دقة

ثم استمرينا بغاية التيقظ فى المسير وكنا نستريح نهارا فى الجهات المسكونة ونسير ليلا أما العلائق والمؤنة فصار تجديدها قبل دخولنا الصحراء المالحة من آخر معسكر من القبائل الرحالة وبعدها أخذنا فى الرحيل مسرعين بالخيل مما نعهده فيها من الجودة والشدة فى هذه البيداء والصحراء القفراء بعد أن قطعنا مائة وعشرين فرسخا (الفرسخ ثلاثة أميال ونصف جغرافى) وجدنا أنفسنا فى ضواحى أصبهان حيث قد اقترب أوان حصاد ثمرة التعب وحان وقت تجربتى فكان قلبى يسقط تارة ويتزعزع أخرى كلما أسمع حالة الهجوم التى اتفق عليها أصحابى ألا وهى أن ندخل المدينة من جهات خالية الحرس أعرفها جيدا وفى منتصف الليل نسلك طريقا مستقيما للخان الملوكى حيث كنا متحققين من وجود تجار كثيرين يجتمعون فيه فى هذا الفصل ومعهم النقود الجاهزة للمسواق وقد اتفقنا على أخذ جميع النقود التى نجدها ويقبض كل منا على تاجر بشرط أن نفر الى رحالنا بغاية السرعة قبل حصول انزعاج وصياح فى المدينة فلما سمعت ذلك رأيت فى نفسى أن هذه المسئلة قريبة الخطر ويحتمل عدم النجاح ونرجع بالخيبة والوبال فكان من رأيى عدم اجراء هذه العملية فعندها التفت لى سيدى وتفرس فى وجهى وبالحال علم ما أنا عليه فقال لى يا حاجى افتح عينيك وارجع عما تقترحه وألق نحوى أذنيك واعلم أن هذا ليس لعب أطفال حتى توقعنا فى المذلة والعار فلتكن أيدينا واحدة وآراؤنا لبعض معضدة فانى أقسم لك بحياة النبى صلى الله عليه وسلم ان لم تسلك حسب الاتفاق وظهر منك

اختلاس أو نفاق لابد أن أحرق أباك بعد أن أذيقك العذاب وأرميكما غذاء للكلاب فقد فزنا منها سابقا بالغنائم والاموال فكيف لا ننجح الآن ونعود بالخسران

ثم أمرنى بالركوب بجانبه وأمر شقيا أن يركب من الجانب الآخر وكلاهما انذارنى بانه اذا حصل منى ميل أو أى حركة تدل على خيانتى فلا تمر لحظة حتى يسقيانى كأس الممات ويدرجانى ضمن الغزوات فقلت يا سيدى سمعا وطاعة سترى ما يرضيك من القوة والشجاعة ومدحته قائلا

قل لليوث الخادره * وأولى النصال الباتره
وذوى الرماح العاسلا * ت اذا هززن لغائره
اياكم والتركمان * هم الاسود الزائره
كم قد تجندل منهم * بطل شجاع فاقره
لما غدا مخاطرا * دارت عليه الدائره

ثم سرنا فى مقدمة القوم ولوقوفى على مواقع أصبهان سلكت طريقا اخربا حولها ودخلنا فى الشوارع المسكونة التى كانت فى هذه الساعة من الناس خالية ومهجورة وبوصولنا المحل الواقعة اختبأنا فى احدى المنازل الخربة التى بجوارها ولم يتردد أحد جهتها الا نادرا ونزلنا عن ظهور خيولنا ودققنا أوتادا فى الارض وربطنا فيها الخيل بحبال الكعب وتركنا نفرين من رجالنا يحرسونها وبكل تحفظ عينا نقطة الاجتماع فى مغارة منفردة تبعد عن أصبهان نحو خمسة فراسخ وانها تكون محل التقهقر بحسب مقتضيات الاحوال فتوجهنا جميعا على الاقدام بدون صياح ولا كلام متجنبين الشوارع والاسواق التى أعلم أن فيها نقطا من العساكر المستحفظة وما زلنا ندخل من حارة الى أخرى حتى وصلنا البوابة الخان وهى الجهة التى أعرفها نقطة نقطة بدون أن أراها حيث بجانبها دكان والدى فاروقفت

صاحبي بعيداعنها وأخذت حجرا وطرقت على بابها لعلمي انه مقفول بالكالون وناديت البواب باسمه قائلا يا على محمد (افتح افتح) لان القافلة حضرت فقال وهو بين النوم واليقظة بدون أن يبدى أدنى حركة للفتح أى قافلة فاجبته هذه القافلة الحاضرة من بغداد فقال كيف ذلك وهذه القافلة قد حضرت من بغداد أمس هل تضحك على ذقنى فلما لم أجد له حيلة على الفتح وقد أوقعت نفسى فى الشرك اجبرت أن أخاطبه باسمى وأجبته قائلا اما هذا ان قولى لحقيقى وهذه قافلة حضرت مع الحاج بابا كربلى حسن بن المزين الذى سافر مع عثمان أغا التاجر البغدادى وقد أتيت اليك فى هذه الساعة لاخبرك بذلك وآخذ البشارة منك فاجاب يا هذا هل هو الحاجى الذى كان يحلق لى جيدا وترك محله خاليا من مدة مديدة فان كان هو فاهلا وسهلا بشرك الله بالخير يابنى تأن حتى أفتح لك الباب يا أعز الاحباب ثم قام يفتح الكالون ويرفع الترابيس وكانت وقتئذ تتقدم الجماعة نحو الباب مع الرئيس فاكتشفنا أثناء دوران المفتاح فى الكالون من الخروق انه رجل هرم قصير وبيده فانوس حديد نوره زائد فتحققنا منه أن المحل غاص بالتجار الكثيرين والامتعة الثمينة وبحال فتح الباب قبض أحدنا على البواب وهدده بالسكوت وهجمنا جميعا دفعة واحدة وابتدأنا فى السلب والنهب ولاتقان رفقائى كيفيات الهجوم علموا جميع محلات النهب وبوقتها استحوذوا على جميع الذهب والفضة التى وجدت

وكان أول عزمهم أن يأسروا رجلين أو ثلاثة من أغنى التجار الذين فديتهم تكون بنبوعا لهم فى جلب المال أحسن مما يغتنمونه حتى انهم قبل أن ينتشر ويعلو الصياح ويعم الانزعاج قبضوا على ثلاثة رجال كانوا نائمين على أنظف المراتب وعليهم أغطية من أحسن الشيلان وتحت رؤسهم وسادات مطرزة بالديباج وبذا ظنوا أنهم يتحصلون على مبلغ جسيم منهم

فاوثقوهم كتافا وربطوا أيديهم وأرجلهم على حسب عادتهم وحملوهم بالقوة لمحل وجود خيلهم وأركبوهم خلف ثلاثة منهم وتوجهوا بهم الى نقطة الرجعة حتى غابوا عن محل الواقعة

ولمعلوميتى بمخبآت الخان وغالب المحلات المقيم بها اغنى التجار وموضع النقود دخلت احدى الاود وهى الاودة التى كان مقيما فيها سيدى عثمان أغا سابقا وقبضت على صندوق صغير تعود التجار وضع دراهمهم فيه وخرجت به ولتمام سرورى وجدت داخله كيسا ثقيلا فكببت بعضه فى جيبى وحملت الباقى على قدر امكانى وبالنسبة للظلام لم أتمكن من معرفة الدراهم من أى معدن كانت

ولما آن انتهاء شغلنا حصل الهيجان والانزعاج فى المدينة حتى ان أغلب الناس الذين كانوا موجودين بالخان مثل خدامين وسياس وعربجية ومكارين عندما داخلهم الرعب هرعوا جميعا الى السطوح وحضر السكان المجاورون له طوائف على صياحهم ولم يعلموا حقيقة المسئلة تماما ثم أتى حاكم المستحفظين والضباط والعساكر وطلعوا فوق السطوح ولم يزيدوهم الا صياحا بقولهم (اضرب امسك اقتل) بدون أن يحصل أدنى شئ حقيقى لضبط العدو وصاروا يضربون بنادقهم فكان الرصاص يطلع فى الهواء ماكأنهم الا ينظرون مسافة وصول النيشان لاى نقطة ولم يصب أحد منا وبالنسبة للظلام والهياج الكلى الحاصل اتفقنا على الفرار بجامعنا بدون أن تحدث منا وقائع جنائية أو خلافها وفى أثناء هذه المشكلة كنت احدث نفسى بالنجاة من هذه العصبة المشؤمة التى صرت معدودا منها بان أختبئ فى احدى الزوايا لحين انصرافهم ولكن طرأ بفكرى انى اذا فعلت ذلك ونجعت فهيئة ملبوسى تدل على أنى من ضمنهم ومن قبل ان أوضح لهم حالتى وأخبرهم عنى وعن والدى أصير غنيمة باردة

وتسفك الاهالى دمائى ولا يقبلون منى هناء ولا عزاء وهذا ما حسبته مرارا وان كانت دكان والدى التى قضيت فيها أيام الهناء والسرور مجاورة لذلك الخان وقلت اذا قبضوا عليك بالبلد ماذا تفعل وأول شئ تفكرت فيه هو ملاحظة أصلان سلطان الذى هددنى بالقتل ان لم أسلك الاسلوب المتفقين عليه وأوفى بالعهود السالفة بيننا فامتنعت عن هذا الامر وسلمت أمرى لله

ولاظهر شجاعتى وقوتى امام سيدى وما أنا فيه من القوة أسرعت بالقبض على رجل أعجمى يريد الهجوم علينا وطرحته على الارض وصحت عليه قائلا ان لم تخضع لنا وتكن أسيرا تحت يدنا وتتبعنا والا قتلناك فلما سمع ذلك ارتعد واستغاث وهو يقول اطلقنى بحق الامام الحسين وحياة أبيك وبحق لحية سيدنا عمر وأنا مستغيث بك فأعتقنى لوجه الله فلما سمعت صوته لم أشك فى كون هذا صوت والدى لا محالة وبواسطة ضوء القنديل تحققت من وجهه جيدا فاذا (هو هو) وكان حضر للتحفظ على دكانه من السرقة التى لا تحتوى الا على ستة فوط وصندوق أمواس وصابونة وسجادة لا غير وحال ما عرفته تركت لحيته من يدى التى كنت قابضا عليها بقوة وبالنظر لحالة الاحترام التى تعودنا عليها نحن الاعاجم لوالدينا كان يجب على تقبيل يده ووقوفى امامه بكل خضوع ولكن حرصا على حياتى التى كانت تحت الخطر اذا حصل منى تهاون استمريت على المشاجرة والمشاحنة معه

ولابين ميلى وتشوقى نحو أصلان سلطان أظهرت أنى أسخنه ضربا وفى الواقع كان ضربى فى سرج بغلة كانت بجانبه وفى أثناء ذلك سمعت والدى يخاطب نفسه بقوله آه وا أسفاه وا مصيبتاه لو كان ولدى الحاج بابا هنا ما تحمل ما أكابده من هذه المشقات ولا ما اقاسيه من اهوال الممات

فتأثرت من أقواله وما يظهره نحوى من حسراته وهو لا يعلم انى انا ولده ومضغة كبده ولولم أر الموت أمامى لاعتنقته اعتناق المحب للمحبوب فكيف بالوالد الودود ولكنى اجتهدت فى خلاصه من مخالب التركمان وقلت لهم باللغة التركية لا فائدة لنا من هذا الرجل فانه حلاق لا يملك شيأ وفى الحال تركته بدون اظهار أسف أو تكلف وغبت عن محل الواقعة مع ما بقى وركبنا خيولنا وخرجنا خارج المدينة مسرعين الى نقطة الرجعة

﴿الفصل السادس﴾

﴿فى الكلام على الثلاثة الاسراء الذين أخذهم التركمان والغنيمة التى اكتسبوها من الخان﴾

(قال الحاج بابا) فلما وصلنا لمحل الرجعة التى تواعدنا فيه بالمقابلة نزلنا من فوق خيولنا وقعدنا نستريح حتى نجتمع جميعا ويذهب عنا تعب تلك الليلة وكان احدنا سرق قوزيا حال ركوبنا فذبحناه وقطعناه قطعا صغيرة للشى ووضعناها على اسياخ وجمعنا يسيرا من القش على قدر ما أمكنا من وجاز بل البهائم وأوقدناه تحتها وبمجرد ما سخنت اختطفناها جميعا قبل أن تستوى وصرنا نبتلعها كالغيلان بكل توحش وشراهة وبعد انتهاء الاكل وتوزيع ما بقى منه على الاسراء تداولنا على ان نبحث عن أصل وكيفية الاسراء وما هم عليه من المقدرة وكان الاول طويلا ورفيعا يبلغ من العمر نحو الخمسين سنة حاد النظر نحيف الوجه خفيف اللحية ولابسا لباسين من الحرير وشالا على كتفيه وكان الثانى رجلا قصير القامة ملفوف الجسم متوسط السن دموى الوجه ولابسا قباء غامقا مزررا على صدره ويرى على هيئته انه أحد قضاة الشريعة وكان الثالث سمين الجسم غزير الشعر بشع المنظر يرى عليه القوة والبأس وهو الرجل الذى اعتنينا فى تكتيفه

وابتاقه جيدا عن الآخرين بالنظر لما رأيناه منه من شدة المدافعة عن نفسه

فأحضرناهم أمامنا وسألناهم عن وظائفهم وحالة اقامتهم فتقدم الاول وهو الرجل الرفيع الذي يظهر عليه حالة الثروة كما ظهر للتركمان بناء على اخبار رئيسهم وبما اني كنت الوحيد في العصبة في معرفة اللغة الفارسية وقفت اترجم بينهما فسأله اصلان سلطان من أنت ومن تكون فانزعج الرجل وقال بصوت خفي أنا أنا ياسيدي أعرض لسيادتكم اني رجل فقير حقير لا اذكر في جانب خدامتكم فقال وما شغلك فأجاب اني رجل شاعر في خدمتكم ياسيدي ومابيدي شئ

فلما سمع احد التركمان المتوحشين لفظة (شاعر) صاح قائلا شاعر ماهذه اللفظة وما الفائدة منها فأجابه أصلان سلطان بحالة الغضب لا ينفع بشئ وان الشعراء أفقر الناس ويعيشون بما يتحيلون به على الغير من مدح وذم فمن الذي يدفع عنه الفدية ثم قال اصلان سلطان للشاعر اذا كنت فقيرا بهذه الحالة فكيف لبست هذه الملابس المثمنة وحضرت بها فراجعه الشاعر ان هذه الملابس من علامات الشرف أنعم بها علىّ أمير شيراز حيث كنت عملت قصيدة مدحته فيها فلما قدمتها اليه جازاني بهذا الانعام فلما سمع منه ذلك أمر بتجريده منها واعطائه ملبوسا من جلد الغنم وذهب بعيدا عنه وأحضر الرجل القصير وسأله الرئيس عن وظيفته فاجابه اني قاض فقير لا أملك النقير فقال كيف تدعي الفقر والمسكنة وتنام على أنخر المفروشات فياولد الكلب ان لم تصدقني بحالتك ورأيتك تكذب في مقالتك لاعزل رأسك عن جثتك في هذه الدقيقة فاعترف بما لك من الغنى والثروة فان القضاة جميعهم أغنياء لانهم يبيعون أنفسهم لمن لهم السلطة عليهم حبا في جمع الدرهم والدينار فأجابه القاضي ياسيدي اني قاضي قرية

جلدون وأتيت الى أصبهان حسب أمر محافظ المدينة لدفع أموال القرية التي أنا قاطن بها فاعترضه الرئيس وقال أين تلك الدراهم التي أحضرتها فقال القاضي ياسيدي قد أتيت لاعرض حالتي للمحافظ وأخبره ان الجراد أتلف محصولات السنة الماضية اتلافا كليا زيادة على قلة المياه لري الارض فقال واحد من العصبة ما يستحق هذا الرجل بعد هذا كله وما الفائدة منه فأجابه الرئيس ان هذا الرجل ذو قيمة عظيمة اذا كانت الفلاحون ترغب عودته وان لم يرغبوه فلا يساوي دينارا وعلى ذلك تحفظوا عليه ربما أن تكون فائدته لنا أعظم مما نحصل عليه من أحد التجار حالا ثم أحضروا الرجل الثالث أمامه فسأله أصلان سلطان كالمعتاد عن صنعته فقال متبلدا أنا رجل فراش فعند ذلك صاحت العصبة جميعها وقالت انه يكذب حاشا أن يكون فراشا وهذا يستحيل فقال أحدهم كيف يكون فراشا وينام على فراش نظيف فاجاب ليس هو فراشي ولكنه لسيدي ونمت عليه لعدم وجوده تلك الليلة فصرخ الجميع بقولهم يكذب ليس بفراش ماهو الا تاجر وقالوا له ان لم تعترف بالصدق وتقر بانك تاجر لا بد من قتلك وما زالوا يلحون عليه وهو لا يتنازل عن كونه فراشا فلما لم يقر بانه تاجر تعصبوا عليه واثخنوه لكما بالكفوف والاقلام فلما زاد به الالم لم يسعه الا ان صاح وقال أنا تاجر لكي يتخلص من هذا العذاب ولكني حكمت في نفسي من هيئة هذا الرجل انه ليس بتاجر وانه فراش كما يدعي

ولما ثبت لاصحابي ماهو عليه وانهم لا يستفيدون منه أدنى فائدة وطلبت منهم خلاصه من أيديهم ففي الحال التفتوا نحوي واتحفوني بنحو الالف لعنة ووبخوني وهددوني قائلين اذا كنت تريد الميل والشفقة على أهل بلدك سيكون لك نصيب معهم وتعود للاسر ثانيا فالتزمت حين ذاك بالسكوت والصبر وتنحيت عن هذا الامر وتركت الاشقياء وشأنهم ولما

ثبت لهم أن مشروعهم فى سرقة بنى آدم كان سيئ الحظ لم يسروا من اجرآتهم وندموا على أخذهم الاسراء واختلفت الآراء بينهم فيما يجرونه نحو الثلاثة الاسراء الذين كان امرهم كعدمه فالبعض قال نبق القاضى لاخذ الفدية عليه ونستعبد الفراش وقد ظهر من الجميع انهم متفقون على قتل الشاعر فصعب على أمره ولم أقدر امالك نفسى من بذل مجهودى فى خلاصه من يدهم لانه تراأى لى من هيئته انه رجل من كبار القوم وعلى معارف عظيمة ولابد وأن يكون من ذوى الثروة وان كان يدعى الفقر ولما ظهر لى ان الحالة زادت فى الاشكال واقترب اعدام حياته قلت للقوم ما هذا الجنون الذى ترتكبون به الخطيئة أما تخافون الله فى قتله بغير ذنب اما تعلمون ان قتل هذا الرجل أقبح من قتل الاوزة التى فيها بيضة من ذهب وأما تعلمون أيضا ان الشعراء يكونون أغنياء جدا أغلب الاوقات وفى امكانهم استمرار ثروتهم طول المدى لان غناهم فى رؤسهم فاذا بذلوا ما فيها أصبحوا من ذوى الثروة أما تسمعون عن الملك الذى أعطى شاعرا مشهورا مثقالا من الذهب عن كل شطرة فى القصيدة التى مدحه بها ألم يمكنه بعمل ذلك مع سلطاننا الحالى ولربما فى يوم من الايام يكون شاعرا خصوصيا للملك فقال أحدهم اذا كانت الحالة هكذا فليقل لنا أبياتا ارتجالية واذا كان كل بيت لا يساوى مثقالا فنقتله فصاحوا جميعا على الشاعر وقالوا له هيا أسرع عاجلا واسمعنا قصيدة هيا هيا وقد أظهروا له البشاشة والنجاة من العذاب وقالوا له ان لم تقل والا قطعنا لسانك ثم تركوه واتفق رأيهم أخيرا ان يحفظوا على الثلاثة الاسراء بدون ان يمسوهم بضرر وانه بعد ان نقتسم الغنيمة نرجع بالثانى الى سهول كبشالك فدعانا أصلان أمامه وكل واحد انجبر على ابراز ما سرقه فالبعض منهم جلب أكياسا من الذهب والبعض من الفضة ولم يقتصروا على ذلك بل

أحضروا أيضا شبكات ملبسة بالذهب من أفامها وأباريق من الفضة وأكرالك سمور من ذوات القيمة وشيلانا وجملة أشياء أخرى مختلفة الاجناس صار احضارها أمامنا ولما أتى دورى أخرجت كيسى الملآن من التومان (كل تومان يساوى أربعة عشر شيلنا) وكان اثقل الاكياس التى احضرت وبها كسبت مدحا زائدا عن جميع الاشقياء فعندما رأوا الدراهم قالوا جميعا (ماشاء الله ماشاء الله) ياحاجى لقد صرت ثم كما نيا من الدوجة الاولى مع انه لا يمكن أحدنا ان يفعل مثلك وخصوصا سيدى صاح بعد حنى باعلى صوته قائلا ياحاجى لقد صرت مثل ابنى فاقسم لك بحياتى ورأس والدى انك فعلت أفعال الشجعان الابطال وسأزوجك باحدى جوارى وتعيش معنا وننصب لك خيمة خصوصية ونعطيك عشرين رأسا من الغنم ونعمل لك الافراح والليالى الملاح بعدان أدعو فيها عموم المعسكر فلما سمعت هذا الكلام لم أعبأ به وصرفته فى غميق الافكار لان من عزمى الهروب فى أول فرصة أتمكن منها بل كان مطمح انظارى فى هذا الوقت وغاية التفاتى هو فى تقسيم الغنيمة لانظر ماينوبنى حيث تأملت ان ينالنى نصيب عظيم منها

ولكن من سوء بختى ومن ضمن مصائبى الكبرى لم يصبنى منها شئ ومكثت بدون طائل أتوقع عليهم وأترجاهم المرار فى اعطائى نصيبى فما كانوا يسمعون منى شيأ وما أسمع منهم الاقولهم لى أخيرا (ياحاجى بابا اذا كنت تتلفظ بكلمة مرة أخرى نعزل رأسك عن جسمك) فالتزمت السكوت خوفا على فقد حياتى وسليت نفسى بالخمسين دينارا تعلقى وتكتمت امرى وقلت فى سرى ياولد اصبر لعل الله يأتيك بالفرج القريب

هذا ما كان من أمرى وأما الاشقياء فمكثوا يتنازعون ويتشاجرون على نوائبهم التى كادت أن تكون عاقبة منتهاها سفك دماء بعضهم بعضا لولا ان

رجلا منهم قال انه موجود من ضمن الاسراء قاض فلنحضره ليقض بيننا ويقسم علينا ذلك بوجه العدالة ولا لزوم للمشاجرة فهو الفاصل بيننا فأحضروا القاضى المسكين بينهم وأجلسوه فى وسطهم وصار يوزع السرقة لكل واحد مايخصه بوجه العدل وكان من ضمنها دراهمه وأمتعته التى سلبوها منه وبعد ان فرغ من القسمة قام بدون أن يعطوه محصول القسمة عن كل مائة ماتستحقه كما هى العادة الجارية عند القضاة بل عاد للاسر كما كان فى أول الامر وهو يهون على نفسه بقول القائل

لا تضيقن بالامور فقد تنكـ * ـشف غماؤها بغير احتيال
ربما تكره النفوس من الامـ * ـر له فرجة كحل العقال

(الفصل السابع)

(فى الكلام على ما أظهره الحاج بابا مما ألم به من المشقات وتاريخ الشيخ عسكر الشاعر)

ولما انتهت مسئلة القسمة ارتددنا راجعين من الطريق الذى حضرنا منه ولكن كانت التجريدة بطيئة الحركة ليست كالاول بالنسبة للاسراء فانهم كانوا تارة يسيرون على الاقدام واخرى يركبون

وقد سليت نفسى أول وقوع نظرى على الشاعر من هيئته الظاهرية بما انكب عليه من المصائب ولكونى كنت أتروى فى بعض الامور تخيل لى المحال وتصورت فى فكرى انى سأكون سببا فى نجاة هذا الرجل العظيم من الضيق بما أجريه من التحيلات على انى لا اظهر أدنى ميل لجهته فاجتهدت فى هذا المشروع ونجحت فى تعيينى محافظا عليه بدعوى انى أجبره على انشاء بعض أبيات شعرية وبالنسبة لكوننا كنا نتحدث مع بعضنا بلغتنا التى لا يعرفها أحد من العصبة فكنا نتكلم بما نريد بكل حرية

ولا خوف
فشرحت له حالتى وماجرى لى مع الاشقياء من أول الامر الى الانتهاء وأريته انى عازم على الهروب منهم وحققت له انى سأبذل جهدى فيما يعود عليه بالفائدة على قدر امكانى فلما سمع كلامى وصدق مقالى ظهر على وجهه فى الحال علامات السرور وقابلنى بلسان شكور حيثما كان ينتظر منهم الا سوء معاملته ولعله ماحصل بيننا من الصداقة والمحبة لم يتأخر عن اخبارى بما جرى له وباحواله وكيفيته وبذلك تحقق لى ما كنت أتوهمه من انه رجل من ذوى الثروة والمعارف عندما أخبرنى انه شاعر الديوان الملوكى ومتشرف برتبة (أمير الشعراء) وانه كان حاضرا من طريق شيراز (حيث أرسله الشاه فى بعض أشغال هناك) الى طهران وفى نفس اليوم الذى وصل فيه الى أصبهان لم يتم الا بوقوعه فى أيدى التركمان هذا وبعد ان سردت له ماحصل لى من المخاطرات وماقاسيته من الاهوال والمشقات فلكى أن نتسلى على مصائبنا فى الصحراء القفراء سألته أن يشرح لى حاله من مبتداه الى منتهاه فاجابنى عن سؤالى وقال ما يأتى

(قال الشاعر) لقد ولدت فى مدينة (كرمان) واسمى عسكر ومكث والدى زمنا طويلا حاكما على هذه المدينة فى زمن حكم الاغا محمد شاه وفى اثناء ولايته دسوا الدسائس ضده وقامت أعداؤه على ساق وقدم وهاجوا وماجوا فى القاء الفتن الفظيعة بقصد خلعه من محافظة المدينة فانتصر عليهم بمعونة الله وفاز بالظفر على أعدائه ولم ينالوا الا الخيبة والوبال

وكانت عيناه أكثر تعرضا للخطر ولكن لما كان عليه من العدل والاستقامة قد حفظهما الله سبحانه وتعالى ومن حسن سعده توفى بدون تعب على فراشه فى حكم الشاه الحالى فسمح لى بوراثة متروكاته البالغ قدرها عشرة آلاف تومان وكنت فى صغرى مشهورا بالالتفات لدروسى حتى انه قبل بلوغى سن

الست عشرة سنة شاع أمری وانتشر ذکری بحسن خطی وقد حفظت کتاب الحافظ باکمله علی ظهر قلبی واجتهدت من تلقاء نفسی فی فن الشعر وانشاء القصائد اللطیفة وقد قیل عنی بانی أحل الجفر وأفصل صعاب المشکلات وکنت من نفسی لا أجد مسئلة الا وأبحث فیها ولا علما الا وأغوص بحاره وقد أنشأت القصائد والابیات الغزلیة فی العاشقین الشهیرین لیلی والمجنون ولم أسمع یوما صیاح البلبل الا وعرضت شکواه للورد واینما أذهب لا أتأخر عن انشاء الاشعار والتغنی بها فی المحافل وقد تصادف ذات مرة ان الملک فی ذلک الوقت تجهز لمحاربة صادق خان اذ کان یدعی انه یستحق سریر الملک وکان الملک قاد الجیش بنفسه واستمر یحاربه حتی هزمه وانتصر علیه فلما بلغنی نصرته عملت قصیدة مدحت بها الملک ومن ضمن ماقلته فی وصف الحرب أن جعلت رستام (وهو اله الحرب) واقفا فوق ساحة القتال مظللا بالغمام فلما رأی رستام الملک متوسطا فی المعمعة یقوی الابطال ویحوم کالاسد الریبال وبالاخطار غیر مبال صاح مخاطبا لنفسه ان غیابی فی هذا الزمان هو تمام حظی لانی لو تواجدت علی الارض ماسلمت من طعنات هذا الملک المفضال الذی أراه قد فاق عنی فی الحرب والنزال

(قال الشاعر) وقد نلت أیضا الشکر الزائد عندما قلت ان صادق خان وعسا کره ما کان یلزمهم التقلب والعصیان ضد ملکنا فمع ما حاق بهم من التزلزل والوبال والهوان ومر انکال فقد أطاح الملک منهم الرؤس وسقاهم من الموت أمر الکؤس وعندها أومأت بیدی علی عمود أمر جلالته باقامته من جماجم الاعداء فلما بلغ الملک کلامی وعجیب تشبیهاتی وحسن نظامی انسر خاطره وغمرنی بالانعام وأحسن علی باعظم شرف یناله الشاعر اذ أمر أن یحشی فمی بالذهب أمام جمیع معیته فی المجلس العالی وکان ذلک سببا فی

تقدمی ونجاحی وأمر بتعیینی ضمن معیة جلالته لانشاء الاشعار عند القضاء فقدمت له هذه المدحة شکرا لما ناله من الشجاعة ونصرته علی صادق خان

عجبا الفارس فرسنا وثباته * تتزلزل الاجبال من وثباته
فی کفه رمح اذا ما هزها * خلع القلوب وتلک من روعاته
والقرن یحلف ان فاه لعظمه * فارفاین یکون من لهواته
یعلو کمیتا لو تجاریه الصبا * شهدت بان البرق من خطواته
فتح المعاقل والحصون مذللا * ملکا تظاهر فی ثیاب عداته
یدعی بصادق خان فهو مضلل * نهج الرشاد یسیر فی جهلاته
لازال یفتک جاهدا فی جیشه * حتی بنی الاعلام من هاماته
ملک یجود لمعتفیه بالندی * فتخال ان البحر بعض هباته
لازال معتلیا علی أعدائه * بالنصر والاسعاد فی غزواته
متمتعا فی ملکه متحصنا * یجنی اللطائف من ربا جناته

ثم ولأظهر ما أنا علیه من الغیرة والاجتهاد أعرضت للملک ان الفیردوزی الشهیر الشاعر المتقدم أمر بان یحرر شاهنامه للشاه الذی کان فی مدته وحیث ان مولانا الملک أحسن ملوک الفرس الذین تملکوا علی العجم سابقا فاذا تحسن لدی مولای بما أنی عنده شاعر یأمر فی بتحریر شاهنشاهنامه (تاریخ ملک الملوک) لانتشار شهرة عدله وأحکامه فی جمیع المملکة فلما سمع الملک منی ذلک سر سرورا زائدا وأمرنی بتحریرها بکل ممنونیة

وکان یرید أحد أعدائی الذین فی المجلس العالی وهو الخزندار الاعظم ان یحدث علی ضریبة اثنی عشر ألف تومان بدعوی ان الملک أصدر ارادته فی ذلک مع عدم علم جلالته بهذه الارادة لدفع ماضرب علی من الغرامة فحدث یوما من الایام اجتماع محفل عظیم وکان الناس یتذاکرون فیه

فردوسی

عما حصل من اكرام محمود شاه الغزناوى الى الفيردوزى الشاعر ومعافاته من الضريبة واحسانه عليه بمثقال من الذهب عن كل بيت شعر قاله فى الشاهنامة فلما سمعت مقالتهم امتلأت فرحا حيث وجدت لى وجها للتكلم فى هذا الشان وكنت أود ان الملك يبلغه كلامى الذى ابتدرت به قائلا فى وسط المحفل (ان معافاة جلالة ملكنا الحالى واحسانه مساويان لمحمود شاه لا بل أزيد وأعظم منه مهما حاول كرما واحسانا الان محمود شاه عافى الفيردوزى لانه كان متوظفا بوظيفة أول شاعر فى بلاد العجم وأما أنا فيما أنا فيه من الفقر والاحتياج والخضوع والمذلة التى أنا واقف بها للآن أمام جلالته فقد غمرنى مولاى بسابق انعاماته العديدة) فبهتت الجمعية لكلامى واشتاقت للوقوف على ماتفضل به جلالته على من الاحسانات ومتى كان ذلك فاجبتهم ان أول أمر لما توفى والدى ترك لى ميراث عشرة آلاف تومان فأذن لى الملك العادل بوراثتها مع امكان جلالته حرمانى منها وأصبح هذا المبلغ ملك يدى وصار عندى زيادة عليها من وقت تشريفى بخدمة الشاه للآن اثنا عشر ألف تومان ورغبة الخزندار تغيرعى اثنى عشر ألف تومان فيكون الباقى عندى ماورثته وبذلك أحرم مما جمعته مدة خدامتى مع ان الملك لم يأمر بهذه الضريبة ثم صحت باعلى صوتى داعيا للملك قائلا أدام الله مولانا الملك طول المدى ولا ينقص ظله سرمدا وأن يحفه بالنصر على العدا ويكفيه شر الحسود أبدا فبلغ جميع ماقلته من الشكر والادعية لجانب جلالة الملك ولم يمض الأيام قليلة حتى أحسن على بخلعة الشرف السامى المحتوية على قباء من الديباج وشال لوضعه تحت السديرى وشال آخر لتغطية رأسى وكاكولة من الحرير مبطنة بالفرو الثمين وبعد ذلك أنعم على جلالته برتبة أمير الشعراء وسلمنى الفرمان العالى فاخذته ووضعته على رأسى ثلاثة أيام على حسب العادة الجارية

وأنا أستقبل المهنئين من أصحابى بغاية السرور وانشراح الصدر وورقات ذهنى زيادة عما كنت عليه فى أول الامر

ثم أنشأت قصيدة موافقة للمرام بل أزيد وذكرت فيها مانالنى من الانعام والالتفات الملوكى وأثنيت فيها على الملك كل الثناء على ما أولانى به من احساناته الغزيرة التى كانت للخزندار انتقاما عظيما لسوء معاملته اياى حتى اننى بذلت فى ذمه القريحة ووضعت فيها الالفاظ المعجمة الغير صريحة التى لا يمكنه أن يفهمها لما فيها من صعاب المفردات وعجائب التنويهات والتركيبات وأدخلت فيها ألفاظا عربية أوجبت عليه تعذر قراءتها بالكلية لاحتوائها على الازدراء بمقامه والتنديد عليه بكل احتقار لانى أغلقت المعنى وجعلتها مبهمة المبنى وبذا لم يتيسر لاحد أن يشرحها أو يرسى لها على باب يدخل منه اليها حتى كشفت بنفسى عنها الاستار وأصبحت كالشمس فى رابعة النهار

ولم أقتصر على فن الشعر بل لى معرفة بعلم الماكينات وقدمت جملة من غريب اختراعاتى فى المجلس الملوكى موجودة للآن وقد اخترعت آلة تتحرك على الدوام ولا يلزمها الا بعض آلات صغيرة لدورانها الى الابد وصنعت ورقا مختلف الالوان واخترعت دواة جديدة عجيبة الشكل وكنت شارعا فى تفصيل الملبوسات لولا ان جلالة الملك منعنى وقال لى ياعسكرا كتف بشعرك فاذا لزم لى ملبوسات تجلبها تجارى من أوروبا فاجبته بالسمع والطاعة

ومن العادة الجارية ان عند حلول رأس كل سنة يأتى كل فرد من أتباع الملك بهدية الى جلالته على قدر امكانه فلما كان ذلك اليوم عملت على حسب العادة الجارية منكاشا للاسنان وجعلت معه بعض أشعار ووضعته فى علبة لطيفة وقدمته له فلما نظرته كبار الديوان وكل من كان موجودا فى مجلس هذا اليوم المبارك تعجبوا من حسن صناعته

وأمرهم الملك بتقبيل فى مكافأة لاتعابى ومن جملة ماقلته هذه الابيات

مد أشبه البحر مليك لنا * وشارباه الموجمات الجبان
غر ثناياه ومن فوقها * اللثة المرجان در حسان
أهديته المنكاش لمابدا * شبيه غواص بحر الجمان

فلما سمع الحاضرون هذا التشبيه أعجبهم وشكرنى كل واحد منهم وحيانى على تصورى النير و بلغنى ان الفيردوزى لايذكر بالنسبة لدرجتى وانه يعد جاهلا محضا بجانبى وكان ذلك واسطة لتمتعى بافضال جلالته العظيمة حتى انه من حبه لى وميله الشديد نحو ازدياد ثروتى وشرفى عيننى لحمل خلعة الشرف المعتاد ارسالها سنويا لنجله أمير اقليم فارس فلما توجهت الى شيراز قابلنى أهلها بغاية الاكرام والاحترام وتساقطت على الهدايا المثمنة من كل جانب فاضفتها على مامعى من الهدايا الاخرى التى أتحفت بها فى بعض البلدان أثناء الطريق و وجدتها تساوى مبلغا عظيما ففجأتنى حادثة أمس وأحرمتنى من هذا كله وها قد سرق منى جميع أمتعتى وأصبحت لا أملك شيأ كما ترانى وصرت أفقر وأذل واحد فى الدنيا فان لم تجتهد يا حاجى بابا وتتدبر فى طريقة لهروبى وخلاصى فانى أخاف على نفسى أن أموت أسيرا لانه وان كان الملك أحب ماعليه خلاصى لكن لا أظن انه يفدينى لكراهة الخزندار لى حيث نسبته للجهل أمام الصدر الاعظم وأريته انه مع فطانته هذه لايعرف يدير ساعة ولا يعرف كيفية صناعتها ولذا أخشى انه لايبالى بفقدى والدراهم التى كنت أفدى نفسى بها أخذتها الاشقياء ومن أين يتأتى لى الحصول حينئذ على مبلغ مثل هذا ولكن قضى الله على بالوقوع فى هذه المصيبة الكبرى والهلاك المبين فيلزمنى الصبر على القضاء والقدر وانى لا أعارض ماخط بالقلم انما غاية رجائى منك جهدك فى خلاصى ومادمت انك من المسلمين الكارهين لعمر والمحبين للامام على كرم الله وجهه فانا

مستغيث بك ومستجير أن تساعدنى فى نجاتى وتفريج كربى ليكون لك الفضل والثناء ومن الله أحسن جزاء

﴿الفصل الثامن﴾

((فى هروب الحاج بابا من أيدى التركمان ومعنى الوقوع من الشجرة الى النار))

(قال الحاج بابا) ولما انتهى الشاعر من تاريخه أكدت له انى سأعمل كل الطرق والتحيلات وأبذل الجهد الجهيد فى مساعدته للنجاة وأوصيته بالصبر والتأنى عما أنى لحد الآن لم يمكنى التحيل بالحصول على اطلاق حريتى معهم وأريته ما أقاسيه من تحملى المشاق اذا سعيت فى خلاصه ولو حصل ذلك بالفعل لكان مستحيلا لتيقظ أوليائنا ما دمنا سائرين فى مثل هذه الصحراء الواسعة المنكشفة من جميع جهاتها سيما وان خيولهم تعادل حصانى فى السير وهم خبيرون بالارض عنى ولهذه الاسباب كنت أعد هروبنا من قبيل الجنون اذ الواجب علينا التبصر فى انتهاز الوقت الذى نتمكن فيه من الفرار وفى أثناء هذا الحديث وصلنا لحدود الصحراء المالحة واقتربنا للمرور على الطريق الطوالى المؤدى من طهران الى مشهد وقبل أن نصل (الى دمجان) بنحو عشرين فرسخا أمرنا أصلان سلطان بالاستراحة مقدار يوم واختفائنا فى جهة منحطة على حدود هذا الطريق بدون أن يرانا أحد وقال لعل أن يكون لنا نصيب وتسعفنا أيدى السعادة بمرور قافلة كما هو عزمه ان بمجرد مرور أحد القوافل يغير عليها وينهبها

وفى صبيحة اليوم الثانى أتى الجاسوس الذى كان منتظرا فوق تل بجوارنا مسرعا وأخبر انه نظر غبارا كالغمام يهب من جهة دمجان و يضرب نحو نافى الطريق المؤدى الى مدينة مشهد فلما سمعنا ذلك استعددنا فى الحال وتركت

التركمان الاسراء مقيدى الايادى والارجل فى الجهة التى استرحنا فيها وعزموا أن يرجعوا ويأخذوهم ثانيا بعد شن الغارة على تلك القافلة وسلب مافيها فسرنا نحوها بكل احتراس قاصدين سفك الدماء والنهب وتقدم أصلان سلطان فى مقدمة العصبة بقصد الاستكشاف ودعانى اليه وقال لى ياحاجى ها هى الفرصة التى بها تمتاز عن الغير وانك ستصاحبنى لاريك الاحتياطات التى علمتها سابقا لجميع العصبة وضرورى لك معرفتها جيدا كى يمكنك أن تسلك فى مثل هذا المشروع بمفردك فى فرصة مستقبلة غير هذه وقد أخذتك أيضا معى فى حالة ما أحتاج لترجمان بينى وبين الاسراء لندرة وجود أحد فى هذه القوافل يتكلم بلغتنا وباقترابنا اليها نتساوى مع الدليل ونسأله عن حالة القافلة فان لم يمكنا الاتحاد معه فنهجم عليها جميعا مرة واحدة

هذا ولما اقتربت نحونا السياحون انكشف لى ان حالة أصلان سلطان تغيرت وامتزج بالغضب وقال ياخوفى فان هذه ليست بقافلة لانى أرى من فيها يسيرون صفوفا منتظمة ولا أسمع صوت الاجراس كعادة القوافل وأرى الغبار منضما بعضه فى مكان واحد وها هى حرابهم ظاهرة وان هذا لهو البلاء المبين وها هو أمامهم خمسة خيالة فى المقدمة وماهم الا فرقة سوارى ليست فريسة فلا حاجة اليها

وفى الواقع بمجرد اقترابها منا وتحققها جيدا لم نجدها قافلة بل اتضح انه رجل من كبار الحكام سياح مثل محافظ اقليم على الاقل وحوله معية من خيالة وخدم وحواشى وفى موكب عظيم يلوح عليه الهيئة والافتخار بحسب الاحوال والظروف فعندما رأيت ذلك طرت فرحا معتقدا انها فرصة عظيمة للهروب ولكن لو كنت أتمكن من التوجه جهتهم بدون ان يشك سيدى من جهتى بشئ ولو يأخذونى أسيرا فبوقتها أطمئن على نفسى وان أهانونى فلما ان

قرر أبى على تدبير هذه الخديعة ولكى أحقق ما حسبته فبناء عليه قلت لصاحبى لنتقدم قليلا جهتهم وكرت حصانى للامام بدون اذنه ففى الحال تبعنى لكى يوقفنى ولكن بعد ان قطعنا مسافة الارض الصغيرة المرتفعة التى تجاه الجهة الراسين فيها كشفنا الركب وكنا على بعد رمية قوس أو أقل فلما نظرونا خرج منهم طليعة مركبة من خمسة أو ستة سوارى من أحسن الخيالة الموجودة وأسرعوا الرماحة قاصدين جهتنا فلفتنا عنان خيلنا وكدنا نطير فى الهواء وكان على قدر ما يمكن أصلان سلطان من سرعة السير كنت أنا بالضد فى ابطاء الحركة حتى بهذه الحيلة هجموا على وضبطونى وجردونى من حصانى وسلاحى وأمواسى وسلبوا منى الخمسين دينارا وجميع أدواتى فى أقل من لمح البصر ومع ما كنت أقول لهم انى كنت قاصدا الحضور اليكم برضاى فما كانوا يلتفتون لاقوالى بل أخرجوا طيلسانى من تحت القباء وربطوا ايدى من خلف وصاروا يوكزونى بالحراب ويلكمونى كلما أتأخر فى المسير وأنا أستغيث فلا أغاث من شدة الالم حتى قاربت العدم فقلت لا حول ولا قوة الا بالله قد أوقعت نفسى بنفسى فى البلاء

المستجير بعمرو عند كربته * كالمستجير من الرمضاء بالنار

وما زالوا يجرونى حتى أحضرونى لرئيسهم وأوقفونى أمامه واحتاطت بى أتباعه وكنت أرى من الحالة التى تبديها حاشيته من الميل الشديد نحوه والخضوع والطاعة انه لابد وان يكون هذا من عائلة ملوكية وأكدت ذلك لمناسبة اللكمات والضربات التى تراكمت على جسمى ورأيى منهم يريدون بذلك القاء نفسى على الارض واثبها أمام هذا الامير الشاه زاده والناس حولى من كل جانب فامر بالافراج عنى وبمجرد ماشعرت بحلى واطلاق سبيلى من الوثاق رميت نفسى وقبضت على ذيل جبته وهو على ظهر حصانه وصحت قائلا له (پناهى شاه زاده) يعنى أنا فى حماية الامير ومستجير به فانى

نحوى أحد أتباعه وأراد قصاصى على هذه الجراءة فمنعه الامير لعدم خرق العادة ووعدنى بالحماية والاطمئنان وبعد أن أمر خدمه أن لا يمسونى بسوء طلب منى أن أقص عليه حكايتى وسبب حضورى ووقوفى أمامه بهذه الصفة فخررت ساجدا على ركبتى وقبلت الارض وشرحت له قصتى جميعها بغاية الايجاز على قدر امكانى ولاثبات ما قلته سألته انه يمكن سعادته ارسال خيالة للهجوم على حزب التركمان الذين ما زالوا بالقرب منا وتخليص شاعر الملك وشخصين من الاعاجم أسراء تحت أيديهم وبذا يمكنهم اثبات ما أبديته بالحقيقة لسعادتكم فما أتممت كلامى الا والفرسان الذين كانوا خرجوا فى أثر أصلان سلطان عادوا بالذل والانكسار وهم يقسمون بالامام على ورأس الملك ان حزبا عظيما من التركمان يبلغ مقداره على الاقل ألف نفر أقوياء متجهزون للعمل علينا ويلزم الامير الاستعداد لمحاربتهم

فلما سمعت كلامهم طار عقلى وبدون طائل كررت عليهم مرارا أنهم لا يزيدون عن العشرين نفرا فلا يصدقنى أحد منهم بل عاملونى معاملة الجاسوس والكذاب وقالوا لى اذا حمل علينا التركمان فلا بد من قتلك فى هذا المكان وتوجهت طليعة منهم مسافة كبيرة للاستكشاف فى جميع الجهات عن العدو المنتظر وهم يعالجون علامات الخوف التى تمكنت فى قلوبهم بما اشتهر به اسم التركمان من القوة والشجاعة فى عموم داخلية العجم

أسود كفاح بأسهم فى رماحهم * كسم الافاعى فى أنابيبها يجرى

وقد أمرونى بالركوب على بغلة محملة عفشا ناظر السلب حصانى وخلالى الوقت بالتفكر والتأمل فى عيشى المنكود وغمى المكمود ومقاصدى التعيسة وأصبحت صفر اليدين لا بارة فى كيسى ولا صديق يرثى لحالى ولم أر أمامى شيأ خلاف الجوع المهلك ولكونى لم أصل للآن لدرجة المسلمين الصالحين حتى كان يمكننى تسلية نفسى على القضاء والقدر والصبر على

المصائب فكنت أتنهد تنهدات عالية من جنونى الذى كان سببا جبريا لشقاوتى وذلى الآن وميلى الكلى لاهلى ووطنى تحكم بشدة على صدرى حال أسرى عند التركمان حتى وقعت فى هذا المكان ومن شدة كربى وما حل بى صحت عليهم بصوت عال العنهم قائلا لمن حولى كيف تدعون أنكم مسلمون وليس فيكم حاسية الكلاب يا خسرة وما أدرا كم ما الكلاب فانكم أقل درجة من كلاب النصارى يا عديمى الشفقة لانكم أنتم والتركمان درجة واحدة

فلما لم أجد لكلامى هذا تأثيرا ولا يزيدهم الا ضحكا واستهزاء بى رأيت أن أستعمل معهم اللين فى الكلام وأترجاهم فى الرفق بى فاقسمت عليهم وقلت بحق الامام الحسين وبحق النبى عليه السلام وبحياة أولادكم لماذا لم ترقوا وترفقوا بحال الغريب وتعاملوه بالعنف ألم أكن مسلما مثلكم وعلى دينكم وما الذى حصل منى حتى يوجبنى أتحمل هذا الحزن الشديد وقد التجأت اليكم وأخذتكم أصحابا فكرهتمونى ودستمونى تحت الاقدام وأسأتمونى اساءة العدو شعر

يارب ان عظمت ذنوبى كثرة * فلقد علمت بان عفوك أعظم
ان كان لا يرجوك الا محسن * فمن الذى يدعو ويرجو المجرم
أدعوك ربى كما أمرت تضرعا * فاذا رددت يدى فمن ذا يرحم
مالى اليك وسيلة الا الرجا * وجميل عفوك ثم انى مسلم

فلم يرق لشكواى ولا يسلينى على مصائبى أحد الا شيخ مكارى طاعن فى السن اسمه على قاتر أولع شيشته وناولها الى لأدخن وقال لى يا ولدى كل أمر فى هذه الدنيا من الله سبحانه وتعالى ثم أشار بيده الى بغلته وقال اذا كان الله خلق هذا الحيوان أبيض فهل يمكننى أجعله أسود وها هو يوما يأكل الحبوب وآخر يرعى الحسك فهل لنا قدرة على مقاومة القضاء حاشا الا والله

فاشرب شيشتك الآن وروق فكرك وابسط نفسك واشكر الله على مصيبتك هذه فلربما كنت تقع فى أردأ منها فقد قال الحافظ فى كتابه (كل لحظة تمر عليك بالسرور وتتمتع فيها باللذة فعدها من المكسب لان الانسان يعجز عن معرفة الاحوال المستقبلة من فرح وحزن) فهون على المكارى حالتى وسهل كربتى ولما وجدنى متفقها فى كتاب الحافظ وخبيرا بما فيه من المواعظ وعلم منى عدم الاحتياج لبذل النصائح عاملنى باللطف والشفقة وأشركنى فى طعامه المسافة الباقية من السفر وأخبرنى ان الامير الذى وقعت فى يده هو خامس ولد الشاه الذى تولى أخيرا على محافظة اقليم خراسان والآن متوجه الى مدينة مشهد حيث فيها مركز ادارته والموكب الذى هو محاط به زائد عن العادة خشية من حالة حدود التركمان المفزعة وقيل انه صدرت له الاوامر بالشروع فى المناوشات العنيفة مع هؤلاء القوم وفى عزمه ارسال عدة من رؤسهم الى مدينة طهران لرفعها امام بوابة السراية الملوكية عبرة لغيرهم فيجب عليك أن تحمد الله سبحانه وتعالى وتعد نفسك سعيدا لعدم عزل رأسك عن كتفيك ولو كانوا وجدوك جميل الصورة ضيق العينين قليل الشعر بدلا عن حالتك المخيفة التى أنت بها الآن لاعدموك الحياة وأعدوا رأسك من ضمن رؤس التركمان

ثم لما وصلنا الى الاستراحة ليلا فى خان نصفه متخرب كائن على حدود الصحراء عزمت ان اجتهد فى الحصول على رخصة لدخولى عند الامير واسعى فى استرداد الخمسين دينارا تعلقى وحصانى وأسلحتى التى لا أخشى ولا أشك فى دعواى بانها ملكى فحدثتنى نفسى وتكلمت بصوت خفى وقلت ان الرجل الذى سلبها له الحق فيها زيادة عما استحق وعلى ذلك انتهزت الفرصة ودخلت أمامه وكان ذلك قبل صلاة المغرب فوجدته جالسا على مصطبة الخان وتحته سجادة ومضطجع على وسادة بقصد الراحة وقبل أن يلحقنى

الحراس ويضربونى صحت بصوت عال قائلا (عرضى دارم) أعنى التمس عرض مسئلة فعلى ذلك أمرنى بالتقرب جهته وطلب منى عرض ما أريده فقبلت الارض بين يديه وقلت أدام الله مولانا الامير الذى عم البلاد عدله الشهير ثم شرحت له حالى واشتكيت له من سوء معاملتى التى عاملنى بها اتباعه الذين قبضوا على أولا وحكيت له مسئلة سلب الخمسين دينارا ثم ترجيته فى اعادة حصانى وأسلحتى بالثانى فسأل من حوله عن أسماء الرجال الذين تشكيت منهم وأمر رئيس الركب باحضارهم فحال ما رأيتهم وكانوا شخصين عرفتهما واكدت للامير انهما الشخصان بعينهما فصاح عليهما الامير وقال لهما يا أولاد الكلاب أين الدراهم التى سرقتماها من هذا الرجل فاسرعا منكرين عدم أخذهما شيأ فغضب الامير ونادى بالفراشين وأمر الضابط بضربهما على كفوف أرجلهما حتى يقروا بالخمسين دينارا فلما طرحوهما أرضا وعلقوا أرجلهما فى الهواء وربطوهما جيدا فى العقدة وضربوهما لكنما اعترفا بالدراهم وأخرجاها وسلمت بوقتها للامير فاخذها وعدها بالثانى ووضعها تحت الوسادة المضطجع عليها وخلص السارقين وقال لى بصوت عال انطلق لحال سبيلك فوقفت فاتحا فى مؤملا أنه يناولنى الدراهم فلما رآنى السرتشريفاتى على هذه الحالة مسكنى كتافى وأخرجنى فصحت (ودراهمى أين هى) فقال الامير ماذا يقول هذا الرجل اذا تكلم ثانيا فاضربه بالنعل فقلع السرتشريفاتى نعله الاخضر من رجله وضربنى على فمى بنعله المحدد وقال أتتكلم مع ابن الملك بهذه الالفاظ ألم تستحى فاذهب بسلام واقتح عينك والا تقطع أذناك وعلى هذا جرونى وشدونى بحالة العنف وطردونى للخارج فرجعت لصاحبى المكارى وقد قطعت اليأس من التكلم فتعجب مما حصل من الاهانة وقال لى ما الذى تنتظره يا ولدى بعد هذا كله أما كفاك أليس هو الامير ألم تعلم اذا كان

مثله أو انسان خلافه ذو قوة وعزم و يملك شيأ أظن انه يرده لاصحابه فاذا كانت احدى البغال تأخذ قبضة من الحشيش الاخضر بفمها و بعد ادخالها فى الداخل أيمكن اخراجها بالثانى فمثلها مثل الامير الذى يضرب صفحا على الدراهم التى عنده فاستعوض الله فيها ولا تعاند من اذا قال فعل وما أحسن ماقاله أبو النواس

باسائل الله فزت بالظفر * وبالنوال الهنى لا الكدر
فارغب الى الله لا الى بشر * منتقل فى البلى وفى الغير
ان الذى لا يخيب سائله * جوهره غير جوهر البشر
ياقلب مهلا وكن على حذر * فقد لعمرى أمرت بالحذر

﴿الفصل التاسع﴾

(فى احتراف الحاج بابا السقاية باسباب ماحصل له من الضيق والنكاية)

فلما وصلنا الى مدينة مشهد دخلها الامير فى احتفال كبير وسار بموكب حافل والعساكر مصطفة على الجانبين والعموم يتلألأ على وجوههم البشر والفرح بالاحترام الزائد وهو محاط بالجم الغفير حتى وصل لمقره معززا مكرما وأما أنا فصرت فريدا وحيدا فى مدينة غريبة بعيدا عن الوطن محروما من الخل والخدن لا أنيس يؤانسنى ولا آدمى يساعدنى ولا زوج أمواس يسلينى

ولما تفقدت مامعى من الامتعة و بحثت فيها وجدت خمسة تومان ذهبا كنت سرقتهم من الكيس الذى سلبته من الخان حال وجودى مع التركمان وأخفيتها بين بطانة قاووقى ووجدت أيضا جبة صوف سمراء وقباء من جلد الغنم وقيصا وسروالين ومداسا ثقيلا ولما كنت برفقة المكارى كنت أقتات من جانبه من مرتبه الذى كان يأخذه يوميا أثناء سياحته بعيسة

الامير ولكن لما استغنى عنه الحال وعن بغاله لم أتعشم بانه يعولنى فتفكرت بان أعود لسابق حرفتى الاصلية وهى الحلاقة ولكن قلت فى نفسى من الذى يأمن على عنقه منى مادمت معدودا من جواسيس التركمان وغير ذلك رأيت انه يلزمنى شراء عدة أمواس ودراهمى وأمتعتى لا تكفى لفتح دكان كاملة الادوات مع عدم عزمى على السياحة فخطر ببالى ماأوصانى به صاحبى المكارى العارف باحوال وكيفيات مدينة مشهد من اتخاذى حرفة السقاية وقال لى يابنى أنت شاب قوى البنية حسن الصوت ويمكنك استجلاب قلوب الناس اليك بصيحتك المطربة وندائك الموزون سيما وانك خبير بنغمات الاصوات والتملق بالتشيد ومطابقة العبارات وتركيب الجمل ونثر المقالات التى تجذب العقول وتضحك بها على الذقون سيما ان الحجاج الذين يأتون الى مشهد لتأدية فروض الحج عند قبر الامام كثيرون والصدقات هى من الواجبات اللازمة عندهم لنجاة انفسهم من العذاب الاخروى فلذا يتصدقون على من يدعو لهم بنيل الاجر والثواب العظيم وليكن بيعك وسقايتك فى الماء باسم ومحبة محبوبنا وسيدنا الامام الاعظم ولا تطلب دراهم بل اسق الناس مجانا وتيقن أن الدراهم بذلك تعطى فى كفك قبل انسكاب الماء و بعد أن يشرب زبونك قل له بصوت قوى عظيم (جعل الله شربتك بالهناء والسرور ممزوجة بالاحسان والغفران على ممر الدهور وجعل سيدنا الحسين شفيعا لك ولا أذاقك الله عطش امامك الحسين) وهكذا تقول مايماثل هذه الالفاظ بنغمات عالية وانشادات مطربة حتى يسمعك كل انسان و بالاختصار فانك تخاطب أيضا المتعبدين الذين يأتون من مسافات بعيدة و يقطعون مئات من الفراسخ للتضرع والادعية بقضاء حوائجهم وتصادق لهم على قبول أدعيتهم فانهم يصدقونك و يعتقدون فيما تقوله لانى كنت سقاء فى مشهد وتمرنت جيدا

فى هذه التجارة واكتسبت منها مبالغ وافرة حتى أمكننى شراء جملة بغال وأصبحت منها رجلا كما ترانى

(قال الحاج بابا) فاتبعت نصيحة صاحبى وأبرزت النقود اشراء قربة جلد بحنفية نحاس لحملها على ظهرى وأيضا طاستين لماعتين للشرب ولما اشتريت القربة ملأتها بالماء ونقعتها زمنا لازالة رائحة الجلد الكريهة ثم ملأتها ثانيا وحملتها وتوجهت الى مقام الامام وابتدأت فى اشغالى والمناداة التى استحسنتها هى (مياه مياه سبيل على مدد الامام سبيل ياعطشان سبيل) وكنت أنشد ذلك وأترنم به بكل قوتى حتى ينفطر قلبى وتنتفخ الرئتان وبالنسبة لكونى تمرنت مدة يومين قبل ذلك بواسطة المكارى وعلى الكيفية عددت نفسى من أقدم السقائين المتدربين فى هذه الحرفة ولكن بمجرد ظهورى أوجب التفات عموم السقائين نحوى ومسؤليتى عن السبب الذى خولنى الحق بالدخول فى تعاطى حرفتهم ولما أظهرت نفسى عند الصهريج لملء المياه كانت تتشاجر معى السقاؤن حتى ان أحدهم اراد مرة الاجتهاد لطردى منه فلم يتمكن ولما رأوا انى ثابت العزم وقوتى قاومت فرقة من شجعانهم امتنعوا عنى واقتصروا على لعنى سرا لتسلطى عليهم وبذا أصبحت القائد لهم وقطعوا ألسنتهم عنى خشية من بطشى

(نعم) وان كان فى نفس الامر أن الطبيعة هى التى سببت لى حرفة السقاية بلا اختيار ولكن من الالطاف الالهية انى حالما كنت أملأ قربتى ولو من صهريج معكر وانادى وأمجد وانفخم فى وصفى للماء فكان كل من يسمعنى يظن انها مجلوبة من بئر زمزم المقدسة أو ملئت من أحد الانهر الممتدة من الجنة ولا يتصور بالعقل كيفية تصريفها باسراع وسهولة ولا مقدار الدراهم التى أخذتها نظير السقاية مجانا

وكنت

وكنت أترقب دواما حضور قوافل الحجاج الذين بمجرد وصولهم وقبل نزولهم من فوق بغالهم وهم مغبرون من السفر وفرحون لوصولهم بالسلامة ونجاتهم من أيدى التركمان اجتهدان أسقيهم مياه عذبة واذكرهم ان ذلك من الواجبات الدينية علينا بحال وصولهم لمدينة مشهد واهنيهم بالسلامة حتى بذلك كانوا يغمرونى بالاحسانات العميمة بدون تكلف وهم مسرورون بنجاتهم ووصولهم سالمين وكان يندر عدم التفاتهم لارشاداتى ونصائحى اليهم

ثم ولما اقترب يوم تذكار مقتل سيدنا الحسين رضى الله عنه الذى يعتبرونه فى عموم العجم انه يوم مقدس وان اقامته من الشعائر الدينية عزمت بان انظم نفسى ضمن السقائين فى سلك الموكب الجارى اشهاره سنويا بهيئة الواقعة التى حصلت فى ذلك اليوم وهذا الموكب بما احتوى عليه من تصوير الحادثة المشهورة التى قتل فيها الامام رضى الله عنه كان يمر من امام الامير فى ميدان المدينة فرجوت اكتسابى الشهرة والمنفعة العظيمة حيث أظهرت قوتى علنا للجمهور بان حملت قربة كبيرة جدا على ظهرى وبينت لهم ما أنا عليه من السعى والاجتهاد

وكان لى عذول اجتهد فى تدبير مكيدة ضدى لما رآه من القبول الزائد نحوى فى العيد الماضى وأراد افتراسى ولكن بالنسبة لعظم قربتى وما فيها من المياه التى لا يقدر على حملها أشد السقائين فلم يتمكن من التسلط على ولا أمكنه المنازعة فى رئاستى وقد أخبرنى من اثق به ان هذا الخصم مترقب حركة بها يتمكن من اضرارى للغيرة المتلبسة به وأوصانى بالحذر منه فلما كان اليوم المذكور وسار الموكب داخل المدينة والازدحام حافل جدا وكان الامير جالسا فى أودة على وجهة سلاملك السراية وأنا عريان ولم يكن على جسمى خلاف السديرى والدم يجرى من سيقانى وأنا سائر على مهلى

بالنسبة لثقل قربتي الهائلة فلما وصلت للشباك الجالس فيه الامير جذبت التفاته نحوى بصياحى المطرب ودعائى اليه بدوام العز والسعد والاقبال فرمى لى قطعة من الذهب واظهر سروره منى نظرا النادية واجباتى وحسن مسعاى ومن فرحى بذلك ناديت بعض الاولاد الصغيرة الذين كانوا بالقرب منى للركوب على ظهرى فوق بعضهم وانا حامل القربة ففعلوا ذلك وتعجبت الناس وازدحموا حولى وهم يثنون على ويشكرونى على اجتهادى ثم ناديت على ولد آخر فما أدرى الا وخصمى فرق الجموع ونط راكبا بقوة زائدة يريد البطش بى وطرحى على الارض بحملى وانه لاشك ان هذا هو الوقت الذى يتمكن فيه لاغاظتى ولكنى قويت نفسى وشددت ظهرى على قدر طاقتى وقويت عزمى فى رفع حملى بين الجموع الذين كانوا ينشطونى ويشجعونى والكل باهتون وينظرون لى وماشعرت بألم حال اظهار قوتى فى رفع هذا الحمل وحرارتى فى بذل مجهودى ولما أزحت الحمل عن ظهرى وفرجت عن نفسى وجدت أن ظهرى انقسم وحصل لى تعب شديد ورأيت ان حالتى لما اعتراها من الضعف لاتقوى على مداومة حمل السقاية ونويت ابطالها كلية وبعت قربتى وجميع أدواتى حيث أصبحت فى غنية عظيمة من الدراهم التى جمعتها من بيع المياه وعدت لحالتى الاولى وقت وصولى لمدينة مشهد الا أن صاحبى المكارى سافر مع قافلة الى طهران قبل العيد بيومين ولذا حرمت من مشوراته ونصائحه وكنت عازما على اعمال دعوة ضد خصمى وطلبه أمام القاضى ولكن رأيت ان الشريعة المحمدية لاتجوز كسر ظهر بظهر وفقط المكتوب العين بالعين والسن بالسن ولم يذكر الظهر بالظهر ولو كان لى محام يذب عنى ويقهر خصمى لاخذ بثارى وقد وجدت نفسى غريبا لا يعرفنى أحد وليس لى من مساعد ومهما فعلت لا أنال شيأ الا ضياع الدراهم التى اكتسبتها فتركته وسلمت

أمرى لله سبحانه وتعالى

الا ان هذا الدهر لازال مولعا * بجرانحى فضل فيثقله وقرا
ولم يكفه حتى يسدد نحوه * من الخطب سهما صائبا يقصم الظهرا

﴿الفصل العاشر﴾

﴿فى تدبيرات الحاج بابا لنفسه وصيرورته بياع دخان على قارعة الطريق﴾

ثم مكثت أشاور نفسى فيما أفعله فى مستقبل معيشتى وقد انفتح امامى جملة أبواب مختلفة للمعيشة ورأيت ان أعظم طريقة أسلكها هو (سؤال الناس الصدقة) التى لها موقع حسن فى مدينة مشهد وقد برهنت على ذلك من بيعى المياه وانه يمكنى فى أقرب وقت الرئاسة على هذه الحرفة ثم تفكرت فى حرفة اللوتى وان اشترى دبة فقلت فى نفسى ان هذه الصنعة يلزمها التمرين وتعليم الطرق التحيلية من جهة وكيفية تربية الدبة من جهة أخرى وعلى ذلك رفضت هذا الامر وكان عقلى يتروى فى اتباع حرفتى الاصلية وهى الحلاقة وقلت اذا فتحت دكانا فلا يمكنى السلوك فيها بالنسبة لكثرة الحلاقين فى هذه المدينة وشهرة الكثير منهم فى اتقان هذه الحرفة فأخيرا اتنازلت عن هذه التصورات وقر رأيى بان اسرح فى الشوارع بالدخان لميلى الشديد فى تعاطيه ومعرفتى بانواعه وعلى ذلك اشتريت جملة شبكات مختلفة الحجم وعلبة خشب محتوية على اقسام الشبكات وعلقتهما حول القباء واشتريت مجمرة حديد للنار احملها بيدى وماشة حديد وكوزا نحاسا للمياه مشبوكا بخطاف خلفى وبعض أكياس طوال لوضع الدخان فيها وربطت جميع هذه الادوات حول جسمى وكنت لما اشحن بها نفسى كان كل من يرانى يقول انى مثل القنفذ المنتفش شوكه وكان عندى انواع

مختلفة من الدخان مثل تباز وشيراز وسوذه ودمشق وفى الحقيقة ما كان عندى ضبط كلى فى بيعه نقيافانه بوجود جزء صغير من ورق الدخان الصافى كان يتكون عندى مبلغ وافر بواسطة مزجه بجزء كبير من أنواع الزبل المختلفة وكان لى مهارة عظيمة فى التفرس فى زبائنى ومعرفة أصحاب الكيف الذين لا يجهلون شرب الدخان فكنت أعطيهم من الدخان الذى اغلبه صاف وفى الواقع كانت جميع مكاسبى متعلقة بفرز وتمييز الطبائع فالناس المتوسطون أعطيهم النصف ممزوجا والاقل منهم الربع صافيا والثلاثة أرباع مغشوشة واما الدون فكنت أغشهم بذبل البهائم الخالى من الدخان وكنت عندما يتراءى لى وجه عبوس يشكو من رداءة الدخان ففى الحال ابذل مجهودى اليه فى تحسين دخانى وأريه جزأ من الصافى وانشد له فى ذلك أبياتا بليغة وأخبره عن الزارع الذى بذره وجمعه وأجتهد بان اصف له اعظم أرض نما فيها هذا الصنف حتى انى اشتهرت فى مدينة مشهد بلطافة شكاتى واعظم زبون عندى كان درويشا اسمه صفر ما كنت اتجاسر على اعطائه دخانا مغشوشا لمعرفته فيه ولم أربح منه شيأ الا الطفيف لتأخره فى وفاء الثمن الا أنه كان أنيسا يسلينى بمحاورته اللطيفة على همومى وزيادة على ذلك فانه توسط لى فى احضار جملة زبائن حتى ان محبته صارت غريزية فى قلبى وجسمى وكان الدرويش صفر غريب المنظر ذا انف مستطيلة كبيرة وعيون حادة سوداء ولحية غزيرة وكان مسترسلا على كتفيه كمية عظيمة من الشعر الاسود وكان لابسا قاووقا مخروط الشكل مكتوبا عليه كثير من الآيات القرآنية والاحاديث القدسية وعلى ظهره جلد غزال أحمر من الخارج وبيده عكاز من الفولاذ يحمله على كتفه فى أغلب الاحيان وبيده الاخرى كشكول فارغ ذو سلاسل ثلاث يرفعها امام السياحين عندما يطلب منهم الصدقات وكان

لابسا فى منطقته أبازيم من حجر اليشم ومعلقا فيها جملة من مشابك خشب ثقيلة ولما يخطر فى الشوارع والاسواق بهذه الهيئة يستعمل الالفاظ العذبة ويظهر الرعب والخوف والمذلة لمن يسألهم ويبدى لهم التشكرات والامتنانات ويكلمهم بالخضوع وقد علمت ان هذه حيلة منه على المعايش لانه لما كان يحضر عندى لشرب الدخان ويختلى بى ولم يكن أحد معنا كنت اجده ألطف وافصح الناس منطقا وجسارة وبعد أن تمكنت المحبة بيننا مدة عرفنى بشرذمة قليلة من الدراويش وهم اناس من شكله وحرفته الا أنه كان منفردا بمعيشته وكنت أتردد غالبا فى جمعياتهم وان كانت هذه الحالة على غير المرام ولكن لحسن جمعياتهم ولطافتها ما كان يمكنى الاعراض عنهم لا للنظر لكثرة تعاطيهم الدخان فانى كنت أبيعه اليهم بدون مكسب يقوم باتعابى مثل زبائنى ثم حدث ذات يوم ان الدرويش صفر جلس عندى يتحدث وبعد أن اكثر من التدخين فوق العادة قال لى

(ياحاجى بابا) انى أراك رجلا أنعم بك من انسان وانى أراك لست أهلا لبيع الدخان طول حياتك فلماذا لا ترافقنا وتتخذ حرفة الدراويش مثلنا أما تعلم أننا نقبض على ذقون الرجال بكل سهولة وهى عندنا أهون من التراب على انه يندر وجودنا فى جهة واحدة بل ننتقل من مكان الى آخر وهذه تختلف بحسب الاحوال والظروف على حسب ما نحن فيه من الكسل وان الجنس البشرى أمام أعيننا مثل فريسة سهلة المأخذ وبذا نعيش على ضعف قلوبهم وسخافة عقولهم ومما رأيته من فطانتك وحذاقتك أظن انك تشرف حرفتنا وتجعل لها الصيت الاعلى وما يمضى غير قليل حتى يشتهر أمرك شهرة تامة لا تقل عن شهرة الشيخ السعدى نفسه فلما سمع أقرانه كلامه صدقوا على مقالته وصار وايمدحونى ويغوونى على دخولى معهم فى سلك

الدراويش فاعتذرت لهم بجهلي وعدم معرفتي هذه الحرفة ويلزمني بعض تمرينات وتعليمات وقلت لهم كيف ذلك وأنا رجل جاهل لا أدري شيأ وأدخل في الدروشة مع ان الانسان يلزمه أن يكون حاذقا ذا معرفة ببعض معلومات يحتاج اليها الدرويش (نعم) حقيقة أعرف الكتابة والقراءة وأحفظ القرآن ودرست كتاب الحافظ والسعدي تقريبا على ظهر قلبي وخلاف ذلك فاني قرأت جزأ عظيما من شاهنامة الفيردوزي وما عدا ذلك فاني أعد نفسي فيه جاهلا بالكلية

فاجابني الدرويش صفر قائلا آه يا صاحبي ما هذا الكلام أما تعلم ان الدراويش يدعوا المعرفة وانهم أقل الناس علما ولا تحتاج لمعارف لدخولك ضمن الدراويش فليس ذلك من صعاب الامور وأول أمر يلزمك هو الثبات والتجلد وانك بخمس المعلومات التي ذكرتها وبجزء من الكسافة والوقاحة أعدك انك لا تتسلط فقط على أكياس الدراهم بل وعلى حياة من يلقوا آذانهم اليك فاني بالوقاحة صيرت نفسي نبيا وصاحب معجزات واني أعيد الاموات لحالة الصحة

وبالوقاحة فاني أختصر لك أسهل طرق المعيشة واني مهاب ومعتبر بالناس الذين مثلك أما تدري يا حاجي حالة الدراويش وما هم عليه من المكر والخديعة فالدروشة شئ لا يذكر أما تعلم يا حاجي اني اذا أردت أتعب نفسي وأتحمل الاخطار وأظهر انه في امكاني ابداء معجزات سيدنا محمد عليه السلام فانهم يعتقدون أني نبي مثله أما تعلم يا حاجي انهم يعتقدون من شدة جهلهم انه في امكاني أشق القمر نصفين باصابعي كما فعل النبي عليه السلام وقد تحجبات بمثل ذلك حتى اعتقدت الناس الذين يسمعون بمعجزاتي أما تعلم ان الوقاحة والسماجة ينتج منهما ذلك وأكثر منه بواسطة طرق مستحسنة يلزمها السعي بهمة والتفات

قال

(قال الحاج بابا) فلما انتهى الدرويش صفر من حكايته صدق عليه جميع اخوانه وهم يزدادون مدحا وثناء عليه ويكررون جملة خرافات عجيبة من ضمن أعمالهم التي سبقت لهم حتى اني تشوقت جدا للوقوف على حالة هؤلاء الرجال الفائقين الحد في المكر فوعدوني انهم يقصون لي تاريخ حياتهم عند المقابلة مرة ثانية وأوصوني غاية الوصية بوقتها وشجعوني بان أحول أفكاري لمعيشة ذات شرف ورفعة مثل هذه أحسن من أن أكون بياع دخان متصفا بالغش وعدم المأوى

﴿الفصل الحادي عشر﴾

﴿في تاريخ الدرويش صفر والدرويشين الآخرين﴾

فلما اجتمعنا ثانيا وكل منا بيده شبك وجلسنا في غرفة راكنين ظهورنا للحائط وكان شباكها مطلا على ميدان صغير مزروع بالازهار ولكون الدرويش صفر هو الرئيس المقرر لجمعيتنا الآن فابتدأ يقص تاريخه بما يأتي

(قال الدرويش صفر) ان والدي كان متوظفا بوظيفة لوتي باشا (رئيس مسخرية وحواء أمير شيراز)! وقد اشتهر باسم الطاوس وهو اسم مقبول واذا كانت وظيفته هذه فلا يخفى عليك حالة نشأتي وتربيتي كيف كانت حيث ان أعظم أصحاب اجتمعت بهم مدة طفوليتي هم قرود ودب والدي وأصحابه المماثلين له فان الحيل العديدة التي تعلموها والطرق السهلة التي اتخذوها في تربيتها كانت فائدة لي مدة حياتي نظرا لما كنت أراه من التشخيص اللطيف وبذلك لم أتم سن الخمس عشرة سنة حتى صرت لوتيا مستعدا فكان يمكنني أكل النار وتأدية شغل الحيل والمكايد اليدية وكنت على وشك النجاح في هذه الصناعة لولا تعلق بنت جنرال جالة طوبجية الامير بعشقي عندما رقصت ذات مرة ولعبت على عقدة البهلوان بالديوان

× يقصد به عيد نوروز

فى أحد أعياد أول السنة وتصادف ان أحد الجمالة الذين تحت سلطة هذا الجنرال كان صديقالى وله اخت تخدم فى منزل الجنرال فاخبرته اخته بما حدث لابنت الجنرال وما بها من الهيام بعشقى حيث انها لمحت من سيدتها بعض اشارات تدل على محبتى

فلما أخبرنى بذلك صاحبى مال فؤادى اليها وأسرعت الى مرزا (كاتب) قاعد فى دروة صغيرة فى السوق وسألته أن يكتب لى جواب عشق و يكثر من احمرار الحبر على قدر امكانه و يبالغ فى التحية والسلام و يبث فيه ما أصابنى من العشق والهيام و ينشد فيه القصائد والاشعار التى تحير الافكار فلما كتبه وقرأته وجدته عذب الالفاظ عديم المثيل شفاء للعليل بل هو السلسبيل يهيم بمطالعته العاشق الولهان و يفيق بسماعه المغرم السكران و يقول فى مطلعه بعد العنوان الى سيدتى المعشوقة فريدة الزمان ما معناه

لما بدت عيناك * قد ذبت من هواك
بقدك القتال * هل حيلة للقال
أو نظرة من بعيد * أحسن من ألف عيد
تبشرا لعميد * بنيل وصل سعيد
أنا عبدك المكمود * ان لم تفى بالوعود
عدمت فيك الوجود * وملتقانا الخلود

(قال الدرويش صفر) فلما قرأت الخطاب وانسر منه خاطرى واستطاب انبسطت من الكاتب الذى سلانى و بلطافة نثره شجانى الا أنه لما وقف على حقيقة سرى المكنون لم يستقر فى مكانه بل هرول يخبر الجنرال بالواقعة راجيا أن يجازيه نظير اتعابه وقال له كيف ان ابن اللوتى باشا يواصل بنت

زمبوركشى باشى بالفاظ غزلية فهذه غاية لا تدرك وذنب لا يغفر فغض والدها لهذه الحكاية وقصد بى النكاية ولكونه نافذ الكلمة فى الديوان عرض للامير مسئلته بالبيان وتحصل منه على أمر يؤذن بطردى حالا من شيراز وكان يوما مشؤما فرح فيه أعدائى وتجنبنى أصحابى وأخصائى فلما بلغ والدى هذا الخبر المشؤم ما استطاع ان يتفوه بكلمة حذرا على مزاج الامير من الاغبرار وزيادة على ذلك خوفا من ازدياد شهرتى بين أبناء جلدتى ووقاية من منازعتى له فى حرفته لم يؤخرنى عن الرحيل بل أخذ فى استعداد ما يلزمنى

ثم وفى صباح ثانى يوم وانا متأهب للقيام من شيراز وكنت أودع أصحابى القرود والدب وحيوانات أخرى عند والدى قال لى (ياولدى) ياصفر اعلم انك أنت مهجة قلبى وغرة فؤادى ولبى ولا طاقة لى على فراقك ولكن طاعة للامير تحملت هذا الضرر الخطير وها قد أودعتك عند رب العالمين حيث قال تعالى واطيعوا الله والرسول وأولى الامر منكم وانى مؤمل يابنى انك تعيش مدة حياتك فى أرغد المعايش بالنسبة لتربيتك والفوائد الخصوصية التى تحصلت عليها بوجودك فى جمعيتى بينى و بين حيواناتى وانى سأتحفك الآن بما يؤكد و يحقق لك سعادة قريبة ألا وهو قردى الكبير الرئيس عليهم وهو مستوفى التربية بجميع انواعها فخذه ياولدى وتصاحب معه وألفه عليك لخاطرك وأكرمه حبا لوالدك وعشمى انك فى وقت قليل تكتسب الدرجة العظمى فى الشهرة التى حازها والدك و بعد ان أنهى كلامه وضع القرد على كتفى وودعنى وخرجت معه و بابه تاركا الاهل والاوطان سالك الطريق الموصل الى أصبهان وانا فى كرب عظيم حيث شق على معرفة حالتى ان كنت سعيدا أو شقيا لتغيير هذه الاحوال لان وجودى مستقل مع القرد دلالة على سعدى وتسليتى به وأما هجرى

أصحابي وأوطاني الغالية التي ربيت فيها منذ طفوليتي وزيادة على ذلك فراق حبيبتي اللطيفة التي لم أرها بل تصورت في ذهني انها تعادل (شيرين) المتصفة بالجمال في القد والاعتدال فهذه الاحوال كدرتني وما أدري وانا تائه في بحور التذكار حتى وصلت الى صومعة أحد الدراويش وكنت في حالة رديئة كدت فيها أن اقطع اليأس من حياتي فجلست على حجر بقرب الصومعة وقردي بجانبي فهونت على نفسي لتخفيف حزني وسالت دموعي على خدي كالطوفان وصحت بنغمات كل من يسمعها يشفق بحالي وقلت آه واهي آه واهي ياغربتاه وياذلي بعد عزي ومفارقة اهلي ووطني

فلما سمع الدرويش صياحي خرج من خلوته وسألني عن مصيبتي ومادهاني من نكبتي ثم ادخلني الى مكانه فوجدت درويشا ثانيا عليه هيبة وعظيم المنظر عن رفيقه اذ كان لابساً مثل لبسي هذا والقاووق الذي على رأسي الآن هو حقيقة تعلقه والذي أوجبه هذه الهيبة والوقار هو ماجبل عليه من هيئته الوحشية وتقطيب وجهه الظاهري وبمجرد مارآني مع رفيقي القرد أحاطت به الافكار ودعا بالدرويش الثاني وبعد ان تداولا في خلوة قال لي ان في عزمه مصاحبتي الى مدينة أصبهان ووعدني بالتفاته الزائد نحوي واني اذا أحسنت سلوكي يرشدني الى الطريقة التي تكون سبباً في ثروتي فبوقتها قبلت منه ذلك وبعد ان ناولني شبكاً أخذته فلما شربته قمنا وسرنا مسافة طويلة بدون أن أتكلم معه الا القليل وكان اسمه الدرويش (بدين)

ففي أثناء المسير اقترب نحوي وسألني عن حالتي السابقة فقصصت عليه رحلتي فلما سمع ما أنا عليه من العلوم والمعارف وكانت تلوح عليه علامات السرور الدالة على انبساطه مني أطنب في المدح على الفوائد التي تنتج من

معيشة الدرويش واثبت رفعتها وشرفها عن حرفة اللوتي الدنيئة وحرضني على الدخول في حرفته ثم أخبرني اني اذا التفت اليه واعتبرته كسيدي فيعلمني جميع مايعرفه بعد أن أكد لي أنه على جانب عظيم من المعارف وزيادة على ذلك فهو معدود من أشهر وأكبر الدراويش في بلاد العجم

وشرع يتحدث معي عن السحر وعلم الفلك وذكر لي جملة أبواب في العزائم والطلاسم والاحراز التي يستعان بها عند اللزوم واني ببيعها اتحصل منها على مايكفيني من الدراهم واخبرني ان من الفوائد انك اذا وضعت ذنب أرنب تحت وسادة الصبي فانه ينام واذا سقيت دمه لحصان يجعله سريع الحركة في السير وكذا عين واصبع ومفاصل الذئب اذا علقت على الصبي فانها تقويه واذا اندلكت بدهنه المرأة تتبدل محبة زوجها اليها بالاغضاء والكراهة وأيضا اذا اندلكت بمرارته المرأة يكون لها القبول والمحبة في قلوب الناس وان أعظم شئ ذو قيمة ثمينة يستعمل في السرايات هو كيس كوفتار (وهو جلد اللبوة اليابس) اذا لبسه الانسان وجعله رداء له فان محبته تنبت في قلوب جميع الناس ويميل اليه من يراه

واستمر الدرويش بدين يتحدث معي طويلا في مثل هذه المواضع وأغواني واستمال عقلي بغرس هذه الفائدة في قلبي التي بها أظهر لي النجاح عيانا ومازال كذلك حتى انه أخيرا تجاسر ان يتبدى في بيان مشروع بعد ان أوري عدم امكان موافقته وقال ياصفر انك لاتعلم الكنز الذي تمتلكه في هذا القرد ولم أقصد وجود الكنز في حال حياته بل بعد موته ولو كان ميتا لامكني ان استخرج منه بعض اجزاء تعمل أحرازا وتباع بثقلها ذهبا داخل حريم الشاه ويلزمك ان تعلم ان كبد القرد وهو الذي يكون من جنس قردك لاغير اذا حمله الانسان فانه مجرب في جلب محبة من يريد وقضاء حوائجه واذا لف الانسان جلد انفه حول عنقه فيكون مانعا حصينا

لدفع السموم وهو من التجاريب العظيمة ورماده بعد حرقه على نار بطيئة اذا استعمل من الداخل للطفل فانه ينمو بخصال القرد ومكره وخديعته وتكون جميع تصوراته مشابهة لتصورات القرد فى كل أفعاله وعلى ذلك شرع فى قتل القرد فحصل لى انزعاج كلى لهذا القصد لان تربيتى كانت مع قردى من الصغر واننا اخرجنا سوية لطلب المعيشة وزاملنى فى السراء والضراء وقتله بهذه الحالة الوحشية لا طاقة لى ان أتحمله على ما أنا فيه من الغم والكرب فصرت أحاوله عن قتله ولكنى لما رأيت بشاشته ومحبته نحوى كادت ان تميل للقسوة والخشونة وخشيت أن يأخذه جبرا مع عدم مقدرتى على حمايته قبلت وأنا فى غاية الحزن الشديد الذى لا يتصور باتمام مقصوده ونجاز مطلوبه

فلما سمع ذلك شكرنى وملنا عن الطريق لواد صغير خالى عن الناس وجمعنا سوية بعضا من القش والحطب وعملنا اركية وأخرج زنادا وصوانا كان معه وأولع به النار ومسك قردى بيديه بدون شفقة وذبحه وشرحه وأخرج كبده وسلخ جلدة انفه وحرق باقيه على الكانون الذى عملناه ولما احترق جميعه وصار رمادا جمعه بكل احتراس ولفه فى طرف فوطته واستمرينا فى سياحتنا وظللنا سائرين حتى دخلنا فى الوقت المناسب مدينة أصبهان وفيها اقلعت ملابسى التى على شكل اللوتى ولبست بدلا عنها على زى درويش وقمنا منها قاصدين طهران وفى هذه المدينة تحققت من علو درجة سيدى حيث بمجردما استنشقت الاهالى حضوره أقبلوا يتزاحمون للسلام عليه واستشارته فى الامراض وحل الامور فكنت أجد الامهات تطلب منه حرزا لاولادهن من الحسد والنظرة والزوجات تطلب حجابا للمحبة ازواجهن من غيرتهن عليهم والشجعان تطلب منه طلاسما لحمايتهم من ضرر وخطر الحرب أثناء القتال وكان أعظم زباينه حريمات السراية الملوكية حيث

أغلب ما يطلبونه حجاب يستجلبون به التفات الملك نحوهن (قال صفر) وقد جمع الدرويش بدين مبلغا عظيما من المهمات والادوات اللازمة لهذا المشروع فكان مستحوزا على شعر الفهد وسلسلة البومة وشحم الدبة مجهزا اجهزة مختلفة وقد حدث ان احدى السيدات الموجودات فى السراية كان الملك لا يلتفت اليها لتقدمها فى السن وتأخرت عن أقرانها فأتت اليه واخبرته بالمسئلة فباع اليها كبد قردى وقال لها انك بحملك اياه وبمجرد ظهورك امام الملك فانه يحبك محبة عظيمة ويقدمك على اقرانك وتفوزى بالنصر على أعدائك وأتت اليه أخرى وأخبرته بما اعتراها من التمرض والانحراف دواما وانها أعيتها الحيل فلم ينجح فيها الدواء فاستخدم لها منقوعا من رماد قردى وحضرت له امرأة ثالثة واشتكت له من تكرش وخشانة وجهها فاعطاها دهانا وأوصاها انها اذا استعملته ولم تتبسم ولم تحرك أعصاب رجلها فانه بدون شك يزيله ويمحو أثره كلية وفى هذه المدة كنت ابتدأت فى تعليم جميع هذه الاسرار ووقفت المرار على قسم كبير من المكر والخداع والحيل مما كان يستخدمه سيدى عندما يضطر لعمل فوق العادة لاثبات صداقته وكرامته اذا اتضح ان احرازه لم تأت بادنى ثمرة ولكن مهما كانت الحالة ان لم ينجح بواسطة هذه الاستخدامات فلا بد ان تحصل فائدة من أجزاء قردى وكان يأخذ جميع الدراهم لنفسه بدون ان أمس منها بارة وقد رافقت الدرويش بدين فى جملة بلاد نباشر فيها حرفتنا فكان الناس يعدوننا بعض الاحيان كالاولياء ويشار لنا بالبنان وأحيانا نرجم بالاحجار كالتائهين ولكون سياحتنا كانت جميعها على أقدامنا فكان ذلك فرصة عظيمة لمعرفتى الاماكن والبلاد تفصيلا وقد سافرنا من طهران الى اسلامبول ومنها الى مصر القاهرة مارين على حلب ودمشق ومن مصر توجهنا الى مكة المكرمة والمدينة المنورة وركبنا البحر من جدة ووسينا

على سورات فى برجوزرات ومنها سلكنا قاصدين لاهور ومنها الى كشمير وفيها على حسب عادتنا اجتهد الدرويش فى أن يغش أهلها ويدخل عليهم بالتحيلات ولكن لكون أهلها متنورين ويعرفون مانحن عليه من المكر والخديعة انجبرنا على الانسلال منها خائبين واتفقنا على الرحيل الى مدينة هيرات حيث عدنا بالفلاح ونجاحنا السابق لقصور عقل الافغان الذين كانوا يقبلون ويميلون لكل مانحتاج ان نخبرهم به

وبما أن الدرويش كان فى هذه المدينة مجتهدا فى الحصول على طريقة يظهر بها نفسه انه نبى وقد قاربت معدات أعمال المعجزات على الانتهاء وقد كان وعد الوفا بحفظ شبوبيتهم على الدوام فاخيرا كان هو اول من وفى بتسليم نفسه الى طوارق الطبيعة وذلك انه كان استكن فى صومعة صغيرة فوق جبل بالقرب لهراج وقفلها عليه وادخلنا فى ذهن الناس الطيبين انه لا يأكل طعاما غير الذى يحضرونه له الجن والاعوان وصدقوا ذلك ولكنه من سوء البخت لشدة شراهته على الطعام احدى المرار كان أكل قوزيا مشويا وحلاويات زيادة عن طاقته فتسبب له منها تخمة فمات وبالنسبة لذمتى وصداقتى معه التزمت بان أقول للناس انه نظر الغيرة الجان منا نحن الجنس البشرى لاستحواذنا على رجل جليل المقدار مثله احضروا له طعاما مسموما وملؤا جسمه منه حتى تورم وانتفخ ولم تجد روحه مقرا لها فانجبرت بالخروج من جسمه وحلت الى السماء الخامسة بريح شمالى عاصف (اذ كان هبوبه فى هذا الوقت عند موته)

وهذه الريح كانت تهب أربعة أشهر الصيف وبدونها تكاد الاهالى تموت من شدة الحرارة واجتهدت أن اجعلهم يصدقوا ويعتقدوا ان هبوبها كرامة من الدرويش اليهم وانها ستكون ميراثا لهم ولذريتهم من بعدهم فالمشايخ الذين حقيقة تذكروا هذه الريح منذ صباهم كانوا يرددون

أفكارهم فيها انما لقصر فهمهم وركاكة ذهنهم اطبقوا على ماأبديناه من التأثير وسلطة أعمالنا فدفن الدرويش بغاية الاكرام والاحترام الزائد حتى ان أمير هراة عاشق مرزا ساعد بحمل النعش على كتفه الى القبر وبنى أحد أتقياء الافغان المشاهير ضريحا له على قبره وصارت من وقتها تأتى اليه سكان البلاد المحيطة به لزيارته وأصبح محلا للحج اليه سنويا وقد أقمت فى هراة مدة زمانية بعد وفاة رفيقى كى أتمتع بالفوائد والهدايا التى كانت تعطى لى لكونى صاحبا وتلميذا الشيخ مثل هذا حاز أعظم شهرة وبذا لم أندم على هذا العزم ثم بعت احرازى التى عندى باثمان غالية وغير ذلك جمعت مبلغا وافرا من بيع الشعر الذى كان يتساقط من تمشيط لحية المتوفى وقلامة أظافره وأكدت للمشترين ان الشعر المتساقط والاظافر تحفظت عليها مدة وجوده على الجبل مع انه فى نفس الامر أغلبهم متجمع من شخصى وبعد ان بعت جزأ وافرا من آثار الذقون والاظافر التى كنت أتحصل عليها راودت فكرى انى اذا استمريت على هذه الحيلة نخشية من تنبه سخافة عقول الافغان ينكشف سترى ويظهر غشى فلذلك سافرت منها الى جهات مختلفة من بلاد العجم واستقريت أخيرا فى قبيلة هزارة وهى قبيلة كبيرة أغلبها يسكن الجبال ويقيم فى الخلاء الفسيح الذى بين كابول وكندهار وهناك طاب عيشى ونجحت نجاحا عظيما زيادة عما كنت انتظر لاستعمالى التحيلات التى كان يجريها المرحوم الدرويش بدين فى مدينة هراة وبالفعل ظهرت بينهم على هيئة نبى

(قال الحاج بابا) وبينما كان الدرويش صفر فى سياق حديثه اذ وضع يده على كتف الدرويش الجالس بجانبه وقال ان صاحبى هذا كان مرافقالى فى تلك الجهة وهو خبير بخداعنا ومهارتنا فى جذب عقول الهزارة حتى انهم كانوا يعتقدون ان عندنا وعاء ملآنا من الارز المفلفل على

الدوام وقد فهموا أن وجوده ملآن بدون أن ينقص فهي معجزة رسخت في ذهنهم السخيف واستمروا على اعتقادهم ما داموا يأخذون نصيبهم من هذا الوعاء

وبالاختصار فأنا المشهور باسم (حضرة ايشان نفسه) الذي سمعت عنه سابقا في خراسان وان كانت شهرتي الظاهرة لم تبرهن باظهار أدنى معجزة ضد الاغارات التي أغار بها الشاه عليها باجلته ولكن بعد انتهائها جمعت من تلامذتي الذين ينتمون الى بطيانشهم وتقلقل عقولهم ما يكفيني لمعيشتي به عيشة هنية مدة حياتي ثم حضرت مدينة مشهد وأقمت بها من مدة قريبة ولم يمض علينا أسبوع حتى أخذتنا نتدبر في اعادة نظرا بنية ضريرة وها نحن الآن في درجة عظيمة من التبجيل والاحترام

(قال الحاج بابا) والى هنا انتهى الدرويش صفر من تاريخه وطلب من رفيقه المجاور له سرد ما وقع له وهو الدرويش الذي كان من افقاله في قبيلة الهزارة فقال ما يأتي

ان والدي كان رجلا من أشهر أتقياء مدينة (كوم) وقد شاع ذكره بمواظبته على الصلوات الخمس ودقة الوضوء والتمسك بالديانة والصيام بكل احتراس زيادة عن أعظم رجل في بلاد العجم وبالاختصار كان زهرة الشيعة وأنموذجا للأمة الاسلامية وكان له جملة أولاد وقد أحسن تربيتنا وعلمنا بكل دقة قواعد دياناتنا وأما العنف والشدة التي كان يعاملنا بها مدة تربيتنا كنا نتقاومها ونصادمها بالمكر والرياء حتى اننا اتسبنا لهذه الاوصاف وأصبحنا بصرف النظر عن أحوالنا كزمرة المنافقين المنتشرة وبالاخص شاع أمري ولكن لوقايتي من هذه الفضيحة دخلت في سلك الدراويش وشهرتي منسوبة للحادثة الآتية التي نتج لي منها الحظ الوافر وكانت سببا لسعادتي وهو اني لما فررت من بلادي ووصلت مدينة طهران اتخذت مسكنا

مقابلا لدكان عطار وبينما أنا على هذه الحالة اذ أسرعت نحوي عجوز تخبرني ان سيدها العطار اعتراه مرض شديد في هذا النهار باسباب تعاطيه طعاما زيادة عن طاقته وان الادوية التي استعملها لم يؤثر مفعولها وان عائلته يريدون تجربة الفوائد الروحانية لعلها تؤثر وترجتني ان أكتب له تعويذة موافقة لحالته وبما انه لم يكن بطرفي في هذا الوقت أقلام ولا ورق ولا حبر فأنها تتوجهي صحبتها داخل الحريم فقبلت ذلك وقمت معها فأوصلتني الى فسحة مربعة ودخلت أودة حيث وجدت المريض ملقى فوق فراشه على الارض وكان محاطا بجملة من النساء على قدر ما يسع المحل فلما رآني صرخ صرخة عالية قائلا واهي واهي يا الله يارب قد أشرفت على الهلاك

فرأيت أدوات المعالجة منتشرة في المحل بعد العملية التي أجراها اما أن يموت بواسطتها أو ينجو بها وشاهدت أيضا طشطا موضوعا فوق الرف محتويا على احقاق الادوية ووجدت انبوبة زجاج وهي آلة العذاب موضوعة في احدى الزوايا والحكيم جالس غير مبال يشرب في شبكه بين هذه الادوات وقد أيقن ان وسائط الجنس البشري عاجزة عن نوال مقصودها ما لم تستعن ببعض مساعدات خارقة للعادة ولذلك قرر أيه أخيرا على استعمال الفوائد الروحانية التي كان من نصيبي كتابتها

ولا يخفى ان الدرويش الجديد يشغل أفكاره بآماله المستجدة لان دخولي على المريض أوجب لهم هياجا عظيما

ولما جلست طلبت منهم ورقا بنغمة متسلطة لمشاهدتي منهم الميل والمحبة الشديدة نحوي على انه لم يسبق لي كتابة تعاويذ لحد الآن ثم أحضروا ورقة كبيرة نظهر انه كان ملفوفا فيها بعض أجزاء من العطارة وقدموا الى قلما ودواة فمكثت وأنا في غاية الرزانة والوقار اسود في الورقة وأكتب بسرعة

كلمات بحروف متفرقة التى لو جمعت جميعها لا تجدها محتوية الاعلى اسم الله وسيدنا محمد والامام على والحسن والحسين وأسماء جميع الائمة مرسومين بالاختلاف وكنت أضيف عليها اعدادا بدلا عن الاحرف فى الحواشى ثم ناولتها بكل احترام للحكيم فدعا بماء ووعاء لغسل الكتابة التى فى الورقة وكان جميع الحاضرين يدعون الله بتأثير هذه الكتابة الشريفة وحصول الشفاء منها وبعد غسلها قال ليشرب المريض منها على بركة النبى عليه السلام حتى اذا كان له أجل فيشفى ببركة هذه الاسماء الشريفة التى سيشرب بها وان كان قصير الاجل فلا تفيد حذاقتى بشئ ولا ينفعه أى انسان بأدنى فائدة ثم نقطوا للمريض الماء فى فمه وكل انسان شاخص لنحافة وسقم وجهه متعشمين فى انتعاشه واعادته للحياة بعد ان مكث مدة بدون ان يتحرك كانه يئس من نفسه

وماندرى بعد برهة الاو المريض نعر ورفع رأسه على ذراعه فاندهش الحاضرون والحكيم أيضا وكنت أنا بالاخص فى غاية العجب ثم فتح عينيه وطلب طشطا واستفرغ فيه بهيئة يظهر منها ان ذلك من تأثير أدوية ابن سينا نفسه وبالاختصار حصل له الشفاء

ولكن على مقتضى فهمى ثبت بوقتها ان التغيير الحسن الذى حصل هو من تأثير البهارات التى كانت فى الورقة وآثار الحبر نتج منها الحالة التى ذكرتها واجتهدت بالاثبات للحاضرين ان تمام الشفاء حصل بواسطتى وبسبب كتابتى الشريفة التى كتبتها ولولاى لمات ومن جهة أخرى فالحكيم أورى أحقيته وانه السبب فى شفائه لانه بمجرد المريض مافتح عينيه صاح الحكيم قائلا ألم أقل لكم ذلك وان هذا تأثير أدويتى ولولا حضورى لمات العطار أمامكم

فلما سمعت كلامه أوقفته وقلت اذا كنت حكيما فلماذا لا تداوى مريضك

وتشفيه بدون ان تناديني فكن فى حالك حيث لم يكن لك دراية الا مسائل الحراقات والفصادة فلا تتعرض ثانيا فيما لا يعنيك فاجابنى الحكيم وقال أيها الدرويش المحترم لا أنكر ما أنت عليه من الجانب العظيم من كتابة التمائم وبيعها بثمن غال ولكن كل انسان يعرف من هم الدراويش ومابنوا عليه من التحيلات ولو فرضنا حصول الثمرة من أعمالهم الروحانية فلا ننسبها انها كرامة منهم فلما سمع الدرويش كلامه غضب غضبا شديدا وطار الشرار من عينيه وقال للحكيم يا ابن الكلب أتتكلم معى بعد هذا كله ألم تعلم انى كنت خادما للنبى وأما أنتم يا حكماء فجهلكم يضرب به المثل فى نسبته للقضاء والقدر وذلك اذا تصادف وشفى بواسطتكم مريض تنسبون أحقية الشفاء لكم واذا مات تقولون هذا قضاء الله وان مساعى المخلوق لا تفيد شيأ فاخرج من هنا (قم واخرج يا جاهل) ومر على المريض الثانى الذى تعوده ومتى ازداد خطره فادعنى ثانيا وأنا أتمم لك جهلك الردىء وأشفيه لك كما داويت العطار الآن فاجاب الحكيم وحياة رأسى وأنت لها الفداء انى لست من الرجال الذين يسمعون ويقبلون مثل هذه الالفاظ من درويش أقل درجة من الكلب ثم قام نحوى يريد بطشى بقوة تهديديه وهو يقذفنى بكل ما يقدر عليه من المسبات فقابلته بكل احتقار وتسابقت نحوه حتى آل الامر للكم بعضنا بعضا ومسك شعر رأسى وقبضت أنا الآخر على لحيته وصرنا نطعن بعضنا بالضرب واللكم ومازلنا كذلك نتضارب ونتصادم بحالة وحشية ونتقاتل بدون اكتراث بالمريض وصاح النساء وعلا صراخهن حتى كاد أمرنا ينتهى لاسوأ حالة لولا هجوم احدى النساء علينا قد اشتد بها الغضب وأكدت لنا ان ضباط الدروجاس (المستحفظين) يقرعون الباب ويسألون عن السبب الناشئ منه هذا الصياح والانزعاج الشديد

فعلى ذلك انفصلنا وانسريت لميل الحاضرين جهتى وأظهروا احتقارهم

وعدم اعتنائهم بمهارة الحكيم الذى غرضه الاصلى الحصول على الدراهم بدون فكره فى مداواة مرضاه أما أنا فكانوا يرون أمامهم بهيئة تقى عليه نور الهى واعتقدوا ان بمجرد كتابتى عادت قوته وشفى من جميع أمراضه

فلما رأى الحكيم ما أصابه من اللوم والتنديد سحب نفسه للخارج وهو ذليل ومكسور الخاطر ولكن قبل خروجه طأطأ على الارض وجمع جملة من شعر لحيته المتساقط الذى نتفته منها على قدر ما وجد ومن مكره جمع أيضا جزأ من شعرى مع شعره وهزه بيده فى وجهى وقال انك ستری من هو الجانى والمحقوق منا عند وقوفنا باكر أمام القاضى لان الشعرة الواحدة فى طهران تساوى دينارا وانى لمرتاب فيما اذا كانت جميع طلاسمك وتمائمك تساوى هذه القيمة أم لا

(قال الدرويش) فشفى الحكيم غليله وهبط غيظه بهذا الكلام ولربما بالنسبة لشهرته انه لايتم مشروعه التهديدى فى طلبى أمام القاضى خوفا على شرفه من انتشار هذه المسئلة انما مازال الرعب يداخلنى خوفا من توجهى للمحكمة لصعوبة هذا الامر فتركته وأنا أتأمل فى نتيجة العملية التى أجريتها مع المريض وما الفائدة التى سأكتسبها منها

فما مضى النهار حتى شاع ذكرى فى المدينة وقالوا ان العطار (وهو أول من عالجته) الذى كان يكابد شدة الموت عالجه درويش مستجد حضر هذه المدينة بعد ان يئس الناس من حياته وقد انتشر خبرى فى جميع أنحاء المدينة وأصبحت ذو أهمية كبرى عند الاهالى وكنت أكتب التعاويذ من الصباح للمساء وأبيعها للناس بحسب درجاتهم واقتدارهم حتى انه لم يمض قليل من الايام الا واستحوزت على مبلغ جسيم من الدراهم انما من سوء بختى لم أصادف عطارا مريضا ولا قطعة ورق كما سبق فى أثناء هذه الايام فلما

تحققت أن معيشتى وشهرتى متسببة عن المعجزة التى أظهرتها مع العطار وان حالتى آخذة فى التناقص استحسنت السياحة فى داخلية العجم وبوقتها قمت وتوجهت الى مدينة طهران وفيها عزمت على الاقامة دواما بعد أن رتبت أشغالى بمهارة تامة حتى أن شهرتى انتشرت فيها قبل وصولى اليها وكان العطار أعطانى شهادة رسمية بختمه ذكر فيها أنه شفى من مرضه بعد اليأس من حياته ببركة تعويذة كتبتها بيده فكنت أبرزها للكل انسان أينما أذهب بقصد تأييد حقيقة الاشاعات المنحصرة فى كراماتى وها أنا الآن عائش بهذه الشهرة التى تكسبنى الدراهم العظيمة بغاية الراحة وانى كلما أجد شهرتى أخذت فى التنازل أرحل لبلدة أخرى وهذه حكايتى

(قال الحاج بابا) فلما انتهى الدرويش الثانى من تاريخ تقدم الدرويش الثالث لسرد قصته وقال ان حكايتى مختصرة وانى كنت فى الاصل محدثا ولذا لاتحتاج للتطويل وقال ان والدى كان أستاذا فى احدى المدارس وبما رآه من التفاتى وشدة قوتى الحافظة أمرنى بمطالعة التواريخ التى ازدادت بلغتنا واعادتها عليه فلما رأى ما حازه عقلى من هذا المجموع الكافى ألبسنى حلة درويش لسرد الحكايات علنا أمام الجماهير من الناس الذين يجتمعون حولى بقدر ما تقتضيه قصصى ولكن مسعاى الابتدائى لم أنل به نجاحا تاما حيث بعد انتهاء قصصى يتركنى السامعون بدون أن يعطونى أدنى مكافأة لاتعابى فسعيت فى الحصول على المقصود شيأ فشيأ وذلك بدل عن استمرارى فى الحكاية لآخرها كما عودت نفسى سابقا فكنت عندما أقترب لحصول نكبة أو مصيبة يتشوق الانسان لسماعها أقطع الكلام وألتفت لمن حولى وأقول لهم يا سادة يا حاضرون اذا كنتم تتصدقون على بشئ أتمم لكم باقى القصة وبذلك كنت أجمع حفنة عظيمة من الدراهم النحاس اذ كان يندر جمع أقل من ذلك ولا فرض مثلا انه عند سياقى فى

تاريخ الامير خاتاى وأميرة سمرقند فعنـد وصولى لغاية هزار موت الوحش حين يقبض على الامير بفمه و يقترب على ازدراده واستقراره فى فم الوحش بين فكه الاعلى والادنى وجميع الحاضرين يقطعون الامل و ييأسون من حياته والاميرة ساجدة على ركبتيها تتضرع الى الله بنجاته وعندما يخفون اتباعه رماحهم وهم فى حالة الذل والانكسار و يرتدون بخيولهم راجعين بحالة الفزع وكذا عند ظهور الرعد الى أن أصل لغاية ماجمهم الوحش فاقطع الكلام وألتفت لمن حولى وأقول ياسادة يا كرام افتحوا أكياسكم واردفونى باحسانكم حتى تسمعوا ما أجراه الامير خاتاى من المعجزات والعجائب فى خلاصه وقطع رأس الوحش بنفسه

و بهذه الحرفة كنت أتحايل على معايشى بما أدهش به عقول الناس ولما تنتهى حكاياتى التى أحفظها كنت أنتقل لجهة أخرى وفيها أجدد أشغالى وها أنا على هذه الحالة للآن

﴿الفصل الثانى عشر﴾

﴿فى ان الحاج بابا بجد ان الغش لا يسلم الانسان من عقابه ولو فى الدنيا وفى تبصره فيما يعود عليه بالنفع من أمر مستقبله﴾

(قال الحاج بابا) فلما انتهت الدراويش من مقالاتهم شكرتهم على هذه التسلية بما قدموه لى من النصائح والتعليمات وصممت العزم فى الحال بان أتعلم منهم طريقتهم بقدر امكانى لكى اذا ما اضطرنى الحال على ترك مهنتى الحالية أسلك طريق الدروشة

وقد علمنى الدرويش صفر كافة الحيل والخدائع التى يعرفها والتى اشتغل بها واجتنى ثمارها وعلا بها على جميع العالم حتى اعتقدوا انه من كبار الاولياء العارفين ثم أخذت فى تعلم كتابة التمائم والطلاسم من الدرويش الثانى حتى

أتقنتها وتعلمت من الدرويش المحدث بعض الحكايات والخرافات التى نجح فيها وأعارنى بعض كتبه وذكر لى الطرق العمومية التى توجب اندهاش الحاضرين منها حتى يتجبروا فيبذلوا ما فى جيوبهم من الدراهم بدون ان يشعروا وذلك لما يعتريهم من الذهول عند سماعها وعلى ذلك استمريت فى بيع دخانى ولما كانت مكاسبه عائدة على الدراويس ولم أنتفع بها اضطررت الى زيادة غشه بما أضفته اليه من الذبل والقش وورق الاشجار الناشف حتى قل انبساط الزباين الآخرين منه

ثم تصادف فى مساء يوم من الايام عند الغسق واقتراب انفضاض الاسواق أتتنى عجوز طاعنة فى السن وعليها ملابس رثة فاوقفتنى وسألتنى أن أملأ لها شبكا من الدخان وكانت متبرقعة بحيث لم يظهر من وجهها شئ ولم تكلمنى بسوى ذلك

فلأت لها شبكا من أرد الدخان المغشوش فلما تناولته وتعاطت منه نفسا بصقت وكحت وما أدرى الا وصاحت صيحة مزعجة فاتى ستة من العساكر وبيد كل واحد نبلة مفتولة وقبضوا علىّ وطرحونى أرضا وقد أزالت المرأة البرقع عن وجهها فاذا به محتسب المدينة وقال لى يا أقل أهل اصبهان ها قد ضبطتك فانت الذى من زمن طويل تسم أهالى مشهد بتبغك المغشوش فلتقبض الآن زخامتتابعة بعدد ما قبضته من الشاهى (وهى نقود كل واحد منها يساوى تقريبا اثنين شلن انكليزيا) ثم قال لرجاله احضروا الفلقة ومدوه فيها واضربوه حتى تطير أظافر أصابع رجليه فما أتم كلامه الا وأدخلوا أرجلى فى العقدة ورأيت السياط تتبادل على أقدامى ولم يزالوا يضربونى ضربا مؤلما حتى غبت عن الوجود وصار الضياء فى وجهى ظلاما وتصور لى أمامى عشرة آلاف محتسب فى زى عشرة آلاف امرأة عجوز وصرت مثلة بين الناس وكلهم يضحكون من تقلبى على الجانبين و يتشفون

في وأنا أستغيث برأفة معذبي وأقسم عليه بحياة أبيه وأمه وبجده ورأسه وولده وأميره وأستغيث بالنبي عليه السلام والامام علي وبجميع الائمة وأنا ألعن التبغ وبيعه وألوذ بمن حولي من المشاورين وبالثلاثة الدراويش الواقفين بدون أن يظهروا أدنى حركة لانقاذي فما أغاثني أحد منهم واستمريت في الصياح والصراخ والبلاء حتى ذهل عقلي وفقدت حاستي ولم أشعر بألم السوط

فلما أفقت وجدت نفسي مرميا وراسي متكئة على حائط في الطريق والناس مزدحمون يتأملون لسوء حالتي ومافيهم من يشفق علي وقد سلب مني شبكاتي وكوزي وجميع ما أمتلكه وتركوني أزحف الى بيتي على قدر امكاني والحمد لله لم أمكث غير قليل وأنا أزحف على ركبتي حتى وصلت الى منزلي لقربه من تلك الجهة وأنا أصعد زفيرا يفتت الأكباد

وبعد ان أقمت يوما في المنزل أقاسي شدة الالم وأليم العذاب من تورم أقدامي وانشقاق لحمها وتجمد الدم عليها زارني أحد الدراويش واعتذر لعدم مساعدته خوفا من القبض عليه وظنهم انه شريكي فيعاملوه مثلي عند مايتشفع لي وقال انه سبق له مثل هذه الواقعة في مبدا سلوكه وانه يعرف الدواء الذي تداوى به فاحضره ودهن أقدامي وسيقاني حتى شفيت في مدة قصيرة وعدت الى حالتي الاصلية

وفي أثناء اعتكافي للمعالجة كنت أتدبر في أمري فعزمت على قيامي من مدينة مشهد لاني رأيت أني دخلتها في ساعة منحوسة حيث أول مرة انكسر ظهري وثاني مرة ضربت بالسياط وعلى ذلك جمعت ماعندي من الدراهم التي كنت أخفيتها في أحد أركان غرفتي بكل احتراس ووجدت انها تكفيني للتوجه الى طهران فعزمت على مفارقتها مع قافلة مستعدة للرحيل وقد عرضت مسئلتي هذه على الدراويش فاطبقوا عليها وزيادة على ذلك

فالدرويش صفر طلب مني أن يرافقني في السفر وقال لي السبب في ذلك هو اني أخبرت ان مشايخ مشهد لحقتهم الغيرة مني وهم يدبرون حيلة لهلاكي نظرا لازدياد تسلطي عليهم بجهلهم ولعدم قدرتي على مقاومتهم سأبحث على معيشة في جهة أخرى فاستقر رأينا على تبديل ملابسي بملابس درويش وبعد ان اشتريت قاووقا ومنطقة وجميع مايلزم استعديت للسفر بمجرد الاشارة ولما ضجرنا من الاقامة ونحن في انتظار قيام احدى القوافل اتفقنا على أن نسلك الطريق بدون رفيق وان بدراهمنا نستدل على الطريق ونزيل مابه من الخطرات الا اننا قبل القيام عزمنا ان نتفاءل من كتاب الشيخ السعدي فدعا الدرويش صفر بالدعوات اللازمة وفتح الكتاب وقرأ مامعناه (ان من المضاد للعقل اتخاذ الدواء بدون احتياط والسفر في طريق مجهول بدون مصاحبة احدى القوافل) فلما سمعنا هذه النصيحة سكن عقلنا وقلنا البتة من انتظار قافلة نقوم معها

وبينما أسأل من كل طرف عن قيام القافلة سررت بمقابلتي مع الشيخ علي قاتر المكاري وكان حضوره الى مشهد ليقاول على مشال بضاعة مع أحد التجار لنقل جلود شياه بخاري الى العاصمة وبمجرد مانظرني صاح صيحة الفرح علاقاتي وملأ لي شيشته وناولني اياها وبعد ان قصصت عليه جميع مخاطراتي من وقت افتراقنا للآن أخبرني الآخر برحلته ثم قمنا مع قافلة الى اصبهان وكانت بغاله حضرت محملا بعضها بغرائر مملوءة من الفضة وبعضها محمل بجلود الشياه ومازلنا سائرين ونحن نقاسي الخوف والفزع الشديد خشية من غارات التركمان علينا حتى وصلنا الى اصبهان سالمين فلما دخلت المدينة وجدتها مملوءة من الفزع والرعب بما لحقهم من هجوم التركمان الاخير من سرقة الخان آنفا وانهم مازالوا لحد الآن متوجسين منهم خيفة ويعتقدون ان الاشقياء هجموا على المدينة بنحو ألف نفر وان الاهالي

قاومتهم ببأس شديد وعلى ان كربلى حسن المزين (وهووالدى) جرح بيده أحد رؤسائهم جرحا بليغالم يتمكن منه الى الفرار الابمشقة شديدة فلما سمعت ذلك تكتمت هذه المخاطرة عن كل انسان وخشيت من ظهور علامات تبدو على وجهى للمكارى وعند ذكر هذه الواقعة التى حصلت كنت أصعد بخارا عظيما من الدخان ليكون ساترا بين عينه ووجهى كى لا يطلع على تلك العلامات

وقد حمل المكارى بغاله من اصبهان بالاقمشة القطن والتبغ والنحاس برسم (مدينة يزد) ولما وصلها لم تمض مدة وجيزة حتى استعدت قافلة للقيام الى مشهد فقام معها وحمل بغاله باصناف من بضائع تلك المدينة واتفق على قاتر على انه من بعد توجهنا الى مشهد يصاحبنا الى طهران بشرط اذا حصل لنا تعب من المسير فهو بكل ممنونية يأذن لى وللدرويش صفر بالركوب على بغاله

﴿الفصل الثالث عشر﴾

(فى قيام الحاج بابا من مشهد وشفائه من الجبر الذى أصابه بظهره وروايته حكاية)

(قال الحاج بابا) ولما خرجت من مدينة مشهد واعتدلت الى الطريق الموصل الى طهران قبضت على قبة ردائى وهززتها كأنى كنت فى حبس وخرجت منه وصحت فى نفسى قائلا اللهم أنزل المصائب والسخط على هذه المدينة لانه لو سمع بى الحجاج العائدون فى هذا الوقت من الحج ربما كان يتأتى لى ضرر من جهتهم ولكون الدرويش صفر كان يرى مثل رأيى طابق على جميع أفكارى وكلانا كنا نهون على أنفسنا ونتشفى بالحديث ضد سكان تلك المدينة فكنت أتشفى بالنسبة لما لحقنى من الضرب والاهانة

وأما هو فبالنسبة للاضطرارات التى كابدها من الفقهاء ثم أخذ الدرويش بيدى روحى ويقول أما من جهتك أنت لازلت شابا ويلزمك مقاساة صعوبات شديدة قبل أن تكتسب المهارة اللازمة لتدربك فى أحوال معيشتك مدة حياتك فلا تضجر ولا تشتكى من أول مصيبة ولعلها تكون سببا فى موعظتك فى المستقبل فتنجو بها مما عساه أن يحصل من المصائب ولتكون متيقظا دفعة أخرى فى استكشاف الامور مثل المحتسب الذى غاب عنك حاله لما كان متبرقعا بزى امرأة ثم قبض الدرويش على لحيته وقال اما بالنسبة لرجل مثلى فى هذا السن كابد جملة مشقات فى الدنيا يجبر على السفر ثانيا فى الجهات فانها حقيقة من المصائب العظمى

فاجبته ربما كان الاحسن بقاءك فى مشهد اذا كنت اخترتها للاقامة من بين البلاد لراحتك ولكن لو كنت مواظبا على فرائض الصلاة والوضوء لا تحدث مع المشايخ والتجأت اليهم

فقال الدرويش حقا ماقلته ولكن السبب فى ذلك هو انه لمناسبة اقتراب حلول شهر رمضان المعظم الذى فيه يراقبونى أغلب الاوقات زيادة عن خلافه ولا لى قدرة ولا رغبة للصيام لان تعاطى الدخان من الضرورى وهو عندى بمنزلة الهواء للجسم وشرب الخرقوتى اليومى فلذا استحسنت السفر مدة هذا الشهر نظرا للانهماك المسموح به للسياحين أثناء سفرهم وان كان يحتمل جواز غشهم كما سبق لى المرار بالاكل والتدخين خفية ولكن بالنسبة لرجل مشهور الآن مثلى يعيش بالتقوى والطهارة المظنونة الظاهرة بين الناس ويضيقون عليه بالمراقبة فلذلك لا أتمكن من اطلاق حريتى

(قال الحاج بابا) وبينما نحن نقطع الطريق بالحديث اذ وصلنا الى مدينة سمنان ولم يحصل لنا فى الطريق شئ يستحق الذكر الا انه من قبل أن نصلها

بيوم أو يومين ساعدت على قاترفى تحميل احدى البغال وفى حال التحميل عاد الى ألم ظهرى الاصلى فاشتد على فى الطريق حتى لم يكن لى قدرة على المسير مع القافلة فعزمت على المكث فى هذه الجهة لحين شفائى وبالاخص قد نجينا من غوائل التركمان ولم يكن أمامى صعوبات فلهذا قصدت الاستقلال بنفسى وأن لا أرتكن على المسير مع أى قافلة

اما الدرويش صفر المغرم بشرب الخمر والشهوات النفسانية التى هى عنده من أعظم شئ داخل المدينة استمر فى سياحته وأما أنا فلم أدخلها بل اتخذت مسكنا فى احد القبور الموجودة على اكام المدينة وألقيت فروتى فى احدى زواياه وأعلنت عن حضورى على حسب عادة الدراويش الرحالة ونفخت فى نفيرى وصحت صيحة عظيمة بصوت مطرب ومقبول قائلا (حق هو الله أكبر)

ثم حتمت رأيى باظهار الهيبة والتكرش على وجهى وعدم اللين حتى بذلك أكون أديت واجبات التعليمات التى تلقيتها فى فنون الغش فأنت لزيارتى النساء العديدة وكتبت لهن جملة طلاسم وتعاويذ وصرن يهدين لى نظير ذلك بالفاكهة واللبن والعسل وبعض أشياء

وقد اشتد فى هذه الاثناء ألم ظهرى حتى اننى سألت عما اذا كان يوجد أحد من أهالى سمنان يمكنه معالجتى من هذا الالم فلم أجد فيها الاحلاقا او بيطارا يدعيان معرفة مداواة أى مرض فالحلاق ماهر فى الفصادة وخلع الاسنان وتجبير العظام وأما البيطار فلمعرفته فى أمراض الحيوانات فكان فى غالب الاحيان يدعى لمعالجة الامراض البشرية ووجدت أيضا امرأة عجوزا سائلة الشعور الشائبة على ظهرها وكهيئة الساحرة قد أنهكها الكبر وكانت الاهالى تعتقد صلاحها ويصدقونها فى جميع الاحوال وان معلومات الحلاق والبيطار لم تذكر فى جانب معلوماتها اذ هى عندهم كالوحى وبخلاف

ماهى عليه من معرفة العلاجات السرية ووصف الادوية فكانت تدعى معرفة جميع أنواع الآلام

فحضر كل منهم وزارنى الواحد بعد الآخر واتفق رأيهم جميعا ان الالم الحاصل لى ناشئ من تأثير البرد وما يعرفونه فهو النار التى هى أشد قوة طاردة للبرد وعلى ذلك أجمعوا آراءهم باتفاق انه لابد من سرعة استعمال الكى فى محل الالم ولكون البيطار أغلب اشتغاله هى فى الحديد الحامى والبارد فلمعلوميته بذلك قرر رأيهم بانه يكون الجراح فى عملية الكى

فاطاع الامر وأحضر مجمرة مملوءة فحما وسفافيد صغيرة وجلس فى زاوية وأولع النار ووضع عليها السفافيد لاحمائها ولما احمرت السفافيد طرحونى على الارض على وجهى ممددا وكووا ظهرى باحتفال عظيم بالحديد المحمى وصار الواقفون كلما يوضع السفود على محل يصيحون ويتضرعون بقولهم (خدا شفا مدهد) يعنى الله يشفيه أما الذين كانوا متولين معالجتى فبدون أن يصلوا على النبى عليه السلام أو على الائمة الاثنى عشر كوونى فى ثلاثة عشر موضعا حتى انه فى منتصف العملية لما زاد بى الالم واشتد بى الحال وصرت أصرخ بقوة شديدة وأستغيث من العذاب لم يتركونى حتى انتهى الكى عن آخره

ولما استمرت الجروح تؤلمنى زمنا طويلا بدون ان تلتئم وانا قاسى شدة الالم مر بعقلى أن شفائى لا يكون الا باعتكافى أياما فى غرفتى فمكثت فيها مدة أيام طوال بدون ان أبرح منها لحظة وفى آخر هذه المدة التأم جرح نخاعى وزالت أوجاعى وعادت القوة فى جميع أعصابى فحمدت الله وشكرته على ما أولانى

(قال) وان كان المعلوم ان شفائى منسوب للثلاثة عشر كيا التى هى أصل العملية وزاد اعتقاد جميع أهل المدينة فى تأثير الحديد المحمى زيادة عما

كانوا يعتقدون ولكنى لازلت افكران أسباب شفائى ناشئة بالاكثر من راحتى زمانا طويلا وكانت هذه الطبيب الوحيد لمداواتى فتكتمت هذا الرأى فى نفسى لان الاهالى عموما كانت تعتقد بلا ريب أنى كنت محفوظا بالاولياء والاتقياء وانهم الواسطة فى شفائى

ثم عزمت على الرحيل فى الوقت الى طهران ولكن قبل قيامى تجاسرت ان أظهر نفسى فى هذه الساحة بهيئة الدرويش واجتهدت فى تجربة قريحتى لسرد حكاية فى مجمع من أهالى سمنان وعلى ذلك تمشيت الى جهة مدخل المدينة ووقفت فى ميدان متسع بقرب من الاسواق يجتمع فيه كسالى البلد وقت الظهر وصحت بالصيحات العادية لمثل ذلك فازدحم الناس حولى فى وقت يسير واحاطوا بى على شكل حلقة وجلسوا على الارض ليسمعوا روايتى المشتملة على حكاية حلاق سمعتها لما كنت فى هذه الحرفة ومن حسن حظى أنت بفكرى فى هذا الوقت ثم وقفت فى وسط حلقة هؤلاء الهمج وهم يرمقون الىّ بالاعين ويفتحون أفواههم وابتدأت بما هو آت .

(حكى) انه كان موجودا ببغداد فى زمن الخليفة هرون الرشيد حلاق اسمه على سقال ماهر مشهور فى خفة يده فى هذه الصناعة حتى قيل انه يحلق الرأس ويساوى الشارب واللحية وعيناه مقفولتان بدون أن يجرح الجلد أو تنزل نقطة دم ولم يبق رجل ببغداد بهذه الحالة الا وحلق عنده فلما تكاثرت عليه الناس ورأى ما هو عليه من الشهرة بخلاف ما استحوز عليه من الاموال العظيمة تكبر وتفطرس وكاد ان لا يحلق رأسا ما لم يكن صاحبها بيكا أو آغا

ولكون حطب الحريق غاليا ونادر الوجود فى بغداد ودكانه تحرق مبلغا وافرا منه فكانت الحطابة تجلب أحمال الحطب اليه أولا لوثوقهم ببيعه بالنقد حالا فى أغلب الاحيان وقد تصادف ذات يوم ان أحد الحطابة

المساكين مستجد فى هذه الحرفة وكان يجهل خصال على سقال فذهب بحمله الى دكانه وقدم له الحطب الذى احتطبه من مسافة بعيدة من الريف على حماره فقطع معه الحلاق الثمن وقال له ان الانفصال على جميع المحمل على الحمار فقبل الحطاب ذلك والقى الحمل من فوق حماره وطلب الثمن فاجابه الحلاق ان الاتفاق كان على جميع الحمل فيلزمنى ان آخذ غبيط حمارك الذى أغلبه من الحطب حسب اتفاقنا فقال الحطاب كيف وقد أخذه الاندهاش الكلى انى لم أسمع ولا خلا فى عمرى بسواق كهذا مطلقا ويستحيل اجابة طلبك

وبالاختصار بعد حصول مناقشات جسيمة ونزاع مهول قبض الحلاق على الغبيط والحطب وكل شئ وطرد الفلاح المسكين وهو فى غاية الضيق والكرب فتوجه لوقته الى القاضى وبث له مصائبه ولكون القاضى من زباين الحلاق فلم يصغ لدعوته فتوجه لحاكم أعلى منه وشكاله فعضد أيضا على سقال وطابق على الدعوة فالتزم بالعرض على المفتى نفسه فبعد أن أمعن وتأمل فى المسئلة انتهت أخيرا بقوله ان هذه القضية يصعب عليه جدا الحكم فيها لعدم وجود نص لها فى القرآن الشريف ولذلك أخبره باستحسان صرف النظر عن هذه القضية

فلما سمع الحطاب كلام المفتى لم يدخله الخوف بل شد عزمه وخرج مسرعا لساعته وأحضر كاتبا وكتب له عرضحالا يتظلم فيه ويبث دعواه للخليفة نفسه وأعرضه اليه فى الطريق يوم الجمعة حال ذهابه الى الجامع وكان الخليفة مشهورا بالرأفة والحلم وطول البال فى قراءة العرضحالات ولم يمر زمن طويل الا واستدعى الحطاب بالحضور أمامه فلما اقترب من الخليفة جثا على ركبتيه وقبل الارض بين يديه ثم وقف امامه واضعا يديه بالطول على جانبيه مسبولا عليهما أكامهما لاصقا قدميه بعضهما ببعض منتظرا

مايصدر به الحكم فى ظلامته

فقال له الخليفة أيها الرجل ان كلام الحلاق فى محله بالنسبة لنفسه واما أنت فبيدك الحق فى دعواك ولكن الشرع لا يحكم الا بالالفاظ وان الشروط تثبت بمجرد الكلام ولا بد من أن الشرع يجرى مجراه والا فيبطل وعلى ذلك يلزم تأييد الشروط والا فيضيع الصدق والايمان بين الرجل وأخيه وبناء على هذا كله فللحلاق الحق فى حفظ جميع الحطب ولكن سأنظر فى أمرك ثم قربه اليه وساررة فى اذنه بكلام لا يسمعه خلافه وأمره بالخروج فخرج وهو مسرور الخاطر

(قال الحاج بابا) فلما وصلت الى هنا قطعت الكلام وأخرجت وعاء من الصفيح وأمسكته بيدى ومددته وقلت الآن (أيها السادة الكرام) اذا أعطيتمونى شيأ من الاحسان فاقص عليكم ما قاله الخليفة للحطاب فهاجت الناس وتعجبت وتشوقت لسماع باقى الحكاية فصاروا يعطونى قطعا من النقود ولم يتأخر منهم الا النذر القليل فجمعت الدراهم ووضعتها فى جيبى وقلت (اسمعوا يا أسيادى)

وبعد ان سارر الخليفة الحطاب بما يجريه لحصوله على ترضيته من الحلاق فسأخبركم بما حصل له وهو ان الحطاب قبل الارض بين يديه وعاد لحماره وجره من مجره وتوجه لحال سبيله قاصدا بلده وبعد مضى بضعة أيام عاد الفلاح الى الحلاق ومعه حماره وتداول معه كأنه لم يكن فى النفس شئ مما سبق وترجاه وقال له انه حضر مع أحد أصحابه من البلد وكلاهما يرغب التمتع بما اشتهر به من مهارة يده فى هذه الصنعة فلما اتفق معه على اجرة الحلاقة اليهما حلق للحطاب ثم قال له وأين رفيقك فأجابه أنه واقف فى الخارج وسيحضر حالا امامك ثم خرج وعاد يجر الحمار خلفه وقال له الحطاب هاهو رفيقى فالبتة من ان تحلق له فصاح الحلاق وقد أخذ منه

العجب كل مأخذ وقال كيف أحلق للحمار أما يكفى بانى رضيت بان أدنى نفسى بحلقك وهل تشتمنى وتستهزئ بى بسؤالك حلاقة حمارك فخذه واذهب من هنا والا أرسلك معه الى جهنم وأسرع الحلاق بطرده مع حماره من الدكان فتوجه الحطاب فى الحال للخليفة بعد ان ربط حماره فى جهة واستأذن فى الدخول عليه فأذن له بالحضور فلما تمثل فى حضرته عرض للخليفة حكايته

فعجب الامر أمير المؤمنين ونادى لاحد قواده وأمره باحضار على سقال الحلاق ومعه عدة أمواسه فى الحال فما مر عشرة دقائق حتى احضروا الحلاق وأوقفوه امامه

فقال له أمير المؤمنين لماذا لا تحلق لرفيق هذا الرجل حسب الشروط التى بينكما فقبل الارض بين يديه وقال حقا يا أمير المؤمنين قد اشترطنا ذلك ولكن من يدعى فى المدة السابقة بمرافقة الحمار أو من اتخذ من المتقدمين الحمار صديقا فاجابه الخليفة قد صدقت فى المقال ولكن هل يظن ان الانسان يصمم رأيه بأخذ غبيط الحمار لاحتوائها على الحطب ضمن حمله فارجع عما أنت عليه الآن فالحق بيد الحطاب ولا بد أن تحلق للحمار والا فسترى ما يأتيك من المضار

فاجبر الحلاق رغم أنفه بطاعة أمر الخليفة وأخذ يجهز الصابون لتلييف وغسيل الحمار من رأسه لاقدامه ليحلق له امام الخليفة وجميع معيته وكان الحاضرون يزدرون به ويتمسخرون عليه بالضحك ومعايرته على حلق الحمار وبعد ان انتهى الحلاق أمر الخليفة بانصراف الحطاب مع حماره بعد ان أحسن عليه بمبلغ معلوم من الدراهم وصارت أهل بغداد تتحدث بهذه الحكاية على ممر الدهور وتترنم بما كان من عدل أمير المؤمنين

﴿الفصل الرابع عشر﴾

﴿فى الكلام على الرجل الذى يقابله الحاج بابا فى الطريق ونتيجة الملاقاة﴾

(قال الحاج بابا) ثم اننى قمت من سمنان مشروح القلب والصدر بارئا من السقام وآلام الظهر وكنت وقتئذ شابا جميل المنظر وكان باقيا فى كيسى عشرون تومانا من الذهب وذلك مقدار ماتوفر عندى فى مدينة مشهد لما اقتصدت فى المصروف كما علمتنى تجارب الزمان وعزمت على اننى فى حال وصولى طهران أخلع سجة الدراويش عنى وألبس لباسا نظيفا من الرأس للقدم واجتهد بواسطة بذل أموالى فى الحصول على درجة احسن مما كنت فيها للتعيش منها ولكن قبل ان أصل الى طهران بمسافة يوم تقريبا وأنا سائر فى الطريق أترنم وأغنى بقدر ما يمكنى من علو صوتى بابيات غزلية عن ليلى والمجنون اذ فاجئنى رسول وأتى نحوى وبعد ان تحدث معى قليلا عزم على بان آكل معه من بعض مأكولات استحضرها صحبته ولكون حرارة الشمس تسلطت بقوة على جسمى فلراحتى قبلت عزومته بكل ممنونية وجلسنا بجانب نهر صغير بجوار غيط مزدرع بالحبوب وأخرج الرسول اللجام من فم حصانه وأشار اليه بالاكل من الغلال المغروسة ثم أخرج من جيب خرجه منديلا كبيرا ملفوفا به جملة قطع من الارز المفلفل البارد وثلاثة أو أربعة لفات من الخبز ونشره أمامنا وسكب أيضا من كيس كان معلقا على قصعة سرجه فى وعاء جزأ من اللبن الرائب وأخرج من عين الخرج الموضوع فيها نعاله ومؤنة التبغ وكأسا للشرب ستة بصلات ناشفة وأضافها على المائدة وأكلنا بكل اشتهاء ولذة حتى انتهى الطعام من قدامنا بغاية السرعة فصرنا نلعق أصابعنا نفكها آسفين على انتهائه

ثم

ثم قمنا وغسلنا الاوعية من النهر ومكث كل منا يتفكر فى سؤال رفيقه عن موضوع سفريته المنوط بها وكان رأى من هيئة ملبوسى أنى درويش فقصصت عليه حكايتى أولا وأما هو فاخبرانه من ضمن نجاب محافظ مدينة استراباد ولزيادة سرورى وتعجبى كان حاملا الخبر السار باطلاق سبيل صاحبى الاول الشيخ عسكر شاعر الشاه من أسر التركمان ولكنى لم أظهر للرسول معلوميتى وفرحى بهذه الرسالة لان التجارب علمتنى ان من الحكمة التمسك بنصيحة الغير فى الاحوال المختصة بالمعيشة ولذلك تجاهلت هذه المسئلة وتنكرت معرفتى بوجود مثل هذا الرجل وقد أخبرنى هذا الرفيق انه اجتهد فى مجيئه الى استراباد بكل أمان الا أنه لم يملك أدنى شئ وان المحافظ أرسله بهذه الرسالة ليبشر عائلته بسلامته ويخبرهم بمستقره وأخرج الجوابات الموكل بها من صدره ملفوفة فى محرمة ليريها لى ولكونه شابا يميل للوقوف والاستقصاء على كل أمر وان كان لا يدرى القراءة فانسر لملاقاته مع رجل ذى دراية فى الكتابة والقراءة يوقفه على مكنونات الجوابات فاخذت الجواب الاول وفحصته فوجدته تفكرة من الشاعر الى ملك الملوك مكتوبا باعظم وأتقن الالفاظ الشعرية يذكر فيه ما أصابه من النوائب وأنواع العذاب التى قاساها من ابتداء ما وقع فى ايدى التركمان وقال من ضمنه ان الجوع والظمأ وما كابده من المعاملة الوحشية وشدة العناء لا تساوى ذرة ولا تذكر بجانب حرمانى من تشريفى بجامعة الكرم والجود والحضرة المتلألئة والجوهرة الملوكية درة البهاء والافتخار وخلاصة فضل الانام ملك الملوك الاعظم وبما أن أردأ حيوان يدب مسموح له بالتمتع بحرارة الشمس الجليلة فبالمثل هو من أدنى وأقل رعايا الملك يلتمس ولو مرة بالتشمس فى شعاع شمس جنابه الملوكى

ثم انتهى باظهار الخضوع والعبودية ملتمسا من الملك انه يؤمل بان غيابه

هذه المدة لا يحرمه من تشريفه بظل أمريته وانه متلهف لعودته ثانيا لوظيفته السابقة فى خدمة جلالته وقد ضمن هذا الجواب الكاتب الفاضل والاديب الكامل بقوله

حث المطى الى ذرا شمس العلا * ملك الملوك الاوحد بن الاوحد
أو ما ترى الوزراء فى ايوانه * ضاءت وجوها مثل ضوء الفرقد
ملك اذا عممت ساحة فضله * لغدوت فى ريعان عيش أرغد
أقسمت ما كابدته فى الاسر من * سغب ومن ظما وخطب أنكد
ما كان يبلغ عشر ما قاسيت من * ألم الفراق عن المليك الامجد
تاج الفخار ودرة الملك التى * تعلو النجوم بضوئها المتوقد
من لى بان أحظى بايسر لفتة * منه فاظفر بالرجاء الاسعد
انى على ثقة باحسانانه * وأجلها فى النفس تقبيل اليد
ما صافحت شفة امرئ الا غدى * شرفا تصافحه عين السودد
فعسى المليك يعيدنى لوظيفتى * كرما فالحق فى عداد الاعبد

أما الجواب الثانى فكان بعنوان الصدر الاعظم ووصف هذا الوزير المشهور الهرم سيئ السلوك المشهود له بالوقاحة وعدم الانسانية بانه كوكب سيار ذو ذنب بين النجوم وجعله أيضا الملجأ المعول عليه والذى يرتكن اليه فى المملكة ثم عرض له الشاعر حكايته وطلب منه الدخول تحت لوائه وحمايته ليتوسط له عند الملك فى بقاء وظيفته

ثم وجدت جوابا بهذا المضمون تقريبا باسم عدوه القديم وهو الخزندار الاعظم وبحثت فى الجوابات التى برسم عائلته فوجدت خطابا باسم زوجته وآخر باسم خوجة ابنه وجوابا ثالثا برسم وكيل دائرته

أما جواب زوجته فيتكلم فيه عن الترتيبات الداخلية التى فى الاندرون وأراها انه يؤمل منها تدبيرها فى الاكل واللبس وتحفظها على الجوارى

بغاية

بغاية الاعتناء وأمرها أن تتهيأ مع جواريها فى تفصيل ملبوسات اليه لتجرده من جميع الادوات والملبوسات

وأما جواب الخوجة فاوصاه بان يدير التفاته الكلى نحو أحوال وسلوك ابنه وتعشم بحسن تربيته وتعليمه فنون الادب والانغام والتحية وانه لا يترك فروض الصلاة ولعله فى هذا الوقت وصل الى الدرجة التى يمكنه فيها أن يركب حصانا واستعد فى فنون ضرب الحراب وطلق البندقية مصيبا وهو على آخر سرع من الرماحة

وأما جواب وكيله فذكر له تعليمات عمومية مختصة بمصالح أشغاله وأوصاه بالوفر والتدبير وان يتوجه يوميا للصدر الاعظم ويمدحه مدحا زائدا حتى يعليه للسموات السبع ويسعى بكل همة ونشاط لازدياد ثروته وسعادته وأن يلقى باله ويحفظ بكل دقة على نسائه وعبيده ويمنع زوجته عن الاكثار من التوجه الى الحمام واذا خرجت مع جواريها للنزهة وشم الهواء فلا يتركهن بمفردهن بل يصاحبهن لحين عودتهن من الفسحة

ثم قال له انه يؤمل من حسن التفاته منع النساء المؤامرات الحاملات جراب الحيلة خصوصا اليهود من دخولهن داخل باب حرمه وان تكون الحيطان والاسوار المحيطة بمساكن حرمه حصينة ومتينة وغاية فى الانتظام لكى يمتنعن عن الزحف الى الجيران من سطح المنزل وأمره أيضا بانه لا يسمح الى عبده جوهر الاسود من الآن بالدخول الى الاندرون وانه اذا تبالغ اتحاده مع بعض الجوارى أو مسامرته معهن فيجرى ضربه وضربهن بالكرباج ثم أمره أخيرا باعطاء حامل هذه الرسائل مكافأة عظيمة جزاء حمله هذه البشرى السارة لعائلته

(قال الحاج بابا) وبعد ان قرأت هذه الجوابات ووقفت على ما فيها من المشتملات لففتها كما كانت ووضعت ما كان مختوما عليه فى ملفه المختوم ثم

ناولتها للرسول الذى تعشم انه سينال مبلغا وافرا مكافأة له نظير حمله أول بشرى مؤذنة بسلامة الشاعر وأخبرنى انه لخوفه من ان يسبقه أحد فكان يسير ليلا ونهارا وقال ان الحصان الذى يركبه الآن ملك لاحد الفلاحين اغتصبه منه أثناء الطريق وترك له حصانه بدلا عنه لضعفه وان الفلاح متتبعه بخلاص حصانه

فبعد ان فرغ الرسول من حديثه غلب عليه التعب بقوة شديدة حتى أخذه النوم واستغرق فيه كل الاستغراق وبمجرد اضطجاعه على الحشيش مكثت أنظر اليه وابتدأت أن أتأمل وأتبصر فى أسهل طريقة للتزود برسالته وهو فى غريق غفلته

ولكونى فى نفس الامر خبيرا بواقعة الشاعر وغير ذلك قد أضاء فكرى بزيادة تحقيقها بهذه الادلة والبراهين فلهذا خوات لى الحق بان أكون أول مبشر بهذه الرسالة وأما الحصان فكما انه يخصه فكذلك يخصنى زيادة عنه لانه لا يملكه سيما وسأكون أول رسول بما ان الفلاح متتبعه الآن بحصانه الاصلى وعلى ذلك فتحت منديل الجوابات الذى مازال فى حضنه وأخذت منه جواب وكيل الشاعر وعلوت الحصان وغمزته فى جانبيه بالمهموز فرمح بى وكاد ان يسبق الهواء حتى انى فى برهة يسيرة قطعت مسافة طويلة تارك النائم خلفى واجتهدت فى السير بنجاح عظيم قاصد طهران

وبمجرد ما امتطيت الحصان تأملت فى أسهل طريق أسلكه وتدبرت فى أحسن طريقة أتوسط بها الاتصالى بعائلة الشاعر وأثبت فى عقلهم هذا الخبر لكى يصدقونى وأتحصل بذلك على المكافأة التى كانت من نصيب الرسول قبل وصوله لانى حسبت انى أسبقه على الاقل بمسافة يوم بما انه بعد تيقظه من النوم يلزمه السير على قدميه مسافة حتى يتيسر له الحصول على حصان آخر ان لم يتحصل على حصانه الاصلى الذى كان على شك عظيم

من حضوره اليه ولو فرض ومشى على قدميه فيلزمه مدة أيام وقل أن يصدقه واحد فى المائة لانه يحتمل ان لا يعيره أحد بهمار كوبه عليه هذه المسافة

أما أنا فقصدت بحال وصولى مدينة طهران أبيع الحصان وعدته جميعها على قدر ما يساوى فى المزاد ثم اغير ملابس الدراويش بملبوسات أهل الريف العادية وأرهدل نفسى على هيئة انسان حضر من سفر بعيد وأتوجه لمنزل الشاعر وأقف على الباب وهناك أقص الحكاية باحسن ما يمكنى بعذوبة الالفاظ وطريقة سهلة الفهم وابين لهم معرفتى جيدا ووقوفى على جميع أحواله المختصة به التى بها يصدقونى

﴿الفصل الخامس عشر﴾

﴿فى وصول الحاج بابا مدينة طهران وتوجهه الى منزل الشاعر﴾

فدخلت مدينة طهران عند شروق الشمس من بوابة الشاه عبد العظيم وقت فتحها وفى الحال عرضت حصانى للبيع فى السوق المنصوب يوميا لهذا القصد بعد ان برهنت على جودته وشدة سرعته فى المسير من جنس الرماحة التى حضرت بها من وقت تركى للرسول ولكن اخبرنى دلال الخيل بعد ان كشف عليه جليا انه مملوء من العيوب الكثيرة وبذلك قلت فى ضميرى أكون سعيدا لو أتحصل على أى قيمة يباع بها

وكان محجلا من أحد ساقيه وذا اشارة بيضاء على انفه وكلاهما مكروه ومبخوس القيمة عند الاعاجم سيما وكان طاعنا فى السن أسود الاسنان وقد ظهر بالاختصار ان كل صفة موصوف بها لا يلزم وجودها فى الخيل ولذا دهشت عند تقديمه لى خمسة طومان قيمة ثمنه بشرط ان أترك اللجام

والسرج ضمن المسواق وقد أخذه العجب أيضا لا طاعتى له من أول كلمة
وقبول ماقدمه فدفع لى نصف القيمة نقدا واعطانى حمارا أهلكه الجوع
قيمة النصف الباقى فرفضت هذا الطلب فوعدنى بدفعه نقدا عند المقابلة
ثانيا وبما انى كنت فى غاية من العجلة الزائدة التى لا تبيح لى استمرار
المسواق ذهبت عاجلا الى السوق واشتريت قاووقا اسود وخلعت طرطور
الدروشة ولبسته فلما هيئت نفسى بهيئة رجل مسافر آت من بلدان بعيدة
اعتدلت لطريق المؤدى لمنزل الشاعر حيث وجدته كائنا فى مربع بهيج
داخل المدينة وحوله البساتين المملوءة من أشجار الفاكهة وعلى شارع
ممتد بجانبه خليج محاط باشجار الشينار من الجهتين الا انه حقيقة يرى على
المنزل دلائل الحزن وتحدثه بغيبو بة سيده ولسان حاله يقول

أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا * أخنى عليها الذى أخنى على لبد

وكانت بوابته نصفها مفتوحا ولا دبيب يدب حوله ولا صوت آدمى فى حوشه
فلما دخلت وسطه لم أر فيه أحدا حتى وقفت بعد التأمل الزائد على قرائن
اتضح منها وجود رجل يسكنه فضعف عزمى وقلت ان ذلك اشارة لعدم
حصولى على مكافأة موعود بها

فاتجهت أخيرا المحل عال كائنا فوق البوابة فوجدت فيه رجلا يبلغ من السن
خمسين سنة تقريبا جالسا على بساط يشرب فى شيشته فتحققت من هيئته
بانه هو نفس الرجل الذى أبحث عنه أى الوكيل فصحت فى الحال بشرى
بشرى الخان آت فقال (يكى شاه) الشاه الجديد ماذا تعنى أى خان وأين
ومتى فلما بثثت له حالتى وقدمت له رسالتى التى باسمه ففضها وقرأها وبوقوفه
على ما احتوته وجدته ارتبك فى أمره وذهل عقله وامتزج بالفرح والحزن
مماداهاه وقال لى المحقق أنت بحياة الخان فاجبته انى فى غاية التحقيق من
ذلك وسيأتيك رسول فى مساء الغد يحدثك بجملة أخبار و يطمئنك زيادة

عن سلامته حاملا خطابات للملك والوزراء وغيرهم فلما سمع كلامى وتحقق
صدق مقالى صاح صياحات متقطعة وتأوهات متنوعة حتى كاد يلحقه
الجنون ويخاطب نفسه ويقول

ياللعجب من هذا الشغل الغريب الذى ما كان يظن حصوله بفكر اللبيب
وانها الداهية دهماء أوجبت لنا العار واسقطت على رؤسنا الغبار وسودت
منا الوجوه وتعقبتنا بكل مكروه فأين نذهب وماذا نفعل

فلما فرغ من لهجته وفاق نوعا من سكرته اجتهدت فى تعقبه بان أسأله عن
ايضاحات ما أبداه من الصيحات المزعجة المتسببة من هذه المسئلة ويخبرنى
عن سبب غضبه ودواعى كربته الظاهرة مع انه كان الواجب فى مثل هذه
المسئلة اظهار الفرح والسرور فقع هذا كله ما كنت اسمع منه الا قوله
لابد وانه توفى كل انسان يقول انه توفى وأن زوجته رأت مناما أنها فقدت
ضرسها الكبير الذى كان يؤلمها ويستدل من تفسيره انه توفى وبخلاف
ذلك فان الملك قرر رأيه على ذلك فحاشاه أن يكون حيا ولا يتأتى انه على قيد
الحياة

فقلت أيها الوكيل لو سلمنا انه مات فلنفرض انه من أهل الكرامة والناس
الصالحين وقد حضر ثانيا الى مدينة استراباد من ستة أيام وانه سيثبت حالا
ذلك بشخصه باظهار نفسه فى طهران اثناء الاسبوع الآتى

وبعد ان مكث الناظر يتفكر ويتعجب هنيهة لهذا الامر قال لى لا تندهش
من حيرتى مالم أخبرك عما حدث هنا من النوادر التى أعقبت خبر وفاة
سيدى وهو ان أول أمر لما تحقق وفاة سيدى حجز الملك على جميع أمتعته
وأمابيته ومافيه من الفروشات والخدم ومن ضمنهم الجوارى الجرجانية
فأنعم بها على خورعلى ميرزا وهو أصغر أولاد الملك وأما بلده ومافيها من
الاطيان الزراعية فامتلكها الوزير الاول وأما وظيفته فعما قريب يتعين

فيها ميراز فضول والذى هو أعظم من هذا وذاك هو أن زوجته تزوجت بخوجة ابنه فأخبرنى الآن بعد ذلك كله أيحق لى أن أندهش أم لا

فلما سمعت كلامه وافقته على أحقيته بما وقع منه الا اننى سألته بوقتها عما يكون نحو مكافاتى فأجابنى الناظر قائلا (آه) أما من هذا الخصوص فلا تنتظر منى شيأ لانك لم تأتنى بأخبار سارة ولك ان تطلبها من سيدى عند حضوره اذا رغبت وأما أنا فلا أعطيك شيأ

فلما كررت عليه اوعدنى بالحضور فى أحد الايام وعلى ذلك تركته غريقا فى تأملاته الخصوصية وخرجت من المنزل لحال سبيلى

الفصل السادس عشر

(فى تخيل الحاج بابا على طرائق لمستقبله ووقوعه فى مشاجره)

ثم اننى عزمت على انتظار وصول الشاعر وان اجتهد بواسطته للحصول على وظيفة أستخدم فيها حتى أتكسب مؤنتى بكل شرف وأترقب أى فرصة تكون سببا فى ازدياد معيشتى وان لا أستعمل مسائل الحيل والغش التى تعودت عليها لما أصابنى من النصب لمراعاة الوضيع والقبيح لاننى شاهدت جملة أمثال امامى من الرجال الذين اجتهدوا فى رفع درجاتهم فى الدنيا يعلقون آمالهم بطلب المال والشرف وان منهم من كان مجهول الاصل مثلى وبوقتها اشتغل فكرى بشؤون الترقى حتى انه قر بعقلى حالة سلوكى عندما أبلغ درجة وزير أول

ثم خاطبت نفسى وقلت ومن هو ومن يكون اسمعيل بك تللى أكبر محبوب وجليس للشاه أليس هو الافراشا وانه ليس أجمل منى ولا متكلما عنى ولو كان هنالك فرصة يمكننى فيها مضاهاة فروسيتنا فى ركوب الخيل فعلى ظنى

ان الرجل الذى تربى بين التركمان يريه حركات الركوب وكيف تكون حالتها بما هو عليه من الشهرة العظيمة

وكذلك من هو الخزندار الاعظم الذى يملأ خزائن الملك بأنواع الذهب ومن ذا الذى يجهل أصله ونسبه وحرفته فى صغره ما هو الا ابن خضرى وابن الخضرى والمزين حالة واحدة بالنسبة لاحوالنا الشخصية بل أنا أحسن منه لمعرفتى بالقراءة والكتابة وأما سعادته كما ينقل عنه لا يدرى شيأ من ذلك ويأكل ما يشتهى ويلبس كل يوم رداء جديدا وهو الشخص الثانى بعد الشاه يتلذذ بجميع محاسن العجم ومع كل هذا وهذا أسمع جميع الناس تتحدث بجهله وعدم معرفته شيأ وانهم يعتقدون انه لا يزيد عن (خورى تشديد) حمار كثير النهيق

ومازلت أتلبس بجلباب التخيلات وأجول فى بحار التصورات وأنا متكئ بظهرى على حائط أحد الشوارع المزدحمة الذى يؤدى الى بوابة السراية الملوكية وأشغلت الافكار فى أسباب عظم مستقبلى حتى اذا استفززت للقيام وأردت المشى هجمت فى الزحام وفرقت الجموع بقوة ليخلوا الى الطريق وكنت أتخيل فى نفسى ان هذا أمر يجب عليهم اجراؤه فالبعض نظر لى شذرا والبعض هجانى والبعض ظن أننى مجنون

وحقيقة لما عادلى عقلى وتأملت فى ملابسى الرثة ورأيت ان هيئتى كهيئة السائلين للصدقة لم أملك نفسى من شدة التبسم على تعجبهم وذهولى فذهبت قاصدا سوق الملبوسات عازما على شراء رداء مناسب ليكون ذلك أول خطوة نحو تغيير هيئتى لمعيشة أخرى

وبينما أنا سائر فى الزحام صادفت فى طريق مشاجرة عنيفة بين ثلاثة رجال يسبون بعضهم بالفاظ قبيحة خارقة للعادة فولجت داخل الحلقة المحيطة بهم للفرجة عليهم فلفضيحتى رأيت الرسول الذى غششته وخنته مع الفلاح

يتهجمان على دلال الخيل ووجدتهما متهكمًا من اغتصاب الحصان الذى بعته له والفلاح يقول هذا حصانى والساعى يقول هذا سرجى ودلال الخيل يصيح و يقول الحصان والسرج تعلق فلما علمت بوقتها ان هذه المسئلة تمسنى وانى قريب من الوقوع فى الخطر وأردت الانسلال من هذه الورطة لحنى الدلال وما أدرى الا وقبض على منطقتى وقال هاهو الرجل الذى اشتريت منه الحصان

و بمجرد ما عرفنى الرسول فى الحال انقلبت شدة هياج المشاجرة علىّ مثل الصاعقة حتى كادت رأسى تشق وعادت علىّ حدتها وصعوبتها بالمسبات وما كان يقعقع بآذانى الا بكونهم يلقبونى قائلين يا ابن الزنا يا ابن الحرام يا حرامى يا غشاش بدون ان تاخذهم فى ذلك شفقة فكان الواحد يصيح قائلا أين حصانى والآخر يصرخ بقوله اعطنى سرجى والثالث يزئر و يصيح قائلا ردلى دراهمى والحلقة تقول ارفعوه للقاضى فتحيرت عند ذلك وصرت أردد نظرى فى الوجود لطلب العفو فلم أجد لنجاتى مخلصا ولا لقوس الرجا منزعا وكنت تارة أصيح وأقسم لهم بانى لا أعرفهم و تارة أدافع بقوة عن نفسى وأخرى أتملق اليهم وأريهم اللين والرقة للمسالمة والمصالحة واستمريت على هذا المنوال مدة عشرة دقائق فى أول الامر ولم أسمع أحدا الا و يبدى حزنه وأسفه على هذه الحالة فان غضب الرسول كان شديدا ولم يهدأ له خاطر اما الفلاح فكان يبث شكواه مما نزل به من الظلم وعدم الانصاف واما الدلال فكان يدعونى بكل لقب ذميم لسلبى دراهمه فمن تحيرى صرت أتحدث مع الاول وأتملق للثانى وألاطفه وأعنف الثالث وأتوعده فكنت أقول للرسول ما هذا الغضب العظيم ان كان لسرجك فها هو سليم ولم يمسه ضرر ولا حاجة لك غير ذلك وأصيح على الفلاح قائلا اقصر لسانك لانك لو وجدت حصانك بالفعل قتيلا لكان لك الحق فى الكلام فخذه واذهب لحال سبيلك

واشكر الله على وجوده سليما واما الدلال فكنت أسبه واعزره وأشتمه بقدر ما يمكننى بحالة حدة رجل فار بشدة الغضب على حصول غش فى أمتعته وخاطبته قائلا مستهزئا

حقيقة لك الحق فى التكلم بهذه الالفاظ لما حصل لك من الغش مع كونك تعلم لهذه الدقيقة انك لم تدفع لى الا نصف ثمن الحصان وانك كنت تريد ان تخدعنى وتغشنى بحمار مقطوع النفس لا يساوى شيئا قيمة النصف الآخر ثم انى أردت استرداد الدراهم اليه ولكنه أبى ذلك مالم أدفع له قيمة أجرة حفظ الحصان فنشا من ذلك مشاجرة أخرى فاقت الادلة والبراهين من كل طرف فلم يقتنع أحدهم و بناء على ذلك اتفقنا فى الحال على التوجه الى (الدروجا) أحد ضباط المستحفظين و نبث دعوانا امامه فيحكم بيننا و يقطع نزاع المشكل فتوجهنا اليه فوجدناه فى مستقره الكائن فى السوق بين أربعة مفارق وحوله المستحفظون ممسكون شماريخ طوالا مستجهزة للضرب على أول واحد مذنب فتمثلت امامه وقصصت عليه جميع المسئلة ومحتوياتها وكررت مع غاية التوضيح بكل نشاط ما أبداه الدلال من الغش الظاهر للعيان فعند ذلك أجابنى الدلال وأرانى ان مادام الحصان لم يكن ملكا له بل مسروقا من شخص آخر فلا يكون لصاحبه الاصلى الحق فى دفع قيمة حراسته وألزمنى بالاجرة

فلما أعيت هذه القضية الضابط للفصل فيها الاختلاف أقوالنا وعدم مصادقتنا وكان على قرب لاحالتها على ديوان القاضى فاعترضه شيخ هرم كان ملحقا بجانبنا وقال ما هذه الاهمية والصعوبات التى تظهرونها فى حل مسئلة سهلة فعند ما يدفع الدلال نصف الثمن الباقى فالحاجى حينئذ يدفع أجرة حراسة الحصان المدة التى كان موجودا تحت يد الدلال وبذلك ينتهى الامر فصاح كل من الحضور وقال للشيخ (بارك الله بارك الله) وجميعهم تعجبوا من

عدل الشيخ واستحسنوا حكمه سواء كان حقا أو باطلا وعلى ذلك فض الضابط الجلسة وأمرنا نذهب بسلام

فمن وقتها لم أتأخر لحظة فى استرداد نصف ثمن الحصان للدلال وتحصلت منه على سند باستلامه جميع المبلغ وذلك بعد ان مكث يتأمل فى كيفية هذا الحكم المبنى على غير وجه حق وظهرت حيرته وارتباكه فى السبب الموجب بالزامه بدفع أجرة حراسة الحصان مادام ليس ملكاله سواء كان دفع لى نصف الثمن أو الثمن بتمامه وتحقق غشه فى قبول هذا الحكم ومن حسن بختى حول غضبه عنى وصار يلوم الضابط وينسبه للخمول وقال ان الانسان الذى لم يكن له معرفة ويتداخل فى مسائل الشرع فبالمثل لم يكن له حق فى دعواه بالعفة والشرف

((الفصل السابع عشر))

((الحاج بابا يلبس رداء جديدا ويتوجه الحمام ويظهر فى كسم جديد))

(قال الحاج بابا) فشكرت الله الآن لخلاصى من هذه المسئلة المذكورة التى جلبتها بنفسى على رأسى وهنيت نفسى على نجاتى بدفع مبلغ يسير ثم عمدت ثانيا الى سوق الملبوسات وتوجهت الى أول دكان فى أول البوابة وسألت عن ثمن الجوخ الاحمر لتفصيله بارونى (برنسا) مؤملا انه ينقل الى الاعتبار والهيئة التى أراها على الذين يرتدون به فلما نظر التاجر الى ملبسى وهيئتى قال لى محتقرا أتريد حقيقة اعمال بارونى فلمن تشتريه ومن ذا الذى يدفع ثمنه فاجبته تحقق انى اشتريه لنفسى وللبسى

فقال وما الداعى لرجل حقير فقير يريد لبس هذا البرنس فلا يلبسه الا الحائزون لقب مرزا والناس ذووا الوقار والاعتبار وأنا على يقين انك

لست من أحد الفريقين ولا ذا هيئة بل من أقل الناس قدرا واحتقارا فلما أردت الرد عليه بغضب شديد مر بجانبى دلال حامل ملابس مستعملة من كل نوع ينادى عليها للمبيع ففى الحال دعوته وتركت التاجر ومجادلته فلما نظرنى بهذه الحالة نادانى مرارا فلم أجبه بل تركته يتندم على سرعة طردى بهذه الكيفية بدون وجه حق وأخذت الدلال وتأخرنا المحل جهة باب مجاور الجامع وهنالك انزل الدلال حمله ونشر بضاعته امامى فرأيت فيها عنترى من الحرير مزينا من الامام بشريط من القصب الذهبى وبالمثل زرائره فقبضت عليه وسألت عن ثمنه فابتدأ الدلال يبالغ ويمدح فى حسنه ويستحسن ذوقى له لانتخابى اياه واقسم لى انه ملك لاحدى جوارى الملك الجرجانية المحبوبة عنده ولم تلبسه الامرتين فقط

ولما رآنى أجربه على نفسى ومقاسى صار يدور حولى ويتأمل لى وهو يصيح قائلا (ماشاء الله ماشاء الله) انه عظيم الكسم وحسن المنظر عليك فاستحسنت أخذه لانبساطى منه ومالت نفسى لمشترى طيلسان انتفع به يكون موافقا للعنترى فاخرج طيلسانا كشميريا قديما مملوأ من الخروق والرفى وأكد لى انه تعلق احدى السيدات الموجودات فى حريم الملك وقال انه يبيعه لى بثمن مناسب دون القيمة فغرورى أدانى الى أن أفضل هذا الطيلسان على الشال الكرمانى الذى اذا كنت أشتريه ربما أدفع فيه قيمة ما أشترى هذا الكشمير القديم المستعمل ثم صلحته وطويته وأخفيت مافيه من العيوب وتمنطقت به على العنترى ووجدت انه لا يحتاج شيأ سوى مدية تغرس فيه وبذا تتم هيئة الملبوس فناولنى الدلال مدية ورشقتها فى منطقتى وانبسطت من الدلال لما وجدت نفسى مشحونا بهذه الملبوسات حتى اننى لم يمكنى مقاومة اظهار انبساطى ورضائى للدلال وهو بالمثل كان يتأخر للخلف ويتأمل لى ويؤكد انه لا يوجد فى مدينة طهران رجل أجمل وأحسن

منى فى اللبس والمكسم

وبعد ان انتهينا من ذلك وعدنا لقطع الثمن وجدت المسئلة فى دور جديد وتغيرت لدرجة عالية وذلك ان الدلال ابتدر يؤكد لى عن عفته وشرفه وانه ليس مثل الدلالين الآخرين الذين يطلبون مائة ويرسى طلبهم على خمسين وقال انه اذا تلفظ بكلمة يلزمنى ان اعتمد عليها واجعلها عين الحقيقة وبعد ذلك طلب منى خمسة تومان ثمن العنترى وخمسة عشر فى الشال واربعة فى المدية والجميع اربعة وعشرون تومانا

فلما سمعت هذا الثمن الغالى منه هبط سرورى لانه لم يكن عندى الا عشرون تومانا فى جيبى فأردت خلعها واعادة ملابسى القديمة كما كانت فاوقفنى الدلال وقال أتظن ان هذه قيمة زائدة فاقسم لك برأسى وحياتك انى اشتريتهم بهذا الثمن ولكن اخبرنى عن القيمة التى تريد دفعها فاجبته ان هذا الثمن الغالى لم يخطر ببالى وما اتى بفكرى ذلك ولكن لو سمحت لى بخمسة تومان فى جميعهم فلا باس من مشتراهم

فابى الثمن محتقرا وعلى ذلك قلعت ملابسه ورددت اليه امتعته فلما جمعها وحملها ورأى ان الانفصال انتهى تقريبا قال انى أراك صديقا لى وأود معاملتك مثل أخى خذها بعشرة تومان فرفضت طلبه ثانيا ووقفنا نجادل بعضنا حتى اتفقت معه بان أدفع له ستة تومان وتومانا واحدا على سبيل الهدية اليه فلما تممت حديثى الا وسمح بالثمن فدفعت له الدراهم وربطت مسواقى وحملته وعزمت بالذهاب أول كل شئ الى الحمام وهناك ألبس ردائى وأنظم نفسى وفى أثناء طريقى اشتريت زوج نعال بكعب عال وقميص ديباج أزرق وسروالين خز قرمزى وربطت الجميع مع بعض فى منديلى وتوجهت سريعا الى الحمام

فدخلته بدون أن يشعر بى أحد لان رجلا مثلى رث الهيئة لا يحدث نحوه

أدنى التفات ولا احساس لجهته فسليت نفسى بالتامل فى تغيير حالتى حالما ارتدى بملابسى الجديدة فوضعت حقيبتى فى احدى زواياه عند رجل وفيها أيضا خلعت ملابسى ولففت جسمى بفوطة ودخلت الحمام حيث داخله لا يعرف فيه الغنى من الفقير بل الكل بمنزلة واحدة فى الشكل وصرت الآن اتملق لنفسى وأقول ان كسمى اللطيف وصدرى العريض والعنترى الضيق المسبول يجعلانى عرضة للغرور والكبر والعجب بنفسى

ثم اننى دعوت للمكيساتى وامرته بان يجرى ما يلزم لى من عملية التدليك والتكييس المختلف بيده فوق جسمى ويستعمل فى المحلات الخشنة الكيس الشعر وأمرته أيضا بحلاقة رأسى وتجهيز الادوات اللازمة لصبغ لحيتى وشواربى وضفائرى وبالمثل يدى وباطن أرجلى وليجهز أيضا آلة النتف لازالة ما عندى من الشعر الداخلى وبالاختصار أعلنت ما فى عزمى من تحملى مشاق التطهير والتنظيف لآخر درجة وبمجرد ما ابتدأ المكيساتى فى التدليك أظهر تعجبه من عرض صدرى بصراخه المكرر ولكن لكونى الآن أخذت فى أسباب اظهار السلطة والهيبة التى ستنشأ من ملبوسى الجديد فسلكت مسلك الذين تعودوا على المدح والالتفات مع هذا الرجل وقال لى انه ما كان يمكننى الحضور فى أسعد ساعة مثل هذه الساعة لانه فى هذه اللحظة انتهى من خدمة خان أحسن عليه الشاه ببدلة الشرف نظير احضاره اول بطيخة ظهرت باصفهان فارسل الى الحمام بواسطة المنجمين فى الوقت المعلوم عندهم بانه اسعد وقت يليق فيه التوشح بالرداء الجديد هذا ولما انتهيت من الاغتسال احضر لى المكيساتى ملايات دافية ولفها على جسمى ووصلنى للمحل الموضوع به ملابسى وبوقت ما فتحت الحقيبة ونظرت لخلعتى وزينتى دخل على السرور والانشراح الزائد الذى اعجز عن وصفهما حيث أصبحت فى دور جديد وكلما ألبس شيئا ازداد تغير شكلى

بالنسبة لحالتى السابقة ومن يوم ما نشأت للآن لم ألبس الحرير الا فى هذه الساعة وربطت سروالى الحرير على هيئة رجل متأنق فى لبسه وعند سماعى جلجلة العنترى تعلق كنت التفت خلفى بحالة العظمة لانظر من يرانى ولسان حالى يقول

اسيلات ابدان دقاق خصاره * اثيرات ما التفت عليه المآزر

وأما طيلسانى فوضعته حول عنقى بغاية الاتقان والظرافة وكان نازلا منه جزء يسير من الامام ومنتشر قليلا على ظهرى ولما وضعت المدية فى منطقتى ورأيتها تلمع تصورت انه لا يمكن لاحد التزيين مثلى وساويت قة قاووقى على شكل ملوكى ووضعته على رأسى مائلا جدا من جهة على جبهتى ثم ولما أحضر لى الحمامى المرآة لانظر نفسى علامة على دفع الاجرة أخرته حتى أعاين واساوى ضفائرى وأبرمها خلف اذنى ورفعت شواربى جهة عينى وبعد ذلك دفعت له الاجرة بكل لطافة وانسانية وتركت بدلتى القديمة فى حراسته ثم خرجت من الحمام بهيئة رجل من ذوى الاعتبار والمقام

عجفاء مقبلة عجزاء مدبرة * ممغوطة جدلا شنباء أنياب

﴿الفصل الثامن عشر﴾

((رجوع الشاعر من الاسر الى وطنه وما ناله الحاج بابا من عواقب عودته))

ثم اننى سلكت الطريق الموصل الى منزل الشاعر مؤملا استنشاق الاخبار عنه فلمحت فى آخر الشارع جملة ناس مزدحمة على بوابته وبوقتها اخبرت انه حضر فى هذه اللحظة وطلع من سطح المنزل بدلا عن دخوله من الباب على حسب العادة المعتادة عندهم ان كل رجل تبالغ عنه اثناء سفريته وفاته وعاد سالما لوطنه فانه يدخل البيت من أعلى منزله

ففى الحال هجمت بنفسى بين الجموع وتوجهت الى المحل الجالس فيه الشاعر وهنأته بوصوله سالما وانا مظهر له جميع علامات الفرح والسرور والتكلى وبعد ان أوضحت له عن اسمى ومن انا لم يتذكر معرفتى وكاد ان لا يصدق ان واحدا مثلى بحالة النظافة والتأنق وانتظام لبسه يكون نفس الرجل الوسخ الوحشى الرث الذى تعارف معه حالة أسره

وكانت الصالة غاصة بالناس من كل نوع البعض فرحون بسلامته والبعض خاب أملهم ومكدرون ومن ضمنهم مرزا فضول الذى كان تعين فى وظيفته وكان يكثر من التحية والسلام والتملق اليه ولم يسكت عنه لحظة الا ويحييه صائحا بقوله لقد كان محلك خاليا مظلما فأصبح نيرا بتشريفك اياه وقد نورت المكان وكشفت الظلمة عن أعيننا

ومازال على هذا المنوال مدة مكثه لا يقطع الكلام حتى سمعنا أخيرا ضجيجا عظيما ففتحت الابواب واذا بأحد ياوران الشاه حضر وطلب من الشاعر قيامه حالا وتوجهه عند الملك فقام وعليه ملابس السفر ومركوبه وهو مملوء من الغبار وتوجه بالحالة التى كان ساتحا بها

فعند ذلك تفرقت الجموع من المكان وخرجت انا من المنزل عازما على العودة ثانى يوم ولكن حال خروجى صادفت الناظر فى طريقى الذى كنت تحاورت معه سابقا عن حضور الشاعر وما كان يرى عليه انه من الناس المسرورين بحضوره فقلت له (باسم الله هل تحقق لك صدق مقالى بحياة الخان)

فتنهد من صميم فؤاده وقال لقد صدقت يا حاجى بحياته فاسأل الله أن يبقيه عمرا مديدا والله على كل شئ قدير

وبعد أن صاح بالدعاء مرتين ثلاثة تركنى وهو مملوء من الغيظ والخيبة وقد امضيت باقى يومى وانا أجول فى كل جهة وابنى قلاعا فى الهواء ثم تمشيت داخل الاسواق ودخلت الجوامع وحشرت نفسى بين الكسالى الكثيرين

العـدد حول السراية الملوكية فوجدت أخبار هـذا اليوم مقتصرة على رجوع الشاعر والحالة التى استقبله بها الشاه فالبعض قال ان الشاه لما بلغه حضوره أورى استحالته ولم يصدق وقال لابد وانه توفى وأيقن بموته والبعض أخبر بضـد ذلك على أن الشاه أخبر بحضوره وأمر باعطاء المبشر بهذا الخبر عشرة تومان

مع ان الحقيقة هى ان الملك لما بلغه الهيجان الحاصل لحضور الشاعر تكدر وخاب أمله بالنسـبة لابطال الترتيبات التى نظمها بخصوص منزله وأمتعته ولذا ضـعفت همته فى استقباله استقبالا حسنا ولكن لوقوف الشيخ عسكر على حالة الملك وميله الزائد لسماع الاشعار وبالاخص من صـنف الاشعار التى يغنون بها فى المدائح الملوكية فكان الشاعر من شدة فطانته متذكرا هذه المسـئلة واسـتحضر على قصيدة أنشاها حال وجوده فى أيدى التركمان ولما ان رأى اغبرار الملك من جهتـه والاعراض عنـه فى الحال قام وتلا القصـيدة مرتجلا حتى ان الملك بسماعها بعـد ان كان صارفا النظر ومحولا وجهـه عنه انشرح صدره ومال اليه ووجه التفاته العائد بالمنفعة عليه نحوه وبالاختصار حشى فاه جوهرا نظـير ما كابده من المشاق وخلع عليـه خلعة من أفخر الملبوس وأعيد لوظيفته وأمر له برد جميع أمتعته وكافة ما كان يملكه

فلما بلغنى هـذا الامر انشرح صـدرى وقت بلا توانى قاصدا تهنئته بالثانى حيث لم يكن لى سيد ولا ملجأ خلافه ولسان حالى يقول

سعد الزمان وساعد الاقبال * ودنا المنى وأجابت الآمال

واستمريت على التوجه كل صباح بدون أن أتأخر يوما الى مجلسه الرسمى ولما تيقن من معرفتى واشتد ميله نحوى شرحت له حالتى وترجيته اما أن يعيننى فى وظيفة فى دائرته أو يتوسط لى عند أحد أصحابه ليتخذنى خادما عنده

وقد اطلعت على ان الاسـباب الموجبة لحبية الناظر على رجوع سيده هى ناتجـة من خوفه مما نسب اليـه من اختلاسه فى أشغال خاصـته ولكونى باسـباب ذلك تأملت توظيفى فى محله فكنت أظهر غيرتى الشديدة فيما يعود بالمنفـعة على الشاعر وأخفيت عنه جميع ما أعلمه عما أجراه خدامه من التقصير ومع ذلك لم أنجح فى هذا المشروع ولربما كان السبب زيادة تبصره عنى ووقوفه على جميع الاحوال أو كون الناظر اتخذ الاحتياطات القويه فى براءة نفسـه أو خلاف ذلك مما لا أعلمه حتى اختبل عقلى فى ايجاد الحقيقة وانتهى الحال على ابقاء الناظر فى وظيفتـه واسـتمريت مواظبا لمحفله الرسمى بصفة تابع مع عدم انقطاعى عن أداء الخدمة يومى

فاخـيرا دعانى اليه عسكر الشاعر ذات يوم وقال لى يا حاجى يا صـاحبى لا يخفى عليـك وجوب الشكر الفائق اليـك وممنونيتى الزائدة منـك بالنسبة لما صنعته معى من الجميل الذى لا ينـكر وقت ما كنا مأسورين سوية تحت أيدى التركمان ولاظهار تشـكراتى ومكافأتك نظـير ما سلف منك من المعروف فقد أوصيت عليك احـد أصحابى مرزا أحمد وأكدت عليه غاية التأكيد وهو حكيمباشى الملك كان محتاجا لخادم وانى أخـبرك بلا شـك انك اذا واظبت على خدمته والتفت اليه وانبسط منك فانه يعلمك هذه الحرفة ويجتهد لك فى الطريقة الموجبة لازدياد ثروتك وما عليك الآن الا التوجه اليه والدخول عنده واخباره انك مرسل من طرفى وهو بوقتها يعينك فى وظيفة

فلما سمعت كلامه شكرته وقلت فى نفسى اننى لم أتدرب فى صناعة الطب ولم يسـبق لى الخوض فيها ولكننى تذكرت حكاية الدرويش التى ألقاها أمامى فادعيت معـرفتها وعـدم مبالاتى بها باحتقار انما لسوء حالتى وضـياع دراهمى لم أجد سبيلا الاقبولى خـدمة الحكيم وعلى ذلك توجهت فى صباح ثانى يوم الى منزله الكائن بجوار السراية وعنـد ما دخلت وأنا متردد أقدم

رجلا وأوخر أخرى كالضيف المهجور حتى توسطت فى عرصة البيت فوجدت جملة أشخاص مرضى البعض مقرفص بجانب الحائط والبعض رافعيهم أصحابهم والبعض مجهزون زجاجا فى أيديهم ينتظرون خروج الحكيم من عنابر النساء الى الزيارة العمومية

ثم تقدمت نحو شباك مفتوح حيث هناك واقف الاشخاص الغير مصرح لهم بالدخول فى أودته وانتظرت هناك لحين مايطلبنى وكان داخل أودته جملة أشخاص حضروا اليه على سبيل التحية لان كل ضابط فى الديوان كان يجلس عنده فى محله الرسمى ومن تأملى لحالتهم توصلت الى الطريقة التى أتقدم بها فى أثناء حياتى وذلك بكونى أبذل جهدى فى ابداء مايمكنى من المنفعة لاى شخص ولو لكلب أو لقط يصادفنى فى طريقى وبهذه الواسطة تصل الشهرة لاذان الرجال من أولى الامر والسلطة ثم وجهت أفكارى نحو مصائبى التى كابدتها سابقا وكنت أحسب المدة التى يمكنى فيها التملق وابداء العبودية للناس حتى بها يشتهر اسمى وأجذب التفاتهم نحوى وذلك لما عاينته من انحناء الواقفين بجانبى علامة على التحية وقت حضور الحكيم وقعوده على الشباك يريد بذلك انه ابتدأ فى اعادة المرضى ومعالجتهم فى أثناء هذا النهار

وكان الحكيم رجلا طاعنا فى السن وعيناه غائرتان داخل رأسه وعظمتا خديه بارزتان لنحافة جسمه وذو لحية خفيفة وبظهره انحناء زائد وعند مايجلس تكون هيئته مضحكة عارية عن الاعتبار فانه اذا جلس كان يركن مائلا برأسه من بين كتفيه ويداه موضوعتان على منطقته واما كوعاه فكان يتكونان منهما زاويتان على كل جانب وكانت أسئلته حادة وأجوبته مهمهمة ذات دوى ويظهر عليه أنه لا يتفكر فى أمر آخر أثناء حديثه بل يرى عليه انه محول أفكاره نحو الموضوع الذى هو بصدده

وبعد ان رأى حالات الامراض الحاصلة للناس الذين حضروا لعيادته وتكلم قليلا مع حلقة الطفيلية المحيطة به نظر لى بعد ان أخبرته انى أنا الشخص الذى تكلم معك الشاعر عنه فتطلع لى بعينه الحادة الصغيرة مقدار لحظة وأمرنى بالانتظار لانه يريد الاختلاء معى فى الحديث وعلى ذلك تركنى وخرج من محله لمشاهدة المرضى ثم دعيت بعد قليل بالجلوس فى محل منفصل محبوك بالحيطان من كل جهة الا من جهة واحدة بها محل الخلوة وفيها جلس الحكيم

﴿الفصل التاسع عشر﴾

﴿دخول الحاج بابا فى خدمة حكيم الملك والمسئلة التى تكلف بتأديتها فى مبدا خدمته﴾

وبمجرد ظهورى دعانى الحكيم الى أودته وأمرنى بالجلوس فأطعت أمره بكل خضوع كما هى عادة الفقير أن يظهر لمن هو أعظم منه الاعتبار والشرف الزائد وأخبرنى ان الشاعر مدح له فى حقى غاية المدح وقال اننى شاب يركن الى فى مهام الامور خصوصا فى كتمان السر والتبصر فى عواقب الامور التى تقلبت فيها زمنا طويلا فى حياتى وأصبت فيها بمصادقة آرائى وانى اذا أحيل على أى مسئلة يلزمها الاعتناء وعدم الافشاء وكانت ضرورية وصعبة الانفصال وأنيطت بى فانى أبذل ما فى وسعى سواء كان فى كتمانها أو نموها باى صفة

(قال الحاج بابا) فلما سمعت كلامه قمت وانحنيت له جملة مرار تشكرا له ووضعت يدى أمامى مستورتين بكمى اعتبارا وتعظيما له مع احترامى الزائد فى ستر اقدامى واخفائهما ثم استمر فى حديثه قائلا

انى لفى حاجة شديدة لوجود شخص مضاهى لا وصافك فى هذه الدقيقة وعبا

انه حصل لى ميل شديد ومحبة زائدة نحوك من تأثير توصية صاحبى الشيخ عسكر عنك فنى قصدى استخدام محاسن هممكم وتدبيراتكم فى مسئلة حتى اذا نجحت فيها تعود فائدتها اليك وتكون لى تذكرة عظيمة لا أطرحها عن فكرى مدى الايام ومأثرة جليلة لخدمتكم مادام الليل والنهار ثم قربنى منه وبعد ان التفت يمينا وشمالا جهة كتفيه خيفة من أن يراه أحد قال لى بصوت منخفض ونغمة المحبة

يا حاجى لقد حضر فى هذا الديوان من مدة أحد سفراء الافرنج وبمعيته حكيم وقد اكتسب هذا الكافر الشهرة التامة فى هذه المدينة فانه يعالج مرضاه بكيفية جديدة بالنسبة لنا ولم يسبق لنا اجراؤها وقد أتى الينا بصندوق مملوء من الادوية التى لا نعرفها ولا نعرف أسماءها أيضا ويدعى أن له معلومية بجملة أشياء لم نسمع عنها مطلقا فى بلاد العجم ولا يفرق بين الامراض الناشئة عن حرارة أو برودة وبين الادوية الحارة والرطبة على حسب اقرار جالينوس أو ابن سينا وانه يعطى الزئبق بواسطة علاج مرطب ويغز البطن بآلة حادة لاخراج الريح الذى يتكون بالمعدة وأدهى من ذلك ادعاؤه ازالة الجدرى كلية بواسطة حقنه فى جسمنا مادة من خلاصة مستخرجة من البقرة وانى يا حاجى لا أكتفى بهذه الحالة فان الجدرى كان دواما مصدر دخل عظيم ولا يمكن ترك ذلك فان حضور كافر الى بلادنا ومكثه فيها ومعاملتنا مثل البهائم لا نقبله ولا يتأتى لمثله أن يختطف اللقمة من أفواهنا

وان الداعى الموجب بالاخص لطلبى مساعدتك هو ان الصدر الاعظم حصل له توعك زائد منذ يومين ناشئ عن شراهته فى أكله خس وقثاء زيادة عن طاقته مغموسين بالخل والسكر فطرق الامر مسامع سفير الافرنج وكان مشاهدا الصدر الاعظم فى أكل الخس فارسل له طبيبه بعد ان استأذن منه بنظر أمره وتعاطى دوائه

ويظهر ان الصدر الاعظم والسفير لم يتوافقا معا مدة من الزمان نظرا لما كان تطلبه السفير من الامور السياسية ولفائدة بلاد العجم مكر الصدر الاعظم عليه وتجهل الامر حتى انجبر على انكاره ولهذا السبب ظن ان هذه فرصة لمصالحة الكافر ورضائه فقبل مشورة حكيمه ولو كنت أعلم الواقعة لتدبرت الامر بوقتها بطريقة سهلة وأوقفت المسئلة ولكن الحكيم لم يتأخر لحظة فى اعطائه الدواء الذى لا يحتوى الا على حبة صغيرة بيضاء ليس لها طعم وقد نشأ من هذه الحوادث التى ساءتنا ما هو من أعجب العجاب وذلك انه لما حصل الشفاء للصدر الاعظم لم يتحدث بشئ الا بقوله انه استشعر ان الحبة جذبت الرطوبة من أطراف أصابعه ووجد قوته وعزمه يتجددان شيأ فشيأ ويتعجب من ذلك نظرا التقدم سنه وكان يتحدث أيضا بقيامه بواجبات زوجاته المصرح له بزواجهن حسب الشريعة الاسلامية

ولم تستقر المصيبة على ذلك فقط بل انتشرت شهرة الدواء والحكيم الافرنكى فى عموم الديوان وأول أمر تكلم به الملك فى المجلس هذا الصباح هو خواص الدواء الخارقة للعادة ودعا بالصدر الاعظم ليعيد عليه ثانيا ما كان من أمره فى حضرته عن نفس الموضوع وبمجرد اخباره بالمنافع العجيبة التى ظهرت على شخصه ازاع جلالته دمدمة المدح والتعجب بالمجلس عن مهارة ونجاح الطبيب وعلاجه

فعند ذلك التفت لى جلالته وسألنى توضيح هذه التأثيرات الغريبة الناتجة من دواء يسير فلما أردت مجاوبته انحنيت جدا بقدر امكانى لمداراة خجلى وقبلت الارض وقلت

أدام الله اجلالك انى فداءك يا ملك الملوك وانى لم أر للآن الاجزاء المتركب منها العلاج الذى أعطاه الحكيم الكافر الى خادم جلالتك الصدر الاعظم وبحال استكشافى ما يحتويه أحيط علم جلالتك به وان عبدك الوضيع

يلتمس من مركز الكون بتفكره جلالتك ان الفاعل الاصلى لهذا الدواء هو الروح النجسة التى هى عدوة لدين الحق وقد أصبح آلة فى يد كافر يدعى على نبينا الطاهر عليه السلام انه غشاش مع عدم اعتقاده بالقدرة الالهية وبالقضاء والقدر

(قال حكيم الملك) وما قلت ذلك الا لتقليل شهرته التى تزداد يوما عن يوم ثم انى تركت الملك وأنا غريق فى بحور التأمل أتبصر فى الطريقة التى يمكنى بها استخراج مخبآت الكافر والوقوف على كيفية تركيب الدواء الذى ظهر منه هذه المعجزات والحمد لله يا حاجى الذى اسعفنى بك وحضرت فى هذا الحين لمساعدتى والواجب عليك الآن المصاحبة معه وانى أفوض أمر استمالته لهمتك فى جذب عقله وتجسس معرفته وأريد انك تحصل على انموذج من نفس الدواء الاصلى الذى استعمله الصدر الاعظم لانى مجبور أن أوضح للشاه باكر عن أصل تركيبه وتحليله ومشتملاته ويلزمك أن تبتدئ فى أول خدمتك لى باكل كثير من الحس والقثاء الغير مستوية وتتمرض كثيرا كما فعل سمو الصدر الاعظم وعند ذلك تذهب الى الحكيم الافرنكى للكشف عليك وانى لا أشك من أنه يعطيك علاجا من نفس الحبوب المشهورة وبوقتها تحضرها الى

(قال الحاج بابا) اذا كان أخذه الرعب من هذا الامر المهول فكيف بى لو أتداخل فيه وأقابل رجلا أجهله سيما أهالى أوروبا فقد بلغنا عنهم جملة نوادر عجيبة حتى انى أرتبك بمقابلة هذا الرجل

ثم سأل الحكيم العجمى وقال له التمس اخبارى عن الطريقة التى أستعملها فى سيرى فان أحوالهم وعوائدهم مختلفة بالنسبة لنا فاجابه الحكيم واسمه مرزا أحمق قائلا

لقد صدقت فى المقال ولاشرح لك بعض عوائدهم حتى ترسخ فى ذهنك فبدلا

عن حلق رؤوسهم وترك لحاهم تنمو كما نفعل فانهم بضد ذلك ولم ير على اذقانهم أثر الشعر وان شعر رؤوسهم غليظ كأنهم تعاهدوا على عدم قصه بالكلية وكذلك يجلسون على كنبات عالية واما نحن فنفترش على الارض ويتناولون طعامهم بمغاليب من الحديد ونحن ناكل باصابعنا ويمشون دواما بعده ونحن نركد ويلبسون الملابس الضيقة ونحن نرتدى بالواسعة ويكتبون من الشمال الى اليمين ونحن نكتب من اليمين الى الشمال ولا يصلون مطلقا اما نحن فنصلى خمس صلوات كل يوم وبالاختصار لا يمكن الانفضاض من سرد أحوالهم ولكن الاكثر تحققا عنهم انهم أوسخ أمة على وجه الارض لانهم لا يمسكون شيأ طاهرا ويأكلون جميع أنواع الحيوانات من الخنزير الى الضفدعة بدون أن يداخلهم أدنى ارتياب وبدلا عن ان يذبحوها من أعناقها فيشرحوها وهى ميتة بدون تطهيرها ويؤدون جميع وظائف طبائعهم البهيمية بدون ان يروا ضرورة للاستحمام فى الحمام السخن أو يدلكون أنفسهم على الاقل بالرمل

فسألته وهل حقيق انه اذا حصل شك فى كلامهم وادعى أحد انهم كذابون يثور غضبهم ويحاربون للممات فاجاب الحكيم يقال عنهم أيضا ذلك ولكن لم يحدث لى للآن بينهم أمر من هذا القبيل ومع كل فالواجب على أن أعلمك عن شئ واحد وهو انه اذا تصادف وأعياهم معرفة شئ أعجبهم فى حوزتك فلا يلزمك ان تخبرهم به مثل ما تخبر أحدنا من أهل الوطن وهذه نصيحة منى اليك فلترسخ فى ذهنك لئلا يتمسكوا على كلمتك ويثقوا بها ولربما لم يتأت منها فائدة ولم تأت بالمقصود فتصبح مرتبكا فيه انما تجتهد ببذل جهدك فى التكلم بحسب ما يتراءى بفكرك حتى اذا أرك بهذه الحالة يميلون لحديثك

فأجابه الحاج بابا قائلا اذا كان الامر كما ذكرت الا تفتكر ان الحكيم

الافرنكي يكذبني بحال ادعائى المرض حالة كونى فى صحة سيما عندما أطلب منه دواء باسمى وهو لغيرى

(قال مرزا الحكيم) لالا يا حاجى انك لمريض وحقيقة مريض هيا هيا ووضع ذراعيه حول عنقه وقال اذهب وتناول قثاءك واحضر لى الحبة فى هذا الصباح

(قال الحاج بابا) واستمر مرزا يلاطفنى ويمنعنى عن ابداء موانع لمعارضته فى طلبه الذى لم يكن على بال ثم أخرجنى بلطافة من أودته وتركته وأنا متحير بين ضحك وبكاء من هذه الوظيفة الجديدة التى ابتدأت فيها باشغالى هذه

ثم تفكرت فى تمرض نفسى بدون مكافأة معينة وقلت لا أقبل ذلك وتأخرت عن المسير لخلف عازما على انفصال الاجرة مع سيدى ولكن حال وصولى لاودته لم ألحقه بل رأيته على بعد داخل الى الحريم ولذا انجبرت ان أقوم بقضاء مأموريتى

﴿الفصل العشرون﴾

﴿فى نجاح الحاج بابا فى غش الحكيمين وحصوله على حبة من الدواء من واحد وقطعة ذهب من الآخر﴾

(قال الحاج بابا) ثم اننى اتخذت طريق الموصل لمنزل السفير وبالفعل عزمت على اتمام مقصود الحكيم وان أتحايل على طريقة بها أمرض نفسى فى أثناء الطريق ولكن بعد التأمل الزائد تذكرت ان تمريض المعدة غير مامون ولربما يتأتى منه اتلافها كلية فى لحظة صغيرة لان عدم موافقة الحس والقثاء لمعدة الصدر الاعظم يحتمل ان ذلك نظرا لتقدمه فى السن وهذا لا يحصل الا لفرد فى المائة ولكن يمكن هضم هذه المأكولات هضما

تاما فى معدة شاب صغير مثلى وعلى أى حال فقد صممت على الحصول على الحبة بواسطة الحيلة ان لم يتيسر جلبها بصورة مرضية

ثم تاملت انى لو تمرضت فلربما يطلع على أمرى الحكيم ويظهر غشى ويطردنى من منزله بصفة غشاش فاستحسنت بان أسهل طريقة لاتمام مرغوبى وهى تظاهرى بهيئة أحد خدمة حرم السراية الملوكية واخترع له حكاية للحصول بها على غايتى وعلى ذلك توجهت الى احدى دكاكين الملابس الكهنة بالسوق واستاجرت برنسا مثل الذى تلبسه الكتبة ووضعت جانبا من الورق فى منطقتى بدلا عن الخنجر ونويت فى ضميرى أن أهيئ نفسى وادعى بكلام زيادة عما تقوله الخدمة العادية

وبالحال استدللت على الجهة القاطن بها السفير ولكونى متذكرا فى عقلى ما أخبرنى به مرزا أحمق فوصلت لباب مسكن الحكيم وأنا خائف أقدم رجلا وأؤخر أخرى ووجدت الشوارع الموصلة اليه مزدحمة بالنساء الفقراء حاملات الاطفال على أذرعهن وقد أخبرت انهن أتين لتلقيح الجدرى لاطفالهن بالطريقة المستجدة وذلك لاسباب سياسية علم منها ان الافرنج يفعلون ذلك اشتياقا لعلو درجاتهم وشهرتهم لان الحكيم الافرنجى اذا عالج الناس مجانا لا ينتظر حاجة من المرضى خصوصا الناس الفقراء جدا الذين لا يمكنهم الوصول الى حكيم أعجمى بدون هدية أو اعطائه أجرة تقوم مقام اتعابه

وفى أثناء دخولى نظرت رجلا جالسا فى منتصف المحل بالقرب من رف خشب مرتفع موضوع عليه علب الحبوب وكتب وجملة مختلفة من العدد والآلات لا أعلم كيفية استعمالها وكان فى اللبس والمنظر أهيأ وأعظم من أى كافر نظرته فى عمرى فكانت ذقنه وشفته العليا لم يرعليهما أثر الشعر على شكل الطواشى تماما ورأسه مكشوفة على الدوام بدون مبالاة

وحول عنقه رباط ضيق و بعض اختراعات حول خديه كأنه يريد تغطية جرح أومداواة داء وملابسه ضيقة جدا وبالاخص ساكوه البرانى مقصوص جميعه من قطع زوايا رفيعة والظاهر ان استعمال هذا القماش فى بلده كان نادر الغلوه وكان القسم التحتانى من لبسه غير منتظم ووجدته أيضا واضعا مركوبه داخل الاودة يدوس به على السجادة فاغتظت لهذا الامر حيث انها عادة متلفة لاحوال الزينة

فلما رآنى خاطبنى بلغتنا وسألنى عن حالتى وأسرع قائلا ما أحسن اعتدال هواء هذا اليوم ولكون كلامه فى محله طابقته مصدقا عليه و بعد ذلك استحسنت ان أدهيه بالفاظ عذبة وان كانت كذبة وأتملق له بقدر طاقتى وأخبرته عما ناله من الشهرة العظيمة فى بلاد العجم وان لقمان الحكيم لا يضاهى جزأ من معرفته وان معاصريه أطباء العجم لا يكون فيهم لياقة لمناولته يد الهاون

فلما سمع كلامى لم يتلفظ بكلمة ما فقلت له ان الملك لما بلغه التأثيرات العجيبة الناتجة من دوائه لوزيره أمر مؤرخه بدرج هذه المسئلة فى تاريخ المملكة و يجعلها من النوادر المهمة التى حصلت مدة حكمه حتى شاع هذا الامر وكان له وقع عظيم داخل سرايه جلالته لان كثيرا من الستات تمرضوا واشتاقوا جدا التجربة محاسنه وان محبوبة الملك الجارية الجرجانية قد أضربها المرض حقيقة حتى ان رئيس الطواشية بناء على ارادة جلالته الخصوصية ندبنى للحصول على دواء من عينة الدواء الذى استعمله الصدر الاعظم ثم سألت الحكيم ان يسعفنى حالا بجزء من هذا الدواء

فلما سمع كلامى أظهر لى افتخاره على ماقلته و بعد ان تأمل قليلا أجابنى انها ليست عادته أن يعطى الدواء بدون كشفه على المريض أولا لانه بذلك ربما يحصل له ضرر عوضا عن الشفاء واذا وجد الجارية فى حاجة لمساعدته يكون مسرورا لالتفات اليها ومراعاة خاطرها فاجبته أما من جهة

كونك

كونك تريد النظر لوجه الجارية الجرجانية فامر لا يتأتى و يستحيل وقوعه لعدم السماح لاحد ما فى بلاد العجم بالنظر الى المرأة الاجنبية خلاف زوجها وأما اذا الجأتها الضرورة وكان الالم شديدا يخشى منه فحين ذاك يؤذن للحكيم بجس نبضها ولا يفعل ذلك مالم تلف يدها بحاجز من القماش فاجابنى الحكيم الافرنجى عن ذلك انى لاجل أن أكون على معلومية تامة مما يشكو به المريض لم أجس النبض فقط لا بل وانظر اللسان أيضا فقلت امام مسئلة النظر فى اللسان فشئ مستبعد لم يسمع به للآن انسان فى بلاد العجم وأنا على يقين من عدم امكانك التملى بهذه الرؤية الا بمقتضى ارادة خصوصية من عظمة الملك بما ان الاغا يفضل قطع لسانه أولا أسهل له من هذه المسئلة

(قال الحكيم) لا بأس من ذلك ولكن تبصر فى أمرك وهوانى اذا أعطيتك الدواء أكون خالى المسؤلية مما يحصل منه من التأثيرات لانها ان لم تشف فلربما تميت

فلما أيقنت له عدم مسه بضرر أووهم ينتج من ذلك مطلقا فتح صندوقا كبيرا يظهر انه مملوء من أصناف العطارة وأخرج منه جزأ يسيرا بمقدار معلوم من مسحوق أبيض ومزجه ببعض الخبز وجعله على شكل حبة ثم لفها فى ورقة وناولها الى بعدما أورانى الوسائط الكلية فى كيفية استعمالها ولما تبين لى منه عدم اخفائه شيأ من معرفته ابتدرته بالسؤال عن أصل وخواص هذا الدواء الخصوصى واستعماله على وجه الاطلاق فاجابنى بدون ملاحظة شئ ليس مثل حكمائنا الاعاجم الذين يتفاخرون فقط بعذوبة الالفاظ و يصلحون كل مرض يصادفهم بما يطالعونه فى كتب جالينوس ومعتقداتهم وابن سينا

ثم انى بعدما التقطت منه ما أمكنى معرفته تركته مظهرا له علامات المودة

والشكر ورجعت حالا الى مرزا أحمق الذى كان ينتظرنى بالصبر الا اننى نزعت ملابسى المؤجرة ودخلت عليه بوجه سقيم على حسب ما أمرنى فى أول الامر لادخل فى ذهنه ان الحس والقثاء حصل منهما تاثير وكنت كلما أكلمه بكلمة ادعى بحصول ضربان فى قلبى واستمريت بهذه الحالة متظاهرا بسوء عاقبة الالم حتى ان طبيعة مرزا أحمق التى جبلت على الفظاظة والعبوسة والصلابة لحت ببعض اشارات من الشفقة والاسف نحوى وذلك انه بحال دخولى عليه صحت قائلا (باسم الله خد غضبتك) وأنا مظهر الالم ومحنى نصفين ومعبس وجهى لآخر درجة وآتاوه بانين من صميم الفؤاد وأقول له ها قد نفذت أوامرك وقضيت حوائجك فها أنا الآن اسلم نفسى لقبضة مروءتك وجودك

فاجتهد بوقتها للوقوف على اسباب الحصول عليها فتكتمت عليه الامر وفى اثناء ما كنت اظهر له انى منتظر جائزة وقتيه فكنت اريه بعض اشارات تدل على ازدرادى اياها ان لم يناولنى فى يدى شيأ مكافأة لذلك ولكن لما هو معتريه من الوجل الشديد لعدم قدرته على اجابة أسئلة الملك بخصوص هذه الحبة ولكونه أيضا كان فى شدة الاضطرار اليها وضع فى يدى قطعة من الذهب ولم أجد عاشقا يمكنه مقاضاة سيدته بقوة عظيمة لقضاء معروف زيادة عما فعله الحكيم معى بخصوص حبتى فوان كان فى امكانى اطالة الغش والاستمرار عليه واجتهادى فى جذب قطعة اخرى من الذهب الا اننى لما رأيته يجهزلى جرعة لسهولة المشى من ممزوجه الخاص ووجدت ان ذلك يأخذ زمنا طويلا فادعيت زوال الالم مرة واحدة وعدت عن أخذ الدواء وأبطلت طلب مكافأة اخرى ولما ان صارت فى حوزته تفرس فيها وهو يقلبها يمينا وشمالا بدون أن يظهر فيها أدنى صناعة تزيد على

معرفته الاصلية فاخيرا لما رأيته على هذه الحالة مرتبكا فى أمرها استأذنته بتطمين خاطره كلية وأخبرته أن الحكيم الافرنجى لم يخف شيأ منى وقت تركيبها وانها محتوية على الزئبق

فلما سمع مرزا أحمق هذا الكلام صاح باعلى صوته قائلا يا للعجب انه حقيقة من الزئبق (جيوه) وقد خفى عنى هذا الامر وذلك أن الكافر كلب النصارى يريد أن يسمنا بالزئبق فينشأ من فعله هذا اندثار شهرتى ووصفى للعلاج ولم يأتمنى أحد وأصبح أضحوكة بين الناس فمن من العالم أتى بسمعه ان الزئبق يعطى للدواء فهو بارد والحس والقثاء أيضا باردان ولا يمكنك يا حاجى استعمال الثلج لتحليل الثلج فالحمار لا يدرى مبادى أصول وظيفته وهذه الفعال لا تخلصنا يا حاجى ولا نقتنع بذلك كما ولا نسمح بان الناس يضحكون على ذقوننا بهذه الحالة

(قال الحاج بابا) واستمر مرزا يهجو ويذم فى حق خصمه زمنا طويلا ولولا ان أتاه كاتب من الملك لاستمر مليا فى بذل الفتن والفساد ضده وفيه يامره الملك بانه بمجرد وصول كتابه اليه لا يتأخر درجة عن الحضور امام جلالته بقدر ما يمكنه من السرعة وفى الحال توشح بوشاحه الرسمى وغير قاووقه الاسود الذى من جلد الشاة بآخر ملتف عليه طيلسان ولبس جواربه الجوخ الحمر وهو طايش العقل ودعا بحصان وركبه وأخذ الحبة معه وتوجه بغاية السرعة متلبسا بالافكار الكثيرة عما ستكون نتائج هذه الجلسة

﴿الفصل الحادى والعشرون﴾

﴿فى بيان الكيفية التى يتعاطى بها الشاه الدواء﴾

(قال الحاج بابا) واستغرقت زيارة الحكيم مرزا عند الملك لحد المساء وعند

عودته دعانى اليه وقد وجدته من هيئته الظاهرية مملوأ من الغضب والغيظ الشديد ولما رآنى قادما عليه قال لى يا حاجى اقترب واجلس بجانبى وبعد أن أمر بصرف الحاضرين من أودته للاختلاء بى سار رنى بقوله ان هذا اللعين لابد وان يكون متفقا على أمر مجهول وهل لا تتصور ما حدث فان الشاه استشاره وعقد معه جلسة نحو الساعة فى هذا الصباح بدون أن أعلم شيأ عنها وقد أرسل لى جلالته ليخبرنى بنتيجتها والذى أراه مركز فكرى ان الافرنجى اكتسب سلطة عظيمة ونجح فى مشروعه ويظهر ان الملك شرح له تاريخ شكواه ومابه من الضعف والربو المزمن وما عنده من التخمة وكان كلامه عن هذا الحقير بفرح وانشراح بالنسبة لفطانته ومداخلته وقال انه قبل أن ينظر لسانه ويجس نبضه وقبل معلوميته باصل الحالة سأل جلالته عما اذا كان جارى استعمال الماء الساخن على الدوام وهل يحدث له عوارض سعالية عندما يشرب الدخان وهل لم يكن متعودا أثناء الطعام على استعمال المخللات فى السفرة والحلويات والارز كثير السمن وان الملك اذن له بثلاثة أيام لفحص حالته واستشارة كتبه وجمع آراء عقلاء الافرنج عن المواضع المهمة الموافقة لحالة بلاد العجم وان يركب دواء مفيدا ومعيد البنيته فى أقرب وقت وبعد ذلك سالنى مركز الكون أن أبدى آرائى وأمرنى أن اشرح بكل جسارة طبائع وخصائص الافرنج عموما وعن حالة علاجهم فاتباعا لامر جلالته لم أضيع هذه الفرصة فى شرح جميع حواسى وبعد الانتهاء من خطبة حديثى العادية خاطبته قائلا

اما طبائعهم التى لا تخفى عن فطنة جلالة الشاه السامية وحكمته الباهرة فانهم كانوا قوما عديمى الاعتقاد ونجسين وذلك لمعاملتهم نبينا اسوة غشاش ويأكلون لحم الخنزير ويشربون النبيذ بدون تحريم وكانوا

كالنساء فى المنظر والدبب فى الاحوال وكان الواجب التشديد بالحكم عليهم لما هم عليه من أعظم شبهة بان غرضهم النهائى الاستيلاء على الممالك وان يخضعوا ويذلوا الشاهات والامراء ويكونوا عبيدا خاضعين اليهم وانظر ما قد كان منهم فى الهند

وأما عن أدويتهم فصحت قائلا الله يحفظ جلالتك منها فانها خائنة فى التأثيرات كما ان الافرنج خائنون فى سياستهم لاننا ما نستعمله لحدوث أسباب الموت يدعون أنه مفيد عندهم للشفاء وان الجزء الاصلى الذى يدخلوه فى تراكيبهم هو الزئبق (وهنا أبرزت اليه حبتى) واما عن استعمال آلاتهم وأسلحتهم فحدث ولا حرج فقد روى عنهم انهم ينشرون أعضاء الانسان أملا لنجاة حياته ثم اننى أظهرت له صورة مبينا فيها التأثيرات القاتلة التى تنتج من استعمال العلاج الاجنبى حتى انى بهذه الاباطيل أضعفت ميل الشاه نحوهم واوعد انه لا يأخذ الدواء ما لم يعمل الاحتراسات القوية فى اصل تركيبه كما يقتضيه تبصره وحكمته وقد حصل الاتفاق على ذلك وقال انه عندما يرسل اليه الحكيم الافرنجى العلاج الجارى تركيبه يدعونى لجلسة اخرى فالآن يا حاجى لايمس الملك علاج الافرنجى لانه لو تصادف وتعاطاه وكانت نتيجته مفيدة فتضيع شهرتى ويندثر اسمى ويكون عدمى كحياتى ومن ذا الذى يستشير مرزا احمق بعد ذلك ثانيا فلا بد من السعى والاجتهاد فى استبعاد هذه الحادثة ولو ألزم بأخذ جميع عطارته لنفسى

(قال الحاج بابا) ثم افترقنا بوعد مرضى لبذل ما فى وسعنا لمعارضة الحكيم الكافر فى جميع حالاته ولم يمض على ذلك ثلاثة أيام الا والملك طلب مرزا احمق للبحث عن الهيئة المعهودة المحتوية على علبة من الحبوب ومن المعلوم انه أوجد جميع انواع الريبة والشكوك ضدها عليها وابدى بعض

اشارات مبهمة عما يحدث من الخطر من تعاطى أى تركيب يؤخذ من وكيل دولة أجنبية حتى انه أخيرا أمال عزم الملك لاحالة هذه المسئلة على وزرائه للتروى فيها ولما انتصب المجلس ثانى يوم كالمعتاد وجلس الملك على تخته وعلى يمينه وشماله الصدر الاعظم وخزنداره العمومى وناظر الداخلية وكاتب سر المملكة ورئيس خدمته ومير ياخوره والسرتشريفاتى ورئيس حكمائه وكثير من ظباط معيته العظام ابتدأ جلالته يخاطب وزيره الاعظم ذاكرا له المخابرات التى حدثت بينه وبين الحكيم الاجنبى المقيم الآن بديوانه وعن استردادو تجديد الذات الملوكية وانه فى الجلسة الاولى التى امتحن فيها الحكيم الاجنبى عظمته الملوكية أورى بوجود دلائل قوية دالة على ضعف بنيته وبعد ان أكد للملك فى الجلسة الثانية انه أشغل نفسه ثلاثة أيام باكملها فى البحث فى كتبه وتواريخه وبعد ان جمع منها أراء عقلاء مملكته على هذا الموضوع استنبط جملة أجزاء مختلفة من العطارة وجعلها جزأ واحدا وقال انها اذا استعملت من الداخل ينتج منها تأثيرات عجيبة حتى ان الطلاسم لاتؤثر ضدها ثم قال جلالته انه دعا بأرباب مجلسه وطبيبه العمومى الذى لتشوقه لازدياد ثروة بلاد العجم بالغ بالافتخار الكلى وعلا بشهرة مملكته على نظامات وتأثيرات الاجنبى وأطنب فى قدحهم بالنسبة لما طرأ بعقله من الشكوك والمحذورات المعلومة له التى أبان فيها سببين عارض فيهما أولهما عن ماذا كان يستباح سياسيا التسليم للنظامات والهيئات الاجنبية فى تعاطى العلاج الداخلى للذات الملوكية وثانيهما عن ماذا لم يكن فى الدواء الموصوف فاعليات خفية ومهلكة ينشأ منها خطر كامن يظهر ضرره بالتدريج وينتهى بافتراس جسم عظمته الملوكية بعد ان كان يظن فيها استردادو تقوية صحة وجسم جلالته

فبناء على هذه الاحوال قال جلالته مركز الكون بصوت عال فى هذا الوقت

لقد مر بفكرى ان الاحسن الكف عن الشروع فى تعاطى هذا الدواء وقد قصدت بنشر هذه القضية امامكم حتى بحكمتكم الفائقة وعقولكم النيرة انتظام هذا الرأى حتى يكون موافقا لعرضه امام الملك ولكى ان تستمروا فى موضوع القضية بمعلومية تامة عن الحالة عزمت بصفة قضية ابتدائية ان كل واحد منكم يتعاطى من هذا الدواء لشخصه خاصة وبذلك يمكننى ويمكن كل منكم يحكم فى تأثيراته المختلفة فلما سمعوا كلام الملك صاح الصدر الاعظم والحاضرون بالديوان قائلين ادم يا الهى الشاه مؤبدا ولا ينقص ظله الملوكى سرمدا فان سرورنا لم يقتصر فقط على أخذ العلاج بل لبذل أرواحنا فى خدمة جلالتك فنحن فدية عنك وعبيد بين يديك ونسال الله ان يهب لجلالة الشاه أعظم صحة وينصره على أعداه

فلما سمع الملك كلامهم أمر رئيس الخدمة باحضار علبة حبوب الحكيم الاجنبى من داخل الحرم الملوكى فتوجه وأحضرها وناولها لجلالته موضوعة على طبق من الذهب فدعا الملك برئيس حكمائه للاقتراب منه وأعطاه علبة الحبوب وأمره أن يبتدئ من الصدر الاعظم وماجاوره من الامراء والذوات بالترتيب على حسب رتبهم ويعطى كل واحد حبة من العلبة لتعاطيها ففعل ما أمر به الملك وبعد ان أخذ كل منهم حبة من الجرعة الموصوفة تبع ذلك توقف عام عن الكلام وفى أثنائه صار يتأمل الملك جدا بغاية الاعتناء لوجه كل واحد ليقف على أوائل تأثيرات العلاج

ولما هدأت الوجوه المعوجة كانت الدورة فى المذاكرات على مصالح أوربا وفيها سأل عظمته جملة أسئلة متعددة وأجيب عليها من الاشخاص الحاضرين باحسن ما يمكنهم من الاجابة ولم يمر غير قليل من الزمن الا وابتدأ ظهور فاعلية العلاج وذلك ان الخزندار وهو رجل هائل المنظر غليظ الجسم

كان واقفا لحد هذه الدقيقة بدون ان يتحرك ويقول (بلى بلى) نعم نعم عند ما يبتدى الملك بالكلام ولم يقل غير ذلك لما اعتراه من الضعف فى هذا الوقت لان ما بتلعه كان موجبا لقوة فعالة فى جسمه تسبب منها اهياج جملة امراض ساكنة وكانت أعين الجميع شاخصة اليه حتى نشأ من ذلك ازدياد حالته المزعجة

واما كاتب السر وهو رجل رفيع طويل ونحيف الجسم قد اصفر لونه وتقاطر العرق من جميع مسام جسمه ثم تبعه ناظر الداخلية الذى التزم من سوء حالته الناتجة من تاثير العلاج الاستئذان من جلالته تاركا حضرة عظمته وقد أعقبه جميع الحاضرين بالتوالى وهم يتحركون بطرائق مختلفة عن بعضهم ماعدا الصدر الاعظم فانه كان رجلا هرما صغير الجسم مشهورا بشدة وصلابة طبيعته حيث كان يرى عليه انه كان يدارى وجهه بكمه ويضحك على ما يكابده رفقاؤه الذين فى ديوانه من المشقة والمسكنة ولما عاين الشاه تاثير العلاج أمر بانفضاض المجلس وأمر مرزا أحمق انه حال ما يتحقق نتيجة كل حبة وما نشأ عنها يقدم لجلالته بيانا رسميا عن عموم الحادثة ثم قام ودخل حرمه الملوكى

(قال الحاج بابا) لقد تمكن الحكيم الهرم المكار من السلطة على خصمه لانه من كل معلوم انه قد أجاد فى بيان المسئلة جليا أمام الملك وبذلك جلالته امتنع عن تجربة العلاج المجهز من الطبيب الاجنبى وأودعت المسئلة فى زوايا النسيان حتى ان مرزا أحمق عندما قابلنى ثانى مرة وبعد ان أخبرنى بالقصة السالفة الذكر لم يتمكن من تكتم سروره وتهليله بقوله لى لقد حاربنا وقاومنا عدونا يا صديقى الحاجى فان الكافر افتكر اننا مجانين ولكن سنعلمه من هم الاعاجم ومن هو هذا الكلب حتى انه يصل لهذا الشرف السامى ويصف علاجا للشاهنشاه كلا فان هذا الامر من خصائصى فلا نبالى

باكتشافاته المستجدة ولا نفيد ناشيأ فما أخبرنا به آباؤنا من الاجراآت والتجربات فنحن نجريها بكل سرور والادوية التى شفت جدودنا تشفينا أيضا وما أمر به لقمان وابن سينا من وصف الادوية فنحن نأمر به

(قال الحاج بابا) ثم ان مرزا أحمق أمرنى بالانصراف ليختلى بنفسه كى يتبصر فى الطرق المدمرة لمقاصد الحكيم الجديد اذا حصلت منه معارضات مستقبلة حبا فى حفظ شهرته ومعارفه فى الديوان الملوكى

الفصل الثانى والعشرون

(فى طلب الحاج بابا من الحكيم ترتيب ماهية له ونجاح مطلوبه)

(قال الحاج بابا) وأقمت زمنا طويلا على هذه الحالة مع الحكيم وكانت اقامتى معه ليست بصفة خادم له بل تزيد عن محبة الصاحب حيث كان يأذن لى بالجلوس فى حضرته والاكل على مائدته كما والتدخين من شيشته وقد تعرفت فى ذلك الحين باتباعه فكنت آكل وأشرب وأتدخن معهم أيضا ولكننى تأملت ان هذه الحالة التى تستغرق زمنا مديدا من حياتى لم توافق آرائى ومستقبل آمالى فان الدراهم التى أخذتها منه هذه المدة هى القطعة الذهب فقط المذكورة آنفا وتحصلت عليها بمهارتى ولم يكن له فضل فيها وباستمرار الاشغال وتوالى الايام علمت انها آخر العطايا فلما رأيت نفسى محروما من الدراهم ولم أنل شيأ مادمت فى خدمته قويت عزمى بالاستفهام منه عن الكيفية وعلى ذلك انتهزت الفرصة العظيمة لعرض شكواى وبث مصائبى اليه فى اليوم الذى انصرف فيه على الحكيم الاجنبى وكان اذ ذاك آتيا من جهة البوابة الملوكية بعد أن تشرف بمقابلة الشاه الذى استعطف بخاطره بوقوفه ساعتين فقط بدون مداس بجوار ينبوع من الجريد لا عن ستة ساعات كما هى العادة فى أغلب الاحيان وذلك انه لما رآنى صاح بفرح

زائداً قائلا

ما أطيبه من ملك وما أحلمه وأبشه تحت قبة الفلك ويالله من شفوق أنعم علىّ بالافضال التى يعجز لسانى عن حصرها فانه سب الحكيم الاجنبى وقدح فى حقه بالنسبة لمعارفى الى ان قال انه لا يليق لحفظ مداسى ثم أمر خادمه المتقرب اليه باحضار سمانتين هدية لى من صيد الصقور الملوكية

(فاجابه الحاج بابا) لقد صدق الشاه فى مقالته فمن ذا الذى يضاهيك فى بلاد العجم وأنت فريد العصر ووحيد الدهر فان من سعد الشاه وجودك عنده وأعظم كنز حازه فى ملكه ومن هم الافرنج حتى يتداخلوا فى مسئلة العلاج فان كانوا فى حاجة للتعلم والعلم والشطارة فعليهم بعرزا أحمق

فلما سمع كلامى أعجبه ثنائى وتبسم بلطافة واطمئنان وأخرج من فمه شبك الدخان وناولنى اياه وهو يبرم فى شاربيه ويمشط لحيته وأنا مستمر فى مقالتى قائلا ان شاء الله يكون لى نصيب للاشتراك فى مجد شهرتك الانى أرى نفسى كالكلب ولا اساوى شيأ كلا ولا اضاهى طينة جذور الورد فاجابنى الحكيم يقول ماهذا الذهول أمعتريك جنون فقلت كلا ولكنى أسمعك حكاية واترك لك الحكم بما يتراءى لك فيها من عدلك وهى

(حكى) ان كلبا من مدة كانت هيئته وطباعه مشابهة لهيئة وطباع الذئب تقريبا حتى ان الذئاب سمحت له بالدخول فى جمعياتها فكان يأكل ويشرب ويصطاد الغنم معها وبالاختصار كانت فعاله كفعال الذئب ولما يوجد مع الكلاب يعيش بعيشتها ويجرى اجراآتها ويدخل فى زمرتها أيضا ولكن شيأ فشيأ رأت الكلاب أنه يجتمع بزمرة الذئاب فنفرت منه ثم وتصادف ان الذئاب أيضا اكتشفت على أمره بانه كلب حقيقى ليس منهم فلم تسمح له مرة ثانية بالدخول فى عصبتها فاصبح ذلك الكلب المسكين مهجورا وذليلا بين الفريقين ولكونه لا يطيق ان يتحمل هذه الحالة

المبهمة فنوى على السلوك فى أحد الامرين اما أن يكون كلبا أو ذئبا حتى يتخلص من هذا الذل

ثم صحت قائلا (وها أنا ذلك) لانك تأذن لى بالجلوس والتدخين معك وهما أعظم غذاء لى وتتحدث معى وتشاورنى فى الامور لغاية ما أمرتنى بالدخول فى جمعيات أصحابك ولكن ما الفائدة التى تعود على من ذلك فانى مازلت خداما ولم أتمتع باحدى الفوائد لانى لا اكتسب شيأ وعلى هذا ألتمس منك تعيينى فى الوظيفة التى تريد أن تقيدنى فيها فى خدمتك وتجعل لى مرتبا فصرخ الحكيم قائلا أحقيقة تطلب مرتبا انى لا أعطى مرتبات أصلا فان أتباعى يأخذون مايمكنهم من مرضاتى فافعل مثلهم وانهم يأكلون مابقى من مائدتى ويأخذ كل واحد جبة سنويا فى عيد النيروز فما الذى يلزمهم زيادة على ذلك

(قال الحاج بابا) وبينما الحكيم فى لهجته اذ دخل عليه أحد مشاة الشاه حاملا على يده صينية من الفضة موضوعا عليها السمانتان اللتان اهداهما الشاه للحكيم وناولهما بغاية الاحترام اليه فقام من كرسيه ووضع الصينية فوق رأسه داعيا للملك باعلى صوته قائلا اللهم أكثر خير جلالته وزدعزه وأطل لنا عمره وبعد ذلك أراد أن يعطى الرسول هدية فارسل له خمسة غروش فردها الرسول باحتقار فارسل له تومانا فلم يقبله أيضا ثم استقر الرأى أخيرا بعد اليأس على اعطائه خمسة تومان حيث هذا المبلغ وجد لائقا به فاخذه وتوجه لحال سبيله وهذه الحالة السيئة أضعفت سروره الناتج من الهدية حتى ان الحكيم تفوه ببعض ألفاظ غير لائقة لو بلغت لمسامع الملك لكانت سببا لوقوعه فى تعب شديد ومن ذلك قوله متعجبا باحتقار ماهذه الهدايا ولا حاجة لى بها فانى أتمنى أن تكون مثل هذه الهدايا فى الآخرة لاننا جارين دفع أجر باهظة نظير ذلك لاتباع الملك وهم عصبة من القوم اللئام الطماعين الذين أزالوا عن وجوههم برقع الحياء ويطلبون

الاحسان بدون شفقة أو خجل والادهى من ذلك ان لم ندفع اليهم ما يرضيهم والا فنكون تسببنا لانفسنا فى الاضرار وانذارنا بمستقبل الانتقام وحينئذ لا نجد من راحم يأخذ لنا بناصر فانى لا أنسى ماقاله السعدى فى حكمه بانك لا تأمن لصحبة عظيم وأمن لمرافقة القطيم فان الاول يغدر عليك من أوهى الامور والثانى يغدر بعض الليل وبالنهار اليك يميل

(قال الحاج بابا) لقد امتلأ الحكيم رعبا وانزعاجا زائدا مما زلف منه من افتتاح كلامه بالفاظ غير لائقة حتى انه مما حاق به الخوف الشديد وضيق الدنيا أمامه قبل على نفسه خسارة الخمس تومان وتجنب ما كان بيديه من الملام خوفا من أن تكون عاقبته عليه بالتلف والخسران فلما رأيته على هذه الحالة استحسنت عدم مفاتحته الآن فى موضوع طلباتى وأن أؤجله لفرصة مستقبلة الا اننى قصدت فى سرى ترك خدمة لقمان عصره عند وجود وظيفة فى جهة أخرى وأن أرضى بحالتى الحاضرة التى لم تعد بمثابة كلب ولا ذئب

﴿الفصل الثالث والعشرون﴾

(عدم اقتناع الحاج بابا بوظيفته واهماله ووقوعه فى العشق والهيام ومكابدته لواعج الغرام)

(قال الحاج بابا) ولكونى غير مقتنع بقسمتى الحالية وجاهلا بمقاصدى المستقبلة فكانت أيامى تمر بالكسل الكلى والاهمال فى تأدية أشغالى لعدم رغبتى فى اتباع خدمة الطب التى تحصل عليها كثير من الناس قبلى بمجرد ارتكانهم على أساس واه لا يأتى بفائدة عظيمة لمستقبلهم كما حصل لى الآن الا اننى اعتنيت قليلا بالتفاتى لبعض من معلومات مرزا أحمق ولو لم تحصل لى الحادثة التى نشأت من حالة اقامتى الغير مناسبة وتسبب عنها

تأخيرى بمنزله لكنت تركت خدمته بوقتها وبحثت على محل آخر وتركت السعى والاجتهاد وقلت من قلة حيلتى ماينفع المال اذا كان العمر فانيا وتمثلت بقول القائل

لا شئ مما ترى تبقى بشاشته * يبقى الاله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه * والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان اذ تجرى الرياح له * والجن والانس فيما بينها ترد
أين الملوك التى كانت نوافلها * من كل ارب اليها وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب * لابد من ورده يوما كما وردوا

وهذه الحادثة قد أوجبت لى حاسيات أبطلت كلية ماعندى من الافكار التى كنت أتدبرها لمستقبل معيشتى وأصبحتنى عبد رق لديهم فكنت أقاسى منهم أليم العذاب وأتحمل من حركاتهم شديد اللوعات حتى اعتقدت حقيقة ان المجنون مهما بلغ فى الخبول لا يفوق عنى فى الجنون وانى بعد هذا كله لا حاجة للتوضيح بان أقول انى وقعت فى شرك الهوى

أرى التحمل شيأ لست أحسنه * وكيف أخفى الهوى والدمع يعلنه
أم كيف صبر محب قلبه دنف * الهجر ينحله والشوق يحزنه
وانه حين لا وصل يساعفه * يهوى السلو ولكن ليس يمكنه
وكيف ينسى الهوى من أنت همته * وفترة اللحظ من عينيك تفتنه

فان الحب لا يخفى على الصب وكفى قول من قال

للحب نار على عينى مضرمة * لم تبلغ النار منها عشر معشار
الماء ينبع منها من محاجرها * يا للرجال لماء فاض من نار

ولكن لم يكن لى حيلة الآن الا السكوت والرضا بما أنا فيه حتى أنظر ما يكون من مستقبلى وأنا أصبر نفسى بهذين البيتين

ألا يا نفس ان ترضى بقوت * فانت عزيزة أبدا غنيه
دعى عنك المطامع والامانى * فكم أمنية جلبت منيه

والسبب فى ذلك كله هو انه لما انتهى فصل الربيع وأقبلت علينا حرارات أوائل الصيف التى تؤثر فيهم أوجبت أغلب سكان المدينة بنقل مفروشاتها على أسطحة منازلهم للنوم عليها واستنشاق النسيم اللطيف ولكونى لا أرغب أن أمضى ليلتى مع الخدامين وهم الفراشون والطباخ الذين أغلب رقادهم سوية فى محل أرضى فللقضاء والقدر فرشت فراشى على جانب سطح يطل على حوش منزل الحكيم الداخلى الموجود به مساكن النساء وهذا الحوش كان مربعا وجميع شبابيك المحلات محيطة به من الاعلى ومزروع فى وسطه أشجار الورد والياسمين والحور وغير ذلك ويتخلله من الوسط كوشك مربع من الخشب يفرشونه بالمراتب للجلوس فيه وقاية من الحر الشديد وقد نظرت جملة من النساء جالسات متفرقات فى جوانب الحوش ولم يحصل لى أدنى تأثير منهن أو انجذاب قلبى مطلقا لاحداهن وبذا لا ألتفت اليهن وبحيث لو داومت على ذلك لحرمت من مشاهدتهن ولو انكشفن على أمرى لتراكمت على المسبات واللعنات من كل جانب ويدعوننى باقبح ما يمكنهن من الالقاب

وقد حدث فى احدى الليالى بعد غروب الشمس بينما أفرش فرشى اذ لمحت بالصدفة من خرق بسور السطح مشقوق للسقف امرأة مشتغلة فى توضيب ونشر ورق الدخان وكان برقعها الازرق ملقيا على رأسها قليلا وعندما همت للقيام وهى منحنية فكانت ضفائرها المترسلة فوق جبهتها سائلة برونق لطيف جدا مغطية وجهها تقريبا الا أن أغلبه مكشوف حتى ان هذه الهيئة أوجدت لى شوقا زائدا لمشاهدة باقى وجهها حيث كل ما رأيته فيها يشير على جمالها وحسن قوامها فكانت صغيرة اليدين مصبوغة بالحناء

وكذلك صغيرة القدمين وشكلها وصفاتها تدل على شدة حسنها وظرفها فتفرست فيها مليا ولم أتمالك نفسى من النظر اليها لما لحقنى من هواها ومشاهدتى حسن محياها فلما أضرمت نار حبها فى فؤادى صحت متأوها من شدة العذاب لعلها تشفينى برد الخطاب وعندما سمعتنى تطلعت نحوى فى الحال فاخذها الخجل والخبال ومدت يدها تستر وجهها ببرقعها فتمكنت فى أثناء تغطيتها مشاهدة قوامها الفتان وجمالها الهتال حتى أصابتنى بسحر عينيها واشتعل اللهيب فى قلبى من ورد خديها وقد سترت نفسها بغيظ ظاهرى لانى شاهدت انها كانت تساوى برقعها باجمل وضع وأحسن صناعة حيث انها تركت محلا كافيا مظللا حول عينيها المتلألئة تنظرنى بهما وتشرح هيجانى وتزيد توقد نيرانى

ومانسيت وما أنسى تبسمها * وملبس الجو غفل غير ذى علم
حتى اذا طاح عنها المرط من دهش * وانحل بالضم عقد السلك فى الظلم
تبسمت فاضاء الجو فالتقطت * حبات منتثر فى ضوء منتظم

فلما استمريت متطلعا اليها باهتمام نبل مقلتيها وهى مع ذلك مشتغلة بما لديها ضجرت منى وقالت بعد ان انثنت كالغصن الرطيب ومالت ما سبب نظرك ألم تعلم أنه حرام وموجب لارتكابك الآثام فصحت قائلا لها يا قرة العينين وحق الامام الحسين لا تحرمينى من هذا القوام فليس فى العشق من حرام فان عيونك السود كوت فؤادى وتبدل نومى بالسهاد فحق أملك وغربتى فى البلاد تسمحى بنظرة بجميل محياك وتحيى فؤاد عبد أمسى من أسراك فاجابتنى بصوت أرق ونغمة ألين من ضرب العود بل أدق لماذا تسألنى لتنظر لوجهى وأنت تعلم حرمة ذلك وما ينتج منه من المهالك وتحريم الاجنبية على الاجنبى وأنت لست بزوجى أو أخى أو أبى سيما لا أدرى من أنت ومن أى البلاد أتيت ألم يأخذك من ذلك عار حتى

تخاطب جارية من ذوات الحشمة والاعتبار فما أتمت كلامها الا وسقط عن وجهها لثامها مظهرة عدم التعمد فى وقوعه فتمليت من مشاهدة وجهها وجماله وماحوى من الحسن الذى ماكنت أتصوره بتمامه فهمت بوصفها قائلا .

لله اية ظبيـــة صادفتها * فسبت فؤادى بالجمال المفرد
مذ أرسلت لحظا وماس قوامها * صرت القتيل بعامل ومهنـد
لما رأتنى هائما فى حـــبها * كشفت قناعا عن محياها الندى
فنعمت فى روض الجمال بنرجس * من لحظها و بخـدها المتورّد
كلا وزجاء الحواجب ان رمت * عن قوسها سلبت فؤاد الاصيد
والانف مثل السيف زاه حسنه * والثغر بالدر النفيس منضـد
ولها عقيقة مرشف من تحتها * وشم يضـــل بناسك متعبد
فضح الهـلال جبينها لما بدا * من تحت طرة شعرها المتجعد
طالعت فى الغزل الرقيق فلم أجد * كصفاتها وأظنها لم توجـــد
كم تاه فى ليـل الذوائب عاشق * لولا السـنا من وجهها لم يهتد
لو يسمع الشعراء حسن حديثها * لنسوا به طربا ملاحن معبد
لو أنعـمت يوما بايسر نظـرة * أهدت شـفاء للعيون السهد
فوددت من طربى أطير لوانها * كيما أفوز بلمس قد أغيـــد

فازداد شوقى نحوها وكدت أقترب منها لولا سماعى اسم زينب يتكرر المرار بلا اصطبار بصوت عال رنان فلما سمعت معشوقتى اللطيفة قامت من مكانها وذهبت لمن ينادى لها أماأنا فتسمرت فى محلى الذى نظرتها منه أولا وانتظرت مـدة طويلة مؤمـلا عودتها فلم ترجع فالقيت آذانى أستنشق خبرها بين الصيحات الحاصلة فما سمعت شيأ عنها الا صوت غضوب يتردد بعنف وقـوة يتهدد ويرعب النسوة فعلمت انه لاشك صوت زوجة الحكيم وهى

امرأة يقال عنها انها أقل جمالا من أهلها وان زوجها المسكين فى قبضة يدها وخاضع لامرها

فلما انتهى النهار وأتى الليـل بالاعتكار وقت لتجهيز فراشى وأنا قاطع اليأس من عودتها اذ سمعت ثانيا صوتا يقول يازينب أين تذهبى ولماذا لم تدخلى لفراشك

فطرق سمعى جيدا اجواب معشوقتى وبحال تذكرى ماوقع منها نظرتها على السـطوح فحصل فى قلبى خفقان وضربات زائدة وعزمت على نط السور الفاصل بيننا فلم يمنعنى عنها الا كونى رأيتها أخذت سلاملو أدخانا وتأخرت بسرعة والتفتت نحوى وقالت بنغمة رخيمة الصوت موعدنا باللقاء غدا فى المساء ثم مالت وانثنت وعن عينى اختفت فاضطرم فى جسمى اللهيب من حسن ألفاظها ورقة نغماتها بحالة لم يسبق حصولها الى وكأنى أخاطب بقول القائل

صادتك من بعض القصور * بيض نواعم فى الخدور
حور تحـور الى صـــبا * لذ باعـين منهن حور
وكأنما بشغورهن جـنى الرضاب من الخمور
يصبغن تفاح الخـدو * دعماء رمان الصـــدور

هذا ولم أمل من تكرار ماقالت وأنا أترنم أبياتا بما وعدت

وافت وقد رأت العذول بمرصد * فثنت وأومت بالتلاقى فى غد
ياحسنه وعدا ولكن قبـله * ليـل يطول بلوعة وتسهد

ثم لعبت بى أيدى الغرام وأوردتنى مناهل العشق والهيام وهى تخيل لى ما كان من معشوقتى

سألتها حين زارت نضو برقعها الـ * ـصافى وايداع سمعى أطيب الخبر
فزحزحت شفقا غشى سنى قمر * وساقطت لؤلؤا من خاتم عطـر

فلما جن الليل واشتد بى الهيام تبحرت فى بحر الغرام وكنت كلما أخوض لجة تزداد النار فى فؤادى اضطرام حتى غشى على ولم أدر بنفسى وسقطت ملقيا على فرشتى وقد أيست من انقطاع نفسى ولم أتيقظ الا فى الصباح ففتحت عينى ووجدت أشعة الشمس فى وجهى

﴿الفصل الرابع والعشرون﴾

((اختلاء الحاج بابا بمعشوقته زينب اللطيفة ومسامرتها معه عن حالتها وصرف أوقاتها بمنزل الحكيم))

(قال الحاج بابا) فقلت فى نفسى بعد مسح عينى من النوم أهكذا أقع فى المحبة ولكن صبرا حتى أنظر ما ينتج منها وأسألها هذه الليلة عن حالتها وصفتها وكيفية معيشتها واذا وجدتها من جوارى الحكيم فبخراب بيته ان لم أعلمه كيفية التحفظ على أمتعته أما من جهة الزواج فيستحيل لرجل أن يعرض ابنته أو جاريته لزواجى لانى لحد الآن ليس لى مقدرة لشراء لباسين أستتر بهما وغير ذلك فانه يلزمنى على الاقل القيام بمصاريف الفرح ولكن عشمى من الله سبحانه وتعالى حصول ذلك عند اقتدارى على جمع بعض دراهم وليس لى الآن الا التحيل بالطرق العشقية التى يلتزم بها الحكيم على دفع المصاريف

ثم قمت من فراشى بهذا العزم ولبست ملابسى بغاية الاعتناء فوق العادة ومشطت ضفائرى وصلحتها باحسن وضع وساويت حزامى جيدا ووضعت طربوشى على رأسى مائلا من جهة ولففت فرشتى وحملتها الى قاعة الخدامين وخرجت الى المنزل قاصدا الاستحمام ليزداد رونقى حلاوة وأستعد لاستقبال هذا المساء ومقابلة معشوقتى الحسناء

فتوجهت الحمام وأمضيت فيه أغلب النهار بالغناء والترنم بالاشعار ومشيت

أتسلى فى شوارع المدينة أصرف الاوقات لاقتراب الميعاد وأنا طائش العقل لا ألتفت لشئ

هى شمس النهار فى الحسن الا * انها فضلت بفتك الطراف
غضة بضة رخيم لعوب * وعشة المتن تخنة الاطراف
زانها دلها وثغر نقى * وحديث مرتل غير جاف

ومازلت على هذا الحال حتى انقضى النهار وقل منى الاصطبار ولم أنتظر فقط الا (الشام) أكل المساء وبعده ادعى بالم فى رأسى وأطلب راحتى ولكن من سوء حظى تأخر الحكيم زيادة عن عادته فى خدمة الشاه ولما حضر وانتهى الطعام وتقدم ما بقى للخدام وجدت الوقت أزف فزاد ما بى من الشغف حيث أخذت الشمس فى الاصفرار والافول وما وصلت السطح وفرشتى تحت ذراعى الا وغابت الشمس وأضاء القمر فطرحتها وفرشتها وجريت وأنا خافق الى الحائط المخروق لانظر معشوقتى فتطلعت منه ولحيبتى النامة لم أر أحدا غيرا كوام الدخان متلخبطة وسلال منتشرة بحالة غير منتظمة يرى منها عدم انتهاء بعض الاشغال فنظرت لزوايا المكان يمينا وشمالا فلم أجد زينب وتنحنحت مرة ومرتين فلم أسمع أحدا الا صوت زوجة الحكيم كان يطرق باذانى وهى تتسلط بقوتها على احدى الجوارى فى منزلها ومع ارتفاع صوتها للسماء واختراقه الاسوار الا انه ما كان يمكننى الوقوف على سبب غضبها وهيجانها لهذا الحد من شدة لهجتها فى الصياح ثم اقترب صوتها نحوى وخرج من المنور فسمعتها تقول

أتكلمينى عن الشغل يا بنت الشيطان ومن أمرك بالتوجه الى الحمام وما الدواعى الموجبة لذهابك الى القبور فاظن انى أنا جاريتك وأنت تفعلى ما يشرحك وما السبب لعدم نهو شغلك فاعلمى انك لا تأكلى ولا تشربى ولا تنامى ما لم تخلصيه فاذهبى حالا اليه وان أتيت قبل خلاصه فوالله وبالله

والنبى لاضربنك على رجليك حتى تتساقط أظافرك

(قال الحاج بابا) ثم تلا ذلك الصوت الشديد طرد وتهديد وفى الحال لحت معشوقتى اللطيفة آتية الى مكانها والحزن ظاهر على وجهها وكنت فى هذه الدقيقة أيست من مشاهدتها وتهنئتى بحضرتها وقد قام بى من الهيجان ما أوقد بجسمى النيران فانشأ لسان حالى يستعطف خاطرها حيث قال

أزينب لا تصغى لقول المفند * فليس عذول فى الغرام بمرشد
أزينب ان طال التهاجر بيننا * خف الله فى قتل المحب المسهد
أزينب ان أضنيت جسمى كأنما * لطول الضنا أغريت بالنوح عودى
أزينب مالى فى الصبابة منصف * سوى الوصل ان الوصل منك لمسعدى
أزينب ان القد بيد وكعامل * ولحظك يسطو مثل نصل مجرد
أزينب مهلا ليس بالقلب مسكة * فيقوى على رمح وسيف مهند
أزينب ان لم تسعفى الصب بالمنا * وتوفى خاطرى الغداة بأسعد
أزينب أفديك بنفسى وأسرتى * وأهلى ولا أرضى طريقى ومتلدى
أزينب مذ قلت الغداة لقاؤنا * فبت وكم حن الفؤاد الى الغد
خليلى ان الصب صعب مرامه * وان بات فى وعد وفى غير موعد

وقد تبين لى ان ما أجرته معشوقتى من الحيل والتدبيرات واستمرارها بدون ان تخشى عاقبة أمر مخيف هو بقصد اجتماعنا وان كانت نظرتنى الا انها لم تلتفت نحوى لحين انفضاض الصياح الحاصل فى بلوك سيدتها

هذا وبعد ان سكن الصياح أومت الى بالحضور فلا يخفى على ذهن المطالع حالتى فى هذا الوقت وتلهفى فانى أسرعت لجانبها فى أقل من طرفة عين ولم يعلم مقدار ما تداركنا من الفرح والسرور لما نحن فيه من الهيام الا الذين كابدوا العشق وقد ظهر لى من سياق حديث معشوقتى انها ابنة أحد رؤساء

الاكراد استأسر مع عائلته وخدمه ومواشيه وكانت اذ ذاك حديثة السن لا تدرك شيأ ومن ضمن حكايتها التى ستقصها انها وقعت فى يد الحكيم الذى هى الآن جارية له

ولما هدأ ما جاش من هيامنا واطمأن خاطرنا بلقائنا ابتدأت زينب تذكر ما تم من الكدر الناشئ من سوء معاملة سيدتها لها الآن فقالت

(آه) ألم تسمع يا حاجى ما نسبتنى اليه تلك المرأة عديمة الايمان فهكذا معاملتها لى دواما وهى لا تمل من لعنى وتعنيفى حتى أصبحت أقل من الكلب وكل واحدة تهزأ بى وتسخر على ولا يقترب منى أحد وقد ذاب كبدى وصار كالماء وآلت روحى تبلغ التراقى ولم أعلم الموجب لنسبتى بابنة الشيطان وأنا كردية ويزيدية وحقيقة أخاف الشيطان وأتوقاه ومن الذى لا يخافه الا انى لست ابنته (لان اليزيدية قبيلة من الاكراد ويقال انها تعبد الشيطان) آه وا أسفاه لو كنت أقابلها على جبلنا لترى ماذا تفعل البنت الكردية من القوة والشجاعة ثم بكت وأنت واشتكت ولسان حالها يقول

يادهر ويحك كم أطلت تلهفى * وتشوقى للاهل والاوطان
اذ كان فيك أبى زعيم عشيرة * وأشدهم بأساليوم طعان
يحمى النزيل نهاره وبليله * ما نام غفلا عن قرى الضيفان
واها لعز كان يعهد انه * مالا يصاب بطارق الحدثان
فعدت عليه الحادثات بغزوة * شعثاء ما كانت على الحسبان
ظفر العدو بها وساعده القضا * فاستأصلت بالاهل والاخوان
ياويل قلبى من خطوب فرقت * من شملنا بددا بكل مكان
أودى أبى واستأسرت أمى وقد * حلت بشاسعة من البلدان
وغدوت فى أيدى الذى يستامنى * من بعد عز ذلة بهوان
فعسى الهى ان يمن بجمعنا * ما خاب عبد لاذ بالرحمن

فاجتهدت فی تسلیتها بقدر امکانی وتلطیف غضبها الحین ماتتمکن من فرصة تنتقم منها بنفسها فاستحالت حصول هذا الامر کلیة لترقبهن الزائد الی جمیع أفعالها وسیرها وانها لاتسلك من أودة الی أخری بدون علم سیدتها ثم قالت زینب ان أصل زواج سیدتی بالحکیم هو ان الملك غضب علی احدی الجواری (وهی سیدتی) فطردها من الحرم الملوکی لسوء سلوکها وأمر انها تتزوج باقل الناس فلم یجدوا غیر الحکیم فتأهل بها ولم تدخل له بشیء من النفائس سوی قبح الطبع وجزء عظیم من الکبر تظهر به سلطتها السابقة فی حرم جلالته ولذلك فانها تعتبر زوجها الحالی أقل قیمة من التراب الذی تحت قدمیها ومتسلطة بکبرها علیه وهو فی یدها بحالة یرثی لها من الخضوع والذل وانه لا یتجاسر بالجلوس فی حضرتها مالم تؤذنه ولا یکون ذلك الا نادرا بخلاف مابها من الغیرة الزائدة ولم توجد جاریة فی حرمها الا ویداخلها الوسواس من جهتها لشدة غیرتها

ومن وجه آخر فان الحکیم الذی ازداد طمعه واکتفی برفعة شأنه وعلو قدره أصبح عرضة لاوهان الطبیعة البشریة وبذا صار لا حظ له ولا احساس لمیل طبیعته لمشاهدة محاسن وقدود جواریه الحوریة وقد أخبرتنی زینب نفسها انها کانت فی أوائل الامر مطمح انظاره وافکاره الوحیدة وبذلك لا تسمح له زوجته من شدة غیرتها بالنظر أو الاشارة الیها بشیء ولو بمجرد الایماء بخلاف ماهو حاصل من التجسس الکلی فی الحرم عند توجه زوجه الحکیم الی الحمام أو الجامع فانها تحترس جدا بان توزع الجواری علی الاشغال کما تقتضیه الظروف والاحوال مثل مایصیر تجهیز استعدادات لاعمال فرح ونیاط کل منهن بأمر

(قال الحاج بابا) ولکونی لم أر مطلقا مصالح داخلیة مثل هذه أکثر مما رأیت منذ صغری فی منزلنا لحد الآن فاخذنی العجب من ذلك والذی

أدهشنی زیادة هو ما سمعته من ضمن تاریخ حیاة زینب اللطیفة فی منزل الحکیم وهو

(قالت زینب) اننا خمسة جواری بخلاف سیدتنا داخل الحرم وهن شیرین (أی الجمیلة) الجاریة الجرجانیة والشابة نورجهان (أی نور الدنیا) الجاریة الحبشیه وفاطمة الطباخة ولیلی العجوز القهرمانة أما وظیفتی فهی بصفة خادمة أمام الخانم (وبذلك تسمی سیدتی لان معتبری العجم یلقبون زوجاتهم بهذا الاسم) ومما یجب علی أداؤه التفاتی لشبکها ومناولتها القهوة وادخال الطعام وتوجهی معها الحمام وتلبیسها وتقلیعها ومسح ملابسها وتصلیحها وفرك التبغ ووقوفی امامها

أما (شیرین) الجرجانیة فهی بصفة صندوقدار (حافظة المنزل أو خزنداریة) ومن خصائصها التفاتها لملابس سیدی وسیدتی بل وملابس عموم الحرم أیضا وملاحظة المصاریف وتخزین غلال المنزل ومایلزم من المؤنة وفی عهدتها الصینی والفضة والاوانی وبالاختصار فانها مختصة بکل أمر سواء کان ذاقیمة أو من متعلقات العائلة

أما (نورجهان) فهی لوانجیة (فراشة) وعلیها تنظیف الاوساخ وفرش السجاجید وکنس الاودورش الحوش ومساعدة الطباخة وتحمل البقج والرسائل وانها معدة لمساعدة کل من یدعوها

وأما (لیلی) العجوز فهی بصفة کیخیة (رئیسه) علی جمیع الجواری ومصلحتها خارج المنزل فانها تقوم بقضاء المهمات الصغیرة التی تلزم للخانم من عائلات المنازل الاخر والمظنون فیها انها جاسوسة علی أحوال الحکیم وسلوکه فی الحرم وهکذا تنقضی علینا أیامنا بالمجادلات والمشاجرات المکدرة وانه فی بعض الاحیان یتحد جاریتان منا مع بعضهما و یتفقا غایة الاتفاق بالصحبة المتینة علی مضادة رفقائهما بقصد طردهن وحرمانهن

من التفات سيدتهن

والآن حاصل بيني وبين الجارية الجرجانية شقاق عظيم وسبب ذلك انه لما تمادى عليها الزمن ورأت ان أيامها انقضت عليها بالشؤم وعدم القبول عند سيدتها عملت كل حيلة للحصول على حجاب محبة من أحد الدراويش وبعد استحواذها عليه في أسرع مدة لم يتم ثاني يوم الا والخانم أهدتها بصلاطة وقد أوجب هذا الامر عندي غيرة شديدة حتى بذلت ما في وسعي للاتفاق مع الدرويش بان يكتب لي حجابا يحبب لي زوجا صالحا وفي مساء ذلك اليوم الذي أحضره لي الدرويش نظرتك على السطح فاستبشرت بتحسين حالتي وقد وقعت مسئلة أسست بيني وبين شيرين المنافسة وكانت عاقبتها البغضة والعداوة وأصبحنا الآن من أشد الاعداء نتمنى موت بعضنا بعضا انما يحتمل في زمن مستقبل العودة للمحبة ثانيا في لحظة واني الآن في غاية المحبة الثابتة مع نورجهان وبالنسبة لاغرائي لها فهي جارية القاء الفتن والدسائس للخانم واخبارها بوقائع قبيحة ضد عدوتي المذكورة

أما السبب الناشئ عنه هذه العداوة هو انه تصادف في احدى الايام اعمال بعض حلويات وفطورات في السراية الملوكية ولندرة صناعتها أرسلت احدى حرم الشاه جزأ منها هدية لسيدتنا فامرتنا بالتحفظ عليها فتسلطت عليها الفيران وأكلت منها قسما كبيرا ولما سئلنا عن ذلك نسبنا الاهمال والذنب الى الجرجانية فغضبت سيدتنا لهذا الامر واغتاظت منها وأمرت سيدتنا نورجهان بضربها فالقوها الجواري على الارض وقامت نورجهان بامر سيدتها

وأما أنا فكسرت كأس الشرب تعلق سيدتي وكان عزيزا عندها فاصدقت ان رأت شيرين ذلك الا وأبلغت سيدتها وأرتها اني أنا المتسببة في كسره فالزمتني بشراء كأس غيره واني أعلم انها مازالت للآن تلقي الفتن وتدس

الدسائس ضدي نظرا لتقربها من ليلى وصحبتها معها لكونها محبوبة عند سيدتنا في هذه الايام ولذا فاني في غاية الاحتراس من عدم أكل وشرب شئ من يدها خوفا من السم وهي تقابلني أيضا بمثل ذلك ولم تبلغ درجة التسمم هنا فقط لا بل فان عموم العائلات الاخر يتخذون الاحتياطات عند حصول ما يماثل هذا الامر بينهم

وأيضا قد وصلت المسئلة من مدة أيام لضرب بعضنا بالكفوف لانها فورت غضبي وهيجتني ببصقها علي وقولها لي (لعنت بي شيطان) اللعنة على الشيطان تريد بذلك اغاظتي ولا يخفاك يا حاجي ان هذه أعظم مسبة لليزيدية فاشتد لذلك غضبي وطار عقلي وهجمت عليها ودعوتها باقبح الاسماء التي تعلمتها باللغة الفارسية ولويت شعرها على يدي وجذبته فقلعته من جذوره ولم يفرق بيننا الا (ليلى) التي كان لها نصيب من المسبة بعد ان استمرينا نلعن ونسخر بعضنا مدة طويلة حتى يبست أزوارنا من شدة الغضب والصراخ وكدنا نقطع النفس وقد هدأ روعنا وشفي غليلنا لحد الآن بهذه المشاجرة ولكن كراهتها الى الآن لم تنقص لانها مازالت تظهر سلطتها في النميمة ضدي في أي وقت تتمكن من القائها للخانم بواسطة صاحبتها ليلى

(قال الحاج بابا) ومازالت زينب تتسامر معي بهذه الحالة بقصد تسليتي حتى لاح الفجر الاول وسمعنا المؤذن يؤذن في الجامع لاجتماع المصلين فاستحسنا مفارقة بعضنا خوفا من كشف سترنا بعد ان تواعدنا بالمقابلة في أي وقت يسمح لنا بذلك واتفقت معي انها عندما تجد وقتا بواسطة تدبيراتها لنتمكن فيه من اجتماعنا ثانيا فتعلق برقعها على فرع شجرة في الحوش أتمكن من نظره من السطح وان لم أجده فيكون ذلك دليلا على عدم المقابلة تلك الليلة وافترقنا بهذا الشرط

﴿الفصل الخامس والعشرون﴾

((اجتماع العاشقين ثانيا وما حصل لهما من الانبساط وانشاد الحاج بابا الاشعار))

(قال الحاج بابا) فطلعت فى مساء الغد على السطح مؤملا رؤية ماييننا من الاشارات التى اتفقنا عليها ولكن تأسفت جدا لعدم رؤية البرقع معلقا على الشجرة فجلست على الارض قاطع اليأس ولم أر الدخان وآلات التنظيف فى محلها ووجدت البيت ساكنا ليس به صوت آدمى لا ولا صوت زوجة الحكيم الذى لا ينقطع مطلقا فكنت فى هذا الوقت أرقب سماعه حيث تهيأ لى انه أطرب والذ صوت موافق على وجه الارض لتلذذى بسماعه وان الطبيعة البشرية فى حاجة اليه وأيضا رنة النعال التى لا أشك فيها انها ناشئة من دبيب ليلى العجوز اذ انها علامة على وجود أحد بالمنزل

ومازلت على هذه الحالة حتى طرق آذانى بالتعاقب صوت موسيقة الملك على بعد وضرب الطبول وقعقعة الترمبيطات وكان كل ذلك دلالة على غروب الشمس وبعدها سمعت جملة مؤذنين مختلفة يدعون المصلين لصلاة المغرب هذا ومعظم افكارى متجهة للوقوف على خبر معشوقتى

واستمريت منتظرا حتى سمعت أيضا طبل الضابطة تأمر الناس بقفل دكاكينهم وتوجههم لمنازلهم وكذلك كنت أسمع مناداة الدورية التى تخفر الملك على أسوار السراية من مسافات بعيدة وقد جن الليل واحتبك الظلام ومع كل فان منزل الحكيم فى غاية السكون ولم أشعر بدبيب أحد فيه فقلت فى نفسى ياترى ما الداعى لذلك كله فلو فرض وتوجهوا الحمام فانهم لا يتأخرون لهذا الوقت ومع ذلك فان حمامات النساء لا تفتح الا فى الصباح فقط انما لابد وانهم جاريين اعادة مريض أو توجهوا فى عرس أو ولادة أولربما توجهوا

للمدفن

للمدفن أو يحتمل ان الحكيم أتت له داهية وبينما أنا على هذه الحالة وقد قتلت نفسى من الافكار اذ سمعت الباب يطرق بقوة على حين غفلة وبمجرد فتحه قعقعت الشباشب وعلت أصوات جملة نساء مختلفة ومن ضمنها صوت الخانم المشهور بدمدم ويهمهم عليهن كالصاعقة وكان بينهن جملة فوانيس من الامام والخلف وقد أظهر لى نورها هيئة النساء حتى انه بحال رفع براقعهن من فوق وجوههن تحققت من مشاهدة زينب معشوقتى

فقلت فى نفسى لابد من الانتظار لعلى أحظى وأتبارك بمؤانستها قليلا حتى ظهرت بقوامها المياس وسارّرتنى بكل احتراس بقولها ان دواعى الاحوال تمنعنا عن المجانسة فى هذا الوقت ولا يمكنها التأخير وانها تجتهد فى تدبير حيلة للاجتماع فى وقت آخر ثم أخبرتنى بغاية الايجاز ان أسباب خروجهن هو أن سيدتها أتاها خبر أختها وهى احدى الستات الموجودات فى سراية الشاه انها فاجأها المرض وقضى نحبها الساعتها والمظنون ان موتها تسبب عن تعاطى السم بواسطة أحد أعدائها وانها أخذت جميع جواريها صحبتها لكى ان تزيد بهن غاغة الحزن الذى تعودوا على اجرائه فى مثل هذه الاحوال وتوجهن وقت الظهر وصرن يصحن ويصوتن بقوة وقد امتلا الجو بصياحهن وكاد أن يخرق الهواء من ضجيجهن ومازلن على هذه الحالة حتى اخشنت وبحت أصواتهن وان سيدتها مزقت ملابسها تريد بذلك أداء فروض التعبية للعزاء وانها لما تأملت فى الفستان الذى عليها انه ذو قيمة عظيمة أمرت بشق فلقتين أو ثلاثة منه وبما ان تشييع الجنازة سيكون فى ثانى يوم فضرورى من وجودهن من صباح باكر هنالك للاستمرار فى اقامة المحزنه ثم قالت زينب على قبول المزاح ان سيدتى ستأخذ مكافأة لها على هذه المصلحة منديلا اسود وتأكل الحلوى وعلى ذلك انصرفت معشوقتى بعد ان وعدتنى انها ستبذل غاية جهدها فى ايجاد

فرصة للمقابلة فى مساء الغد ونبهتنى بالالتفات للاشارة المعلومة

ولما أصبح الصباح وقمت من فراشى وأنا شاخص لجهة معشوقتى فاندهشت جدا لرؤية الاشارة فى هذا الوقت ثم لمحت زينب تشير لى بالذهاب لصوبها فما صدقت ان أسرعت بالنزول من السطح كالطائر اليها من السلم التى كانت تستعمله للطلوع عليه ووجدت نفسى فى لحظة واحدة واقفا فى وسط الحرم فلما أفقت من سكرتى هذه ورأيت نفسى انى فى مكان لا يسمح لاى انسان مهما بلغ فى الوقاحة أن يصل اليه تلبسنى الخوف والانزعاج الشديد ولكن بالنسبة لما كانت تسكن به روعى معشوقتى وتطمن خاطرى بحسن لطافتها ورقة ألفاظها اقويت نفسى وتبعتها

ثم قالت تفضل يا حاجى ودع عنك الخوف والجزع فلا أحد هنا خلاف زينب معشوقتك وان أسعدنا زماننا فلنتآنس يومنا باجتماعنا فى غياب عوازلنا فاجبتها وقد أخذ العجب منى كل مأخذ كيف فعلت ذلك وهل يتأتى منك لهذا الحد فأين الخانم وأين النساء وان لم يكن هنا فكيف الفرار من مخالب الحكيم

فقالت زينب مكررة لا تخف يا حاجى فانى أغلقت جميع الابواب ولو تصادف وحضر أحد فالوقت كاف جدا للهروب قبل الفتح لهن فلا تخش أمرا من هذا القبيل لان جميع النساء توجهن للجنازة واما من جهة ميرزا أحمق فان سيدتى فى أمان من عدم حضوره فى مثل هذه الاحوال بالنسبة للاحتياطات الكلية التى تجريها نحوه ولكونى الآن بالمنزل بمفردى فلا يتجاسر أن يقترب من منزله على بعد فرسخ

ولتعلم يا حاجى بما أراه فيك من الاندهاش العظيم المتلبس بكل جسمك ان جميع ما قدر علينا لابد من انفاذه عما قليل وان أول ساعة رأينا بعضنا فيها لاسعد الساعات حيث من بعدها جميع الامور متيسرة لنا وكل ما نطلبه

نجده سهلا والسبب فى ذلك هو ان الجارية الجرجانية عدوتى أدخلت فى فهم الخانم مسئلة تخصنى اذ قالت لها لما أرادت التوجه للجنازة بما أن ليلى معدة من النواحين المستعدين فى المحازن وانها تعلمت هذا الفن بجميع فروعه منذ صباها فلا يستغنى الحال مطلقا لوجود هذه المرأة فى مثل هذا الوقت ولذا فلها الافضلية فى التوجه بدلا عنى (زينب) بما انى كردية ولا أعرف الا قليلا من عوائد العجم وانها لم تفعل ذلك الا لكراهتى وقصد حرمانى من المنديل الاسود ومنافع أخرى وعلى ذلك تركونى فى المنزل بمفردى وتوجه جميعهن لمنزل المتوفية ومع ما كنت أدعيه من الغضب ومقاومة ليلى فى توجهها بدلا عنى بحدة ظاهرية حمدت الله لاجتماعنا سوية فلنغتنم الآن لذة وقتنا هذا بالانس والانشراح

(قال الحاج بابا) ثم انها توجهت الى المطبخ لتجهيز صينية طعام لفطورى وتركتنى أمتع نظرى وأسلى نفسى بما خفى داخل الحرم عن العزاب مثلى فدخلت أولا الى بلوكات الخانم الخصوصية فوجدتها مطلة على بستان وبها شباك عريض متسع بدرف من الزجاج الملون وباحدى زواياه مخدع معد لجلوسها وعليه سجادة ثمينة مطبوقة نصفين وباسفله وسادة لراحة رجليها مكسية بالجوخ المطرز بالقصب وفى كلا طرفيها زر من السجق الغالى ومغطاة بغطاء من الشاش وبجانب المخدع مرآة لطيفة مدهونة بالبوية الجميلة وصندوق مشتمل على جميع أنواع العجائب وبه زجاجات القطرة وآلاتها الصغيرة وألوان مختلفة من الصينى وزوج علاقات مربوط بهما التمائم وبه من أنواع الزينة ما يلصق بالشعر ويعلق على الجبهة وأيضا سكاكين ومقصات وأشياء أخرى وبالقرب من المخدع وتر وطنبورة وأمام انبومها موضوعة مطبقة فى ركن آخر أبعد من هذا وملفوفة بغطاء من قماش أزرق وأبيض ثم رأيت جملة رسومات بدون براويز معلقة على الحائط وباعلى

سورا المكان رف مزدحم بانواع الزجاج والطشوت وخلافها وعثرت فى ركن آخر على جملة زجاجات من نبيذ شيراز ومن ضمنها زجاجة مغطاة بزهرة يرى ان الخانم شربت منها هذا الصباح لتنعش جسمها وتقوى نفسها المدة الذى تمكثها فى المحزنة

(فقلت فى نفسى) ان النبى عليه السلام لم يراع كثيرا فى هذا المنزل ولكن ذلك مما يجعلنى مرة أخرى أعرف قيمة ما يدعون به رياء امام الناس من الطهارة وثبات الايمان وان حكمنا مع ما يظهره من التقوى الاسلامية واعطاء الجرع والشراب فى الخارج يستعمل بدل ذلك الكمية الوافرة من النبيذ فى منزله

وبحال ما انتهيت من الفرجة على هذا المحل وما فيه من العجائب التى أدهشتنى وعلى محلات الخدم أيضا كانت زينب جهزت الفطور فى أودة الخانم فجلسنا على المائدة قبال بعضنا واتكأت على المخدة السابقة الذكر ولم أجد فى عمرى ألذ من هذا الطعام طعما وصناعة حيث يحتوى على صحن من الارز المفلفل الابيض بلون الثلج وبجانبه صحن من اللحمة المشوية مقطعة قطعا صغيرة وموضوعة داخل شقة كبيرة من الخبز ثم وبطيخة أصبهانية مشقوقة قطعا مستطيلة وبعض من الكمثرى والمشمش وأيضا عجة مسخنة يظهر انها من بقايا طعام وجبنة وبصل وكراث وزبدية من اللبن الحامض وصنفين مختلفين من الشراب وزيادة على ذلك بعض الحلوى وصحن مملوء من العسل الجديد

فلما رأيتها جالسة امامى كالبدر فى ليلة أربعة عشر زاد هيامى وتوقدت نيرانى فابتدرتها بالتحية والتهانى بما عناه لسان حالى

أهلا وسهلا بالحبيب ومرحبا * فلقد وفالى بالوعود وأطربا
أحيا فؤادا كاد يتلفه الاسى * مذ بات فى أيدى الغرام معذبا

لولا الصبا من نحو زينب كان ينـ*ـعشه لاودى طائعا ولولا الصبا
فاستبشرى يا عين باللقيا ويا * قلبى تهنأ فالحبيب تقربا

فاعجبها كلامى وشكرتنى على نظامى ثم صحت وانا أبرم فى شواربى بعد ان تأملت فى الاصناف اللطيفة التى امامى قائلا ﴿وحياة املى يا زينب﴾ انى لفى غاية العجب من سرعة توضيبك هذا الطعام كله فى أقرب وقت وان هذا لفطور يحق تقديمه للشاه فقالت زينب

(آه يا حاجى) أما من جهة هذا فلا تتعب أفكارك بل امدد يدك وتناول منه قدر طاقتك فان السبب فى السرعة هو ان سيدتى أمرت بتحضير الفطور قبل دخول الليل ثم عاودت أفكارها هذا الصباح بالاكل فى منزل المتوفية وتركته لى وما ذلك بكثير اليك فلنأكل فقد طاب الوقت بالانس والانشراح

(قال الحاج بابا) فأكلنا ونحن مسرورون وفرحون ونحن نتسامر بلذيذ الحديث من قديم وحديث وتركنا جزأ يسيرا منه على حسب العادة احتراما للمائدة ربما يأتى أحد من بعد نا يريد الاكل وبعد ان غسلنا أيدينا وضعنا النبيذ امامنا وخلعنا العذار وكشفنا عن الهوى الاستار ونحن نهنى بعضنا باجتماعنا حيث وجدنا انفسنا فى خلوة بعيدة عن فكر الرقيب ومتمتعين باعظم لذة ونقول اننا الآن أسعد الناس على وجه الارض ثم انها مدت يدها الى طبق الفاكهة وناولتنى تفاحة فاخذتها وقبلتها ووضعتها أمامى وعدت للعود وصلحته وغنيت

فديت من حيا بتفاحة * كأنها فى اللون من وجنته
نسيمها يخبرنى انها * تسترق الانفاس من نكهته
لما حكت نوعين من وصفه * قبلتها شوقا الى رؤيته

فاعجبها كلامى وأخذت سكينا وشطرتها نصفين ووضعت منها قطعة فى فى

فأكلتها وغنيت هذين البيتين

أعطت يداه محبه تفاحة * تعطى المحب امانه من صده
فعلمت حين لثمتها من كفه * انى سألثم مثلها فى خده

فقالت لقد أجدت فى المقال وأحييت قلبا أبراه السقام ثم أشارت الى الكمثرى وقالت بم تصف هذا القوام فقلت

وكمثرى تراه حين يبدو * على الاغصان مخضر الثياب
كثدى مليحة أبدته تيها * له طعم ألذ من الشراب

فمالت عجبا وانثنت طربا وأخذت سفرجلة من الطبق وقطعتها كالحلق وناولتنى قطعة وقالت كيف تجد هذا المذاق أيها العاشق المشتاق فقلت

حاز السفرجل أوصاف الورى فغدا * على الفواكه بالتفضيل مشكورا
كالراح طعما ونشر المسك رائحة * والتبر لونا وشكل البدر تدويرا

فقامت واعتنقتنى ومالت علىّ وقبلتنى وقالت لقد شفيت الفؤاد بعد ان أحرمتنى طيب الرقاد ولم يبق عندنا غير المشمش فهل لك من واحدة فانه للقلب منعش فقبلتها وقبلتها وقلت

ومشمش جاءنا من أعجب العجب * أشهى الىّ من اللذات والطرب
كأنه وهبوب الريح تنثره * بنادق خرطت من خالص الذهب

ثم انها ملأت كاسا من النبيذ وناولته لى فشربته وأعقبته بالثانى والثالث حتى تخيلت أمامى انها من الحور فاخذت العود وغنيت هذين البيتين

وكردى اللحاظ تر وم قتلى * عقارب صدغه فاقول رومى
ومن شغفى بحسن القد منه * أغار على الغصون من النسيم

فلأت كاسا رابعا وأرادت تناولنى اياه فاقسمت عليها بشربه وملأت لها آخر فشربته فزاد خدها فى الاحمرار ومن شدة انبساطها أخذت العود

وضربت عليه جملة أدوار ثم قالت زدنى سرورا بما عندك من لطائف الاشعار فان هذا ما يولد الافراح ويطيب به شرب الراح فاخذته منها وأصلحته وغنيت هذه الابيات

أدم يارب خلواتى بحبى * لاقضى بالتواصل منه دينى
ولا تجعل هناك سوى لسانى * سفيرا بين أحبابى وبينى
وان قدرت انسانا يرانا * بحقك فليكن انسان عينى

فقالت لا تخف أيها الحبيب فليس هنا من رقيب فعند ذلك اشتد بى الفرح والسرور ولعبت بعقلى الخمور وعدت للعود بعد ان وضعته جانبى ونسيت محذورات مستقبلى وأصلحت أوتاره وغنيت أبياتا من كلام الحافظ تعلمتها فى صغرى وكنت اغنى بها فى الحمام لاطرب بها من يسمعنى وهى شبيهة بقول محمد بن العفيف حيث قال

سهر العيون يلذ للمشتاق * والسقم خير ملابس العشاق
فاختر سهادك فى الهوى عوض الكرى
واختر فناءك فى جمال الباقى
وصل المدامة والنديم ومنزل الشهانات واخضع ساجدا للساقى
واسكن جنان الخلد بالنار التى * لم ترم غير الهم بالاحراق
صهباء ترمق من جفون حبابها * من غير ماهدب ولا آماق
يسعى بها الدن القوام مهفهف * كالغصن ماس مرونق الاوراق
أحداقه ملئت من الاقداح أم * أقداحه ملئت من الاحداق

فما انتهيت من غنائى الا وانطربت ومالت وانثنت وغشى عليها فلما أفاقت قالت انها لم تر سرورا ولا لذة مدة حياتها أحسن من هذه الساعة وانها نسيت ان كلا منا أقل الناس ذلا واحتقارا وانها جارية فى الاسر وأنا أحوج جميع أهل العصر ومازلنا على تلك الحالة والخمر يلعب بعقولنا حتى تهيأ لنا

ان جميع الادوات التى حولنا هى ملك لنا والخمر وعشقنا لا ينقضيان مدى الدهر هذا و بعد ان غنيت جملة أدوار ونحن نملا كاسا بعد كاس حتى افرغنا الزجاجة وجدت الوقت فسيحا فتشوقت لسماع تاريخها فقلت لها ((يا زينب)) لقد وعدتينى من مدة ان تحدثينى بتاريخك وماجرى لك وأسباب أسرك وطلوعك من بلدك لحد الآن لانى أرى ان هذا الوقت أسعد الاوقات وفيه تستحب المسامرات سيما ما حصل لك من المخاطرات بما ان اجتماعنا بالليل غير معلوم بالتحقيق فاجابت طلبى بغاية البشاشة وهى مسرورة الخاطر وقالت ان رحلتى عجيبة وحكايتى غريبة وما فيها من المخاطرات والمشاق تدعى الناس لسماعها بكل اشتياق فالق الىّ آذانك واسمع يا حاجى بابا تاريخى الذى لم يطرق مثله لاسماعك

((انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثانى وأوله الفصل السادس والعشرون فى تاريخ زينب الجارية الكردية))

((التفات))

من أراد الحصول على الجزء الثانى فعليه أن يدفع خمسة غروش البناوذلك للمشترك وسبعة غروش لغير المشترك لغاية صفر سنة ١٣٠٩ ومن رغب الجزءين معا فليدفع عشرة غروش و بعد هذا الميعاد يكون ثمن الجزء الثانى عشرة غروش لعظم حجمه عن الاول

هذا وأرجو من اولى الالباب أن يغضوا النظر عما يروه من الهفوات فانى مازلت مقرا بالعجز والتقصير وأسأل الله أن يرد غيظ القادح فى نحره ويكفينى مقالة حضرة صاحب نهاية الارب فى شعر العرب حيث افتتحها بالرد على القادح وقال ملخصا

قادحيك معاصريك   لطفى

((اللطائف الاصبهانية والمنن التوفيقية))

((فى رحلة))

((الحاج بابا الاصبهانى داخل الممالك الفارسية))

((ترجمت بقلم))

(حضرة محمد افندى لطفى تلغراجى المعية السنية)

للحاج بابا رحلة * فيها بدائع للادب
كانت بزاوية الخمو * ل من اللغات لها حجب
فجلوتها للناظر * ين بحسن ألفاظ العرب
فأتت تهادى كالعرو * س تميس فى حلى الذهب
فاغنم أخىّ وصالها * كى ما تنال بها الارب

((الجزء الثانى))

((الطبعة الاولى))

(بالمطبعة الخيريه سنة ١٣٠٩ هجريه)

(الموافقة سنة ١٨٩٣ افرنكيه)

(ماشاء الله كان)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الفصل السادس والعشرون تاريخ زينب الجارية الكردية﴾

(حدثت زينب فقالت) أنا بنت زعيم مشهور فى كردستان اسمه أوكوس أغا وربيت بين نساء أخر من العشيرة ولذلك لم أقف لوالدتى على ترجمة حال وأول رفيقة اصطحبت بها فرس صغيرة كانت لنا تقيم معنا فى الخيمة بمنزلة الجار فى البيت لكونها ولدت لنا من أحسن الخيول العربية الاصائل وكنا نعاملها مثل معاملة واحدة من العائلة حتى انه خصص لها أعظم محل فى الخيمة وكانوا يلبسونها أحسن الملبوس وكان معتنى بها فى أسفارنا فلم يمض زمن قليل الا وقد نفقت هذه الفرس فحزن عليها والدى وجعه فقدها حتى أدى ذلك لان يبغض له هذا الجنس الذى يذكره بتلك الفرس التى كان يضرب بها المثل فى جهات كردستان وقد حصل لنا من تقلبات الزمان ما حصل بسبب حيازته من بعدها فرسا أخرى سأحدثك بخبرها الآن

(اعلم) ان الاكراد وان لم يخضعوا لاية دولة ولكن أجدادنا اعتادت على رعى قطيعها وضرب خيامها فى جهة من جبال كردستان تابعة للترك وهى

من الاراضى الحاكم عليها الباشا والى بغداد وكانت قبيلتنا نجدة لذلك الوالى عند ما يطرأ عليه طارئ فيطلب منا اسعافه بفرقة من الخيالة لشهرتنا بالقوة والبطش فى قارة آسيا وانا أول من يتقدم فى ميدان الحروب

وقد حبب الباشا فى والدى ما كان له من القوة والشجاعة وعلو الهمة وبذل المساعدة وثبات الجأش عند الاستعانة به وطلب نجدته وكان اذا امتطى جواده معنيا بقول القائل

بطل كان ثيابه فى سرحة * يحذى نعال السبت ليس بتوأم

يتحلى بحلية الهيبة والوقار ويتبدى بسيماء الظفر والانتصار وكان من عادته ان يحسر عمامته لتتبدى ناصيته فيرى على صورته المهابة وتأخذ الاعداء منه الرعب والفزع وقد قتل جملة من الفرسان وخص لفروسيته هذه ان يجعل على طرف سنانه جديلة من الشعر فمن يراه وهو شاكى سلاحه يعجب من هيئته العظيمة ولا أنسى منظره العظيم يوم ركب جواده والجواد يطفر به وقد أعد ألفا من الفرسان وحشدهم وعليهم الزرد واللامات متقلدى السيوف ومعتقلى الرماح لابسى الخوذ وعليها ريش الطواويس وحرابهم تلمع فى شعاع الشمس وأعدهم لامداد ذلك الباشا وهذه التجريدة كانت مبادى تاريخ مصائبنا ولذلك أسباب

وهى ان قبيلة الوهابية تعدت على نواحى بغداد وهددت أهلها ولم يجد الباشا فى ذلك الوقت ملجأ غير طلب الامداد منا على عادته فنادانا واجبناه وجمعنا له جيشا جرارا وقاده والدى الى ذلك العدو

وبينما هم يتربصون للعدو اختار والدى ان يهجم على العدو ويبطش به فى احدى الليالى فدبر أمره وفعل وقتل فيمن قتل ابن أحد مشايخ العرب القائد لقبيلة الوهابية ثم اغتنم أسلحته واقتاد فرسه ولعلمه ان الفرس غنيمة عظيمة ينتفع بها ماشاء الله اجتهد فى ان يحفظ عليها ويخفى أمرها عن

الحاكم التركى لانه يعلم غرامه بمثل ذلك وانه لو علم يبذل مافى وسعه لاخذها منه وصمم على ان يرسلها الى معسكره الاصلى وأمر بالتستر عليها وان لا تراها عين أجنبية وان يكون مربطها الخيمة التى بها أهله وولده ولكن كل هذا الاحتراس لم يفده بفائدة لفشو وتسامع الناس بهذا الامر والباشا لميله الشديد لوالدى واحترامه له وظنه ان تلك الفرس هى لا تزيد شيأ عن الخيول المعتادة أسكته الله عنها ولم يبحث فى أمرها ولم يسأله فيها

هذا ولم يمض زمن طويل بعد انفضاض الحرب وطرد الوهابية الى الصحراء وعودة الاكراد الى جبالهم الا وعجبنا فى صباح أحد الايام بحضور أحد كبار ضباط الباشا المذكور وهو الميرياخور (ناظر الاصطبلات) يكتنفه عشرة من العساكر الخيالة المتسلحة فاستعدت الناس لاستقبالهم بغاية الاحترام وأخذت منهم الخيول وأرسلت للمراعى وربطوها ووضعوا لها الحشائش الكفاية وأما الفوارس فادخلوهم فى خيمة الرجال وأكرموهم بالقهوة وشبكات الدخان والملاطفة وزيادة الاعتبار وصنعوا لهم قزانا من الارز المفلفل وبوقتها ذبحوا شاتين يسلقهما النساء اللواتى خبزن أيضا مبلغا من الخبز وبالاختصار فقد صار تجهيز كافة ما يلزم لهؤلاء الرجال من الاكرام بما تعودت عليه القبائل الرحالة

ولما علم والدى بخبر حضورهم وأتى بفكره السبب الذى حضروا لاجله أمر فى الحال أكبر أبنائه بان يركب الفرس بدون ان ينتظر لحظة ويتوجه بها لمغارة بجوارهم ولا يرجع حتى يرسل له خبرا بعودته ولكون خيامنا ضاربة على خط واحد منحدر كائن على حافة الجبل فكان ممكن سرقتها بدون ان يراه أحد وكذا المنافذ المؤدية للجبال العالية المجاورة لنا نسلك منها عند حصول انزعاج فى خيامنا وانى تذكرت الواقعة كأنها حصلت أمس لاننا نحن النساء يمكننا ننظر فى خيامنا على الرجال وتشوقنا اليهم يجبرنا الان نصغى لجميع مايقولون

وكان الميرياخور واثنان من الاتراك جالسين والباقى واقفين على باب الخيمة ومستندين على أسلحتهم وأما والدى فجلس بعيدا عن السجادة واضعا يديه أمامه ومثنى رجليه من تحته وكان يرى عليه فى هذا الوقت الخضوع والانكسار الا انه كان يرمق بعينيه حوله وبعد ذلك قال والدى اليهم أهلا وسهلا حصل لنا السرور والسعد بتشريفكم فقال الميرياخور ياسعادة هذه المقابلة لقد مضت مدة طويلة منذ ما نظرنا بعضنا آخر مرة

(قالت زينب) فلما ان كرروا هذا الكلام وما ماثله من التحيات والتسليمات الكثيرة سكتوا وما بقى الا شبكاتهم التى صاروا يدخنون بها بدلا عن المسامرة حتى اظلم المكان من كثرة الدخان وبعد برهة قال الميرياخور لوالدى ان مولاى الباشا يهدى اليك السلام ويسأل عن صحتك وان سعادته يحبك كثيرا ويقول انك واحد من أحسن أصحابه فالحمد لله على ذلك فانك رجل صالح والاكراد من أطيب الناس وأصحابهم أصحابنا وأعداؤهم أعداؤنا

(قالت زينب) وكنت أسمع رجلا هرما من الاتراك على باب الخيمة وهو كبير الحرس يصادق على هذا الكلام بنغمة ضعيفة ثم ان والدى هز كتفيه وعصر يديه على ركبتيه وأجاب قائلا انى عبد الباشا وعبدكم لقد حصل لى من تشريفكم غاية الشرف (الهم دله) فالحمد لله الذى نأكل خبزنا فى أمان تحت ظل الباشا ونغسل طرابيشنا على ناحيته بدون خوف فاسأل الله ان يزيده وبعد السكوت هنيهة قال الميرياخور ان سبب حضورنا ياأوكوس آغا هو ان الوهابية (لعنة الله على لحاهم) أرسلوا فرقة منهم الى رئيسنا يطلبون الفرس التى كان راكبا عليها ابن الشيخ المقتول وانهم يقولون ان دمه مازال على رؤسهم ولم يرجعوا عن أخذ ثاره بسفك دم الباشا أو ابنه نظيره الا انهم يتركون هذا الامر حتى يتحصلوا على الفرس لانها من أحسن نسل عندهم وان أصلها متصل من جيل الى جيل الى الفرس التى ركبها النبى عليه السلام عند الهجرة الى المدينة ولكن ان لم يردوها اليهم ثانيا فانهم

اشترطوا على أنفسهم بان يرموا الدراهم على الارض الى ان يامر الباشا بالكف عن ذلك والآن جميع الدنيا تعلم بشجاعتك وانك أنت الفارس الذى أغرت وقتلت ابن الشيخ وان قبيلتك السالبة للفرس

وان مولاى بغداد تشاور مع أشراف بغداد وأعيانها وكبرائها اتفقت الآراء باجابة طلب الوهابية ومن حيث ان هذه المسئلة صارت فى أيدى الحكومة فارسلنى اليك لكى ان تسلمها الى وهذه رسالتى أبلغتها اليك

فصاح أبى قائلا والله وبالله وبحق الباشا الذى أكلته وبحياته وبحق الام التى حملتك وبالنجوم والسموات انى أقسم ان مايدعى به الوهابية زور وبهتان وأين الفرس التى يدعون بأخذها وما هذا البلاء الذى نزل بى (نعم) لا أنكر انه كان موجودا عندى فرس ضعيفة فبعتها لرجل عربى ثانى يوم الحرب وليس عندى غير السرج واللجام فاحضرهما اليك اذا رغبت وأما الفرس فليست عندى

فصاح الميرياخور متعجبا وقال (الله الله يا أوكوس آغا) ان هذه المسئلة صارت تحت أهمية كبرى وأنت رجل تميل الى الحق مثلى فلا تفضلك على أذقاننا وتردنا خائبين بدون طرابيش على رؤسنا فان لم نرجع بالفرس فتسود وجوهنا للابد وتغلق أبواب المحبة بينك وبين الباشا فبحياتى تخبرنى (أين الفرس) فأجابه والدى ياصاحبى ما الذى أقوله بعد ذلك وما الذى بيدى حتى أفعله فالفرس غير موجودة والوهابية يكذبون وانى لا أقول الا الحق ثم اقترب والدى من الميرياخور وتسارر معه مليا بألفاظ لينة وبعد ان انتهيا من حديثهما الذى ظهر منه حصول اتفاق بينهما على أمر لا يعلمه غيرهما قال الميرياخور بصوت عال (يا أوكوس آغا) ان لم تكن الفرس عندك فالله كريم ولا نعارض المقدور فلنرجع حينئذ الى بغداد

فقام والدى ودخل خيمة النساء لتجهيز الطعام وترك الضيوف يشربون فى شبكاتهم وقهوتهم وطلب من زوجته الامينة على دراهمه بان تناوله كيسا

مملوأ من الذهب ملتفا فى خرقة قديمة بقصد التحفظ عليها فأخذه وأخرج منه عشرين دينارا وصرها على طرف محرمة ووضعها فى صدره ثم وضع الكيس فى مخلته مع عدة حصاناته الثمينة وبعض أشياء أخرى ذات قيمة ووضعها فى احدى زوايا الخيمة وأمر باحضار الطعام وتوجه الى الضيوف ومكث يتسامر معهم قليلا وكان حديثهم عن الخيول والكلاب والاسلحة ورأيت الميرياخور أخرج طبنجة مطعومة بالفضة وفرج عليها الحاضرين وقال انها من الطرز الانكليزى وأخرج الآخر مدية ومدح فى سلاحها الخراسانى وانها من أول طرز وكذلك أبرز والدى سيفا ذا نصلين حادين وقال انه أخذه من العربى ابن الشيخ الذى قتله

ثم أحضروا السماط الجلد وفرشوه ووضعوا حوله الخبز وفى وسطه قصعة مملوءة من الشوربة وأحضروا المياه لغسل اليد اليمنى قبل الطعام وتقدم والدى على المائدة وقال (بسم الله) ومد يده فتقدم الميرياخور والعشرة فوارس الذين معه وثلاثة من أتباع والدى ومالوا على الطعام باكتافهم اليمنى وصاروا يتناولون الشوربة بملاعق من خشب ثم رفعت الشوربة وقدموا اقوزيا فقطعوه قطعا وأخذ كل واحد فلذة منه على قدر طاقته واستمروا على ذلك حتى انتهى الطعام بصحن كبير من الارز المفلفل فتكاثرت عليه الايدى وامتلأ الصحن بأيديهم وأصابعهم فلما شبعوا قام كل منهم يغسل يده وهو يقول (شكر الله) الحمد لله (الله بركت ويرسن) والله يزيدك من النعمة ويبارك لك

ثم لفوا فضلات الاكل فى السماط وأخرجوها خارج الخيمة فأتت رعاة والدى وأكلوها وعيان الميرياخور أراد المبيت فى احدى القرى التى فى السهول فاستأذن من والدى وقامت أتباعه يجهزون ركائبهم وتركوا الميرياخور ووالدى فقط فى الخيمة

(قالت زينب) ولم يكن أحد معهم فى هذا الوقت يسمع حديثهما غيرى فانى

ألقيت أذناصاغيــة نحوماحــدث بينهـما من المسامرات وسمعت بجميع أقوالهــما وكان مما قال له والدى لم يكن عنــدى الا عشرة دنانير ولا احتكم على غيرها وانى فقير ليس عندى شئ ولم يتيسر لى جمع زيادة على هذا المبلغ فأجابه المير ياخور هذا يستحيل فانك تعلم مايكون ان لم آخذ ضعف هذا المبلغ فان الباشا لما يبلغــه عــدم احضار الفــرس يأمرنى بالرجــوع للقبض عليــك وعلى جميع أمتعتــك وأؤكد لك انى مأمور بذلك الامر اذا خالفت أمره ولكن لا أمسك بامر مادمت تفى بطلبى وهو عشرون قطعة من الذهب فياصاحبى احكم بما تريد

فاخرج والدى المحرمة من صــدره وأعطى المير ياخور الدنانير التى فيها فلما أخذها وعدها ووجدها مطلوبه أخذ قطعة من الشاش كانت ملفوفة على عمامته ووضــع فى طياتها العشرين دينارا ولفها ثانيا على رأســه ثم قال لوالدى اننا الآن أكنا مع بعضنا ملحا وتصاحبنا من الآن واذا حصل من الباشا أى معارضــة لهذا الامر فانى أتداخل فى حله انما الواجب عليك ان ترســل له هــدية ماذا والا فيستحيــل ان تمنعه من اضرارك فاجابه والدى وقال (باشم أوستنه) على رأسى انه عندى كلب صيــد رمادى كبير مشهور فى عموم كردستان يمكنه القبض على ظبى وهو فى آخر درجــة من سيره ذو خلقة لم يرها والدشاه العجم ولا فى المنام فهل ذلك يكفى فقــال فى غاية اغا ذلك لا يكفى فتأمل حالة الرضا التى ستكون نتيجــة ذلك نحوك من سيدى

فقال له والدى انى أخبرك بامر طرأ بفكرى وهو ان لى بنتا أجمل من القــمر معتدلة القد ثقيلة الردف مستديرة ملفوفة الجسم فاخبره انه وان كان يعتبر امام عينيه ان اليزيدية كفار وكالتراب تحت قدميه الا انه لا يخلو من الميل لاستحوازه على واحدة جميلة التى لو تراها حور الجنان لتلحقها الغيرة منها وانى مستعد لارسالها اليه

(فلما سمع المير ياخور) كلامه صفق بيــديه واســتلقى على ظهره من الضحك

وقال

وقال (افرين افرين) هذا حسن جدا وسأقدم له هذا الالتماس ولا أشك فى قبوله اياه وبذلك تكون لك يد قوية فى حرمه وهى تنجيك من هــذه المصيبة وتقيك شر المستقبل

(قالت زينب) وقد اتفقا على هذا الامر الذى يظهر منه انى أنا الواقعة فيه فتركت محلى الذى كنت أسمعهما منه لاتبصر فيما سيكون مما أقدر على فى المستقبل فتأسفت لذلك فى مبدا الامر وكدت أبكى على ما نابنى من قسمتى ولكن بعد التأمل هنيهة فيما تؤول اليه حالتى صحت قائلة من فرحى

(آه يا أباه) هــل سأكون حرم الباشا وألبس الملابس الحسنة وهل سأزف فى محمــل (آه) لبهجة الموكب فى ذلك اليوم أعظم من كل شئ الذى فيه بنات الجبل يحسدننى كثيرا

ثم اننى بعد مدة يسيرة وأنا أتطلع من بين الخيام الى الخلاء رأيت المير ياخور وجماعتــه الذين لم يتأخروا فى أخذ الكلب وقلع ما عليه من الزينة سائرون بجانب سلســلة التلول التى على حدود معســكرنا ثم سمعت بعد ذلك والدى يردد على نفســه التشكرات لخلاصــه من مثــل هؤلاء الزائرين المنغصين وبمجرد ان غابوا عن النظر أرســل والدى أحد الرعاة الى الجبــل يأمر ابنه باحضار الفرس وبعــد ان أحضروها وربطوها فى خيمــة النساء دعا بكبراء قبيلته المحتوين على شخصــه وأقارب زوجاته الضاربين بجوارنا وشرح لهم الحالة التى حصلت اليه وأوضح لهم أيضا بانهم اذا استمروا مخيمين فى أراضى الباشا زيادة عن هذه المدة فلابد من خرابه وخرابهم بأى الاحوال وقال ان هــذه فرصة للباشا لفرض الجزاء وضرب الضرائب علينا ويأخذ الاموال اغتصابا حتى تنتهــى الحالة للفــقر والفاقة وسؤال الناس الصــدقة وكان جميعهــم عشرة رجال والجالس فى أشرف مكان فى زاوية الخيــمة هو عم والدى وهو أكبر القبيلة ســنا ذو لحيــة بيضاء كالثلج مسترســلة لمنطقتــه فخاطبــه والدى وقال لا يخفاك ياعم اننا يزيديون وتعلم ما للمسلمين من

الكراهة لنا وان مايظهره الباشا من المحبة والصحبة نحوى ماهو الا لكونى حاربت معه فى جملة معارك ورأى منى انى أسد فى الحرب وصائب فى الطعن والضرب وأشرب من دم أعدائه ولكن حبه للدراهم أعظم من ذلك ولا يضاهيها عنده شئ وبدلا عن ضياعه هذه الفرصة فانه يريد ان يتقصدنى أنا ووالدى وجدى وجد جدى وهكذا جميع ذريتى يوقع علينا العذاب الاليم ويشوينا فى نار لا انقضاء لها فأرى ان الاحسن الانتقال من هذه الارض لقلة عددنا وعدم اقتدارنا على مقاومته فوحق الاله الذى نعبده لولم يكن لنا زوجات وأولاد نخشى عليها فانى بحربتى التى أقبضها فى يدى وسيفى الذى بجانبى وأركب على فرسى فلا أهاب مقابلة عموم جيشه المشتمل على انذال الرجال الكفرة اللئام وأود رؤية هؤلاء الهمج الذين يريدون مواجهتى وعلى ذلك فلا لنا ان نتأخر لحظة عن ان نرحل من أراضى الترك ونهاجر الى بلاد العجم حيث فيها لا يتأخرون فى استقبالنا بالترحيب والتأهيل ويكونون عضدا لحمايتنا

فاجابه عمه قائلا (وكان كل انسان صاغيا لمقالته) اعلم يا أوكوس أغا انك ابن أخى وابنى وكبير قبيلتنا وأعظم ظهير وأكبر نصير لحمايتنا فانى اذا نصحتك بارتداد الفرس الى الباشا فلربما تفتكر انى لا أستحق ان أكون كرديا أو يزيديا ولو ردت اليه الآن فلا نسلم من ضرر قبضته لانى ما أعلمه عن الحكام الاتراك انهم اذا أرادوا أمرا فيه مظلمة لانسان لا يتأخرون فى انفاذه مطلقا عند الامكان وعلى ذلك فانى مطابق على رأيك ولا نقدر على الاقامة ههنا وانى وان كنت هرما كما ترانى وتعودت من صغرى للآن على مراعى مواشينا وأغنامنا فوق هذه الجبال وانظر الشمس تشرق على ذلك التل وتغرب فى ذلك السهل البعيد وأحب هذه الاماكن التى ولدت وتربيت فيها أجدادنا محبة زائدة الا اننى لا أود أن يقال فى حقى باننى كنت سببا فى اهلاك قبيلتنا وها أنا متجهز للرحيل فى هذه اللحظة لئلا ينتج من التأخير الآن ضرر

ويرسل الباشا بعسكره بعد يومين أو أكثر الينا فيأخذون منا الامراء ونكون عرضة للتقصد امامهم فيتشتت أغلبنا وتفنى قبيلتنا فلنذهب يا أولادى ونرحل فالله قادر ورحيم فلعل ان يأتى اليكم اليوم الذى فيه تعودوا لاوطانكم القديمة وتنتقلوا من مراعيكم الصيفية الى أرباعكم الشتوية وبالعكس بلا خوف ولا وهم

(قالت زينب) فلما انتهى من كلامه تقدم شيخ كبير من الرعاة وكان خبيرا بجميع حالات ووقائع الفصول وذا معرفة تامة بالخلاء الذى بين جبالنا وبلاد العجم فقال اذا كنا ذاهبين فلنذهب فى الحال فرب تأخير يوم يوقفنا عن المسير فان الثلوج التى فوق الجبال اقتربت على الذوبان وفى مسافة أسبوع تزداد السيول وبذلك لا يتيسر لنا مرورالاغنام منها وأيضا باقى الآن ثلاثة أسابيع على دخول الشمس فى برج الحمل وهو الوقت الذى فيه نعاجنا ان شاء الله تضع نتاجها بكثرة والواجب السرعة فى سفرنا لاخذ راحتها قبل حلول الوقت المذكور كما وانه يلزم الاقرار على الجهة التى سيجرى اقامتنا بها فى البلدة لان قبائل الاعاجم الرحالة متمسكون الغاية بحقوق مراعيهم أى لا يتعدى الواحد على الآخر واننا اذا تعدينا عليهم وأجحفنا بحقوقهم بدون أمر قطعى من الحكومة فرعاؤنا وأغنامنا لا تسلم من الاهانة والتلف والله أعلم بما يكون بعد ذلك

فصاح والدى قائلا ان كلامك فى محله ثم التفت للراعى وقال له لقد أجدت فى المقال يا كرابيج ماشاء الله عليك فنعم بك من خادم صادق لبذل هذه النصيحة العظيمة انما قبل ان نتفكر فى توطننا فى بلاد العجم يلزم ان يتوجه أحدنا الى مدينة (كرمانشاه) يستأذن الامير ليعين لنا نقطة تكون فى بلدة جيدة وأنا الذى سأتمم هذه المأمورية وأذهب بنفسى بعد خروجنا من أرض الباشا وبوقتها أعود اليكم حسما لما عساه ان يحصل من النزاع مع القبائل الرحالة الآخرين

وبمارآه والدى من رغبة الجمعية الشديدة لسرعة الرحيل أمر بجمع
المواشى وفك الخيام وتجهيز الثيران لوضع الاحمال عليها وان توضع الرحال
على الجمال وان يصير استعداد كل شئ للقيام فى منتصف الليل والوصول
الى أول محطة بعد شروق الشمس بساعة وأما فرسه التى كانت السبب فى
هذا كله فأمر والدى باستعدادها لركوبه نفسه وأما كبيرة نسائه
وأولادها فيركبون فى هودج مع تزيين الجمل الذى يحملهم بأنواع الزينة
المنظمة بالودع المزخرفة بالجوخ الاحمر من حولها والازررة الكثيرة هذا
وبمجرد ماسمعت بهذا الخبر النساء علت الصيحات والعويل من شدة حزنهن
على هذه الحادثة التى كان تصورهن فى ضررها أشد نقمة من حصولها
حيث توهمن حضور عساكر الباشا فى أقرب وقت والهجوم على القبيلة
وأخذ من بها فى رق العبودية

(قالت زينب) أما من جهتى فحزنى على عدم سعدى ناتج من أمر آخر لانى
سمعت ماحصل من الاتفاق السابق بين والدى والمير ياخور الذى جعلنى
لا أتفكر فى شئ سوى ماعمنى من السرور من حالة الانبساط التى سأنالها
عندما أكون زوجة للباشا فعلمت الآن ان ذلك كان حلما وهذا تفسيره
وهو انه بدلا عن تزيينى بالملابس الفاخرة واقامتى فى السرايات العظيمة
والسرر المذهبة وانهماكى فى اللذات ومعيشتى فى أرغد المعايش وان هذا
ماعهدته فى بختى المستقبل فلم أجد شيأ من هذا كله الآن الا بقائى فى
مشقاتى السالفة وتحملى العناء والاتعاب فى تحميلى الحيوانات وربط
العفش وخض اللبن وجعله مسليا وغير ذلك

ولما صار المعسكر على أهبة الرحيل كان يرى على قدر مد البصر تراكم
الجبل بمواشى واغنام قبيلتنا التى كانت تساق بالرعاة لجهة معسكرهم
المختلف وحلوا الخيام من بعضها لتحميلها وأما النساء اللواتى اختصصن
بالجزء الاعظم من مشاق الرحيل فكن يرين فى كل مكان هائمات ومجهدات

أنفسهن فى حزم المفروشات والادوات وطى الابسطة وتحميل جميع
الآلات المستعملة لاستخراج المسلى ووضع الرحال على البغال والثيران
والجمال لتكون مستعدة تحت الطلب واحضار المواشى واناخة الجمال
بهيئة دائرة وتغطيتها برحالها ووضع الاجلال على الثيران وربط البغال فى
الاحبال كل خمسة أو سبعة سوية وتزيينها باجراسها وغطاآتها الغليظة
وابتدأت الاغنام والجديان بسيرها فى آخر النهار محفظا عليها بكلابها
ومصحوبة برعائها وقد سيروا أمامها راعيا والباقى أحاطوا بها وما أتى منتصف
الليل الا واخليت الارض من جميع العسكر ولما انفجر النهار كان يرى
سير حلتنا المستطيلة دائرة بالجبل من مسافة على بعد وسلكنا طريقا
مجهولا لايدوسه الا القليل كى لانقابل أحدا فيخبر الباشا بقيامنا ومازلنا
سائرين جملة أيام حتى وصلنا الى حدود العجم ولم يصادفنا بالطريق الا بعض
حوادث لاتذكر وبعض مشقات لم تؤثر عندنا وكان والدنا اثناء السفر
يتروى مع كبار قبيلته بالاصرار على بذل مافى قوتهم مع المقاومة الكلية
فيما اذا حضرت قوة من طرف الباشا تعارض سيرهم وكان على الدوام
يراقب مؤخر جيشه خوفا من هذا الامر ولكن ساعدتنا السعادة بعدم
مقابلة أحد خلاف بعض رعاة قبائل الاكراد القاطنين فى الاراضى
السائرين فيها ولما دخلنا محل الامن تركنا والدى وتوجه أمامنا الى مدينة
(كرمان شاه) وهى تحت سلطة أمير ذى قوة وبطش أحد انجال ملك العجم
ليلتجئ اليه ويلتمس منه الانعام عليه باحدى المراعى التى فى أراضى العجم
للاقامة فيها ومكثنا ننتظر عودته بلا صبر لانا صرنا فى هذه الحالة عرضة
للهجوم علينا من جهة الترك والعجم ولكن بما ان قانون المملكتين يقضى
بملاطفة القبائل الرحالة واغوائهم بالبقاء فى أراضيهم مع عدم التعرض اليهم
فلم يتأت لنا أدنى انزعاج أو معارضة من كبير البلدة التى كنا قريبين منها
فاخيرا حضر والدى ومعه أحد ضباط الامير وعين لنا قطعة أرض تبلغ

مساحتها عشرة فراسخ داخل حدود العجم فقضينا فيها خيامنا وكانت اقامتنا الشتوية فى زاوية مظللة بالجبال بعيدة عن ينابيع المياه الكثيرة وأما محلات الصيف فتبعد عنها مسافة ثلاثة أيام ويقال انها أبرد بقعة من الجبال المجاورة لها وكانت محاطة بالحشائش والمياه ولا يمكن الوصول اليها بضرر ما أو انزعاج مما عساه ان يحصل من الاتراك

وكان والدى مشهورا فى مدينة كرمان شاه حتى ان الامير لما علم بوصوله اليها وبموضوع المأمورية المحضر لاجلها أظهر سروره الزائد نحوه وعامله باللطف والاحترام ولما أراد الانصراف من عند حضرته أنعم عليه بخلعة الشرف ولشدة احتفائه به لم تنعقد شروطات أو تحصل اتفاقات على مدة معلومة لاقامته بل وعده بحمايته بمواعيد غير محدودة وقال له الامير اذا كان الباشا يدعى عليك مع قبيلتك انك من ضمن رعايا حكومته وأرسل لى خطابا بعدم التصريح اليكم بالدخول فى أراضينا فانى لا أعبأ بقوله بل أهزأ به لان أرض الله واسعة لكل انسان يعنى اذا حصل لاحد ضيق فى الجهة القاطن بها أو تعب فيرحل الى المحل الذى يجد فيه راحته (كما قيل)

وطول مقام المرء فى الحى مخلق * لديباجتيه فاغترب تتجدد
ألا ترى ان الشمس زيدت محبة * الى الناس اذ ليست عليهم بسرمد

وبالاختصار فقد استوطنا تلك الجهة وأقمنا شعائرنا المعتادة الا ان ما كان يحسبه الامير صادف محله وذلك بعد ان مضى زمن يسير علينا ونحن فى أرغد عيش حضر أحد ضباط الباشا الى كرمان شاه يحمل خطابا للامير يسأله عودة والدى وقبيلته الى أراضيه بالثانى ويخبره بجميع الاحوال التى تسبب هروبه منها وادعى على والدى بانه لص واتهمه فى سرقة فرس ذات قيمة عظيمة وانها كانت ملكا للباشا وسأله بارتداد الفرس اليه حتى اذا لم ترسل اليه فيتبع ذلك فى الحال تهددات واغارات على أراضى العجم وسلب أمتعتها فطلب الامير والدى وأخبره بجميع هذه الحوادث فداخلنا الرعب

عند انتشار هذا الخبر بيننا حيث اتضح ان الباشا مصر بعدم ترك أى حيلة فى أخذ الفرس لحيازته ونوى على هلاك والدى كما ولا يخطر بالبال ان قبيلة ضعيفة وقليلة العدد كقبيلتنا يمكنها ان تقاوم مكائد ورشاوى وحيل رئيس قوى مثله على ان بذل الرشوة يميل الاعاجم لارتكاب الاثم باجتهادهم فى أعمال الطرق الجبرية التى تمكنهم فى أخذ الفرس منا وان لم يكن بوقتها فيترقبوا الوقت المناسب لذلك لا سيما وانه سيتضح للعجم قريبا ان أغلبنا بيديه وهذه الحالة كافية لاثارة عداوة وكراهة كل انسان متدين ومتشيع للامام على ضدنا من كل باب حتى لو فرضنا عدم وجود الفرس وصرف مسئلتها فلا نخلو من أن نكون فريسة لكل مكروه واضطهاد عند سنوح الوقت الذى يتمكنون فيه نجاح ما يجرونه من تأثيرات المكايد ثم وقبل ان يتوجه والدى الى الامير حسب طلبه له اعطى الاوامر السرية بانه اذا الزم الحال بان ينكر وجود الفرس عنده فيجرى اخفاؤها فى محل مؤتمن ولكن عند عودته لم نجد ضرورة لاجراء ذلك حيث ان الامير استقبله استقبالا حسنا وأكد له انه لا يسلم فى طلب الباشا بأى كيفية كانت وان يتمتع بفرسه وان يكون مطمئن الخاطر معتمدا على حمايته آمنا على نفسه ما دام مقيما فى أرضه وكان كلام الامير لوالدى ما معناه

(يا اوكوس آغا) كن ثابت الجنان فانك ما دمت مقيما تحت ظلنا فضع رأسك على وساد تلك آمنا وما معنى كون الباشا يدعى عليك وعلى قبيلتك بانكم من رعايا حكومته كيف ذلك وأبواب والدى مركز الكون وملك الملوك مفتوحة لكل انسان وبمجرد الغريب ما يمس أذيال جبته فانه يأمن على نفسه وأنت سألت حمايتنا وان لم نحمك فلسنا بمسلمين فاذهب وعد الى خيامك مسرورا اودع الباشا أمامنا

فنتج من هذا الكلام سرور زائد بيننا ولكى ان يعلن والدى بنجاح مشروعه

أولم ولیمة لرؤساء وكبراء قبیلته نظرا لارتیاح خاطرنا ونهوء مسألتنا وحصول الاطمئنان على مستقبل أحوالنا وقد سر كل من كان حاضرا بسلامة عاقبة هروبنا الا واحدا وهو الشیخ عم والدی وذلك لما رآه من الاعجام من النوادر المتعددة التی من هذا القبیل عندما كان فی خدمة (نادرشاه) زمن شبوبیته ولذلك لم یعتمد على كلام الامیر المزخرف ولم یصدق منه كلمة وقال أمام الجمعیة مخاطبا لنفسه

انك لا تعلم ماهو منطو علیه الاعجام لانك لم تعاملهم ولم تعاشرهم ولذلك تسلم نفسك لحمایة الاعجام بكل اطمئنان ارتكانا على مایظهرونه الیك من العبارات التملقیة والاحادیث المموهة الجاذبة للقلوب مع اننی عاشرتهم زمنا طویلا وعلمت كنه مایقولونه وذلك ان أسلحتهم لیست مثل سلاحك الذی تعودت به على مبارزة المحارب الجسور ومهاجمة العدو فسیفهم وحربتهم هی الخیانة والغش والكذب وان الانسان مهما استعد لمقاومتهم فانه یجد نفسه فی شرك دهائهم ویحاط به الخراب والهلاك فی الوقت الذی یصفوله ویظن انه قاعد على فراش من الورد فالكذب أحب أمر عندهم ورذیلتهم العمومیة ألم تلاحظ انهم یردفون كل كلمة بالقسم فما الداعی للاقسام للرجال الذین یقولون الصدق فالرجل منهم یحلف بحیاتك وبرأسه وبولدك وبالنبی وباقاربه وأجداده وترى الثانی یحلف بالقبلة وبالملك وبلحیته والثالث یحلف بحیاتك وبالملح الذی یأكله عندك وبوفاة الامام الحسین فهل بعد ذلك تفتكر انهم یبالون بجمیع هذه الاقسام والایمان (كلا) فانهم یعلمون بكذبهم وبذلك یحنثون فی أقسامهم والآن فی مسألتنا هذه أتظن اننا ننجو من ضررهم ونطمئن على حیازة هذه الفرس التی جلبت علینا المصائب والهموم على الرؤس (حاشا) فالاعجام أكثر توحشا للغایة خصوصا فی مسائل الخیل فهم زیادة عن الاتراك سیما الفرس عربیة یجدونها أمامهم أعظم قیمة من الالماس والیاقوت فلو سمع الشاه بفرسنا

هذه

هذه لارسل فی الحال بطلبها وحین ذاك ما الذی نفعله هل نستمر فی اشهار أسلحتنا أمام الدنیا عموما فلا یخلصنی هذا یا أصحابی فتبصروا فیما یرضیكم أما من جهتی فالذی أراه أن مركزكم غیر ثابت وانی أنصحكم نصیحة تتخذونها قاعدة عمومیة وهی (أن لا تعتمدوا على الاعجام مطلقا فانهم یفعلون مالا یقولون ویقولون مالا یفعلون)

(قالت زینب) وقد تمت هذه الحادثة تماما كما أنبأ عنها الشیخ المذكور وكانت عاقبتها صیرورتی فی الحالة التی ترانی بها الآن والسبب فی ذلك أنه فی أحد الایام قبل طلوع الفجر بساعة سمعنا كلاب المعسكر تنبح بحالة انزعاج على غیر العادة ولم تكف عن الهریر بحالة هیجان زائد وظننا أن نبح الكلاب هو لطرد الذئاب المتعودة على افتراس الاغنام فلم نلتفت فی أوائل الامر عما أخذنا من الانزعاج ولكن أخیرا لما طالت الحالة قام والدی وأولاده وحملوا معهم بنادقهم لیكتشفوا ما كان من هذه الحادثة فلم یسیروا عشرین خطوة الا وقابلوا فارسا خیالا وآخر معه وتبعهما جملة خیالة وبالاختصار فی أقرب وقت أحیطت الخیام بجملة فرسان فانزعج والدی وهاج العسكر بالحال ولما أرادوا الهجوم على والدی أصاب فارسا فقتله وآخر فجرحه وعندما سمع العدو صوت البندقة وهیاج المعركة هجموا علینا فتشتتت قبیلتنا فی كل جانب وكان غرضهم الاصلی أخذ الفرس لانهم أول ما قدموا هجموا على خیمة الحریم وفیها استحصلوا على مطلوبهم فلما طلع النهار رأینا المغیرین من الاعاجم وان ذلك بناء على أمر الحكومة ومن سوء بخت والدی هو كونه قتل رئیسهم وكان ذلك هو الداعی الاكبر لاسرنا فانظر كیف كانت حالتنا التی یرثى لها فی ذلك الوقت وانی لا أنسى واقعتهم المشؤمة ومعاملتهم لوالدی بالذل والاهانة وسلب أمتعتنا

(قال الحاج بابا) وبینما زینب سائقة فی الحدیث ترید اخباری عن الطریقة التی صارت بها ملكا للحكیم واذا باب البیت یطرق بقوة عظیمة فانزعجنا

وترجتنى معشوقتى بالهروب من السطح وقامت لتنظر الذى يطرق الباب ففهمت من مناداة الطارق انه الحكيم مؤملا بالفطور معها وانبساطه بها فنزلت وفتحت له الباب وسألته الدخول وقد أمكننى الوقوف على مايحصل بينهما من فوق السطح

وهو أن الحكيم لما دخل المنزل ووجد زينب بمفردها انشرح صدره وصار يمازجها بالالفاظ العذبة ويراعى خاطرها ومايبقى شيأ من اظهار مايمكنه من المحبة اليها ثم وبينما هو يتطلع من شباك بلوك زوجته رأى مائدة الفطور منصوبة والاودة بالهيئة التى كنا بها فلما أراد أن يسألها عن ذلك أتت الخانم تكتنفها النساء وكان مجيئها على غفلة فظهرت أمامهما قبل أن يفترقا عن بعضهما وانى لا أنسى مطلقا تطلعها وثباتها لهذا المنظر فلما دخلت عليهما ورأتهما بهذه الحالة قالت مستهزئة (السلام عليكم) انى جاريتكم بكل سرور وانشراح وانى لفى وجل من حضورى عاجلا

ثم امتلأت بالغضب وفار الدم على وجهها وأدارت هزلها وأوثقتهما سبا ولعنا وهى تشاور بيدها وتقول ماشاء الله ماشاء الله والفطور ايضا فى أودتى فحينئذ صرت عندكم أقل منزلة من الكلاب واتفعلون ذلك فى بيتى وعلى سجادتى ووسادتى لينشرح قلب جوارى فلا اله الا الله فوالله انى ملئت عجبا وأرى الآن درجتى سقطت من السموات الى الارض

ثم قالت مخاطبة لزوجها أما من جهتك يامرزا أحمق فانظر الى وأخبرنى وحياتى أتعد رجلا بين الرجال وحكيما أيضا ولقمان عصره فى العقل بوجهك الذى يشابه وجه القرد وهذه اللحية التى مثل ذقن التيس وبهذا القتب تدعى العشق وتختلى بمعشوقتك فلعنة الله على لحيتك

ثم أشارت بأصابعها الخمس أمام عينيه وقالت اخص عليك فانى أبصق على مثل هذا الوجه فمن أنا حتى انك تفضل جارية وسخة عنى وما الذى اجتنيته حتى تعاملنى بهذا الاحتقار ألم تعلم انك كنت لم تحتكم على شئ غير اعطاء

الدواء ووصفك للعلاج فلما دخلت بك صيرتك ذا ثروة وأصبحت رجلا الآن بعد ان كنت لا تذكر فهل لا تشكرنى لذلك وأنت الآن تقف امام الملك والناس تميل برؤسها احتراما اليك وتلبس الكشمير وغدوت رجلا يعول عليه فقل لى حينئذ يا أنت الذى أقل من رجل ما الداعى لكل هذه الفعال

وكان الحكيم أثناء لهجة زوجته التوبيخية يحلف الاقسام الكثيرة بعدم اقترافه أمرا من هذه الامور ويكرر الآلاف من الصيحات لبراءته فلم يوقف حدة زوجته شئ ولم يمكنه تسكين غضبها واستمرت بدرجة هذا الفوران لا تمل من المسبة والتوبيخ وهى تارة تقسم وأخرى تلعن بدون انقطاع وتترك زوجها تارة وتلعن زينب ثم تترك زينب وتلعن زوجها حتى ازبد فمها ولم يكفها الكلام فقط بل كانت تمسك البنت المسكينة من ضفائرها الطوال المسترسلة على ظهرها وتجذبها بقوة فتصيح من الالم وبعد ذلك سحبنها الجوارى وطرحنها جهة البلاعة وظللن يوثقنها بالضرب الى ان كلت أنفسهم

(قال الحاج بابا) آه كدت أطير من احتراق فؤادى عليها الخلاصها لان جسمى صار كانه نار مشتعلة لا يطفئها الا شرب دماء هؤلاء الاشقياء ولكن ما الذى أفعله فلو كنت أهجم داخل الحريم لم يكن من نصيبى الا الموت لانه من المحتمل انهم يقتلونى فحينئذ ما الفائدة التى تتأتى لزينب من ذلك الا كونها تزداد قساوة وتعذيبا عن الاول حتى تزهق روحها وبذلك تنتزع الغيرة من زوجة الحكيم ويبرد قلبها

فلما سكنت هذه الغوغاء نزلت بغاية الهدوء والثبات من فوق السطح بدون ان يشعر بى أحد ومشيت الى الخلاء بدون ان أدخل المدينة لأتبصر فى الطريقة التى يلزمنى اتباعها فان بقائى مع الحكيم لا أقبله وأما كونى أنتظر ان أحظى بملاقاة زينب فأمر من الجنون وقد سقط قلبى عندما تصورت عاقبة نصيب هذه البنت المسكينة بما انى سمعت سابقا جملة حكايات عما هو

جاري ارتكابه داخل الحرم من الآثام المحرمة ولم يكن هناك مانع لهذه الخائن الشيطانة من تأخيرها الاجراء ماتريده مع زينب لمالها من السلطة القوية

(الفصل السابع والعشرون)

(فى الكلام على الاستعدادات التى أعدها الحكيمباشا لاستقبال الشاه ضيفا عنده والمصرف العظيم الذى هدده)

(قال الحاج بابا) وفى أثناء فسحتى عزمت بوقتها على ترك منزل الحكيم والارتحال من طهران وهذا آخر ما استقر عليه رأيي بالنسبة لحالتى الحاضرة ولكن شغفى بزينب غلب على هذا العزم ولرجائى فى رؤيتها انصرفت عائدا الى منزل مرزا أحمق بصفة يسير تحت يده ولم يكن لى ملجأ غير محله حالة كونه لم يشك بانى أنا خصمه المتسبب فى الهيجان السابق حصوله داخل حرمه لمعلوميته ان أحد الناس اقترف هذه الجريمة ولم يظن فى غيرى ولذلك أخذ فى أعمال الطرق المستقبلة والاحتراسات القوية من جهتى حتى شق على الوقوف على ما آلت اليه حالة معشوقتى أو معلوميتى بنتيجة غضب الخائن وكنت ألقى بالى يوميا الى باب الاندرون لعلى أرى زينب فى حاشية سيدتها حال خروجها ولما لم أقف لها على أثر أو أسمع عنها بخبر تصورت اما انها محبوسة أو سقطت قتيلة من قساوة أعدائها اللواتى يصحبها داخل الحرم وبينما أنا على هذا الحال مرتبك بالافكار وقد قل منى الاصطبار وقام ما بى من الهيجان اذ لمحت الجارية السوداء (نورجهان) خارجة بنفسها الى السوق فتبعتها لانها من رائحة المعشوقة وبالنسبة لما أعلمه من المحبة التى بينها وبين سيدة قلبى تجاسرت بمخاطبتها قائلا

(السلام عليك يا نورجهان) الى أين تذهبين بهذه السرعة فأجابتنى (دمت فى عز يا أغايا حاجى) انى أمرت بالتوجه للعطار لمشترى أدوية لجاريتنا

الكردية فسألتها مندهشا ماهذا ثم صحت وأنا مضطرب الفؤاد (أهى زينب) ما الذى أصابها أمريضة أم كيف حالها فأجابت نورجهان (آه) يالها من مسكينة لقد كان مشتدا بها المرض والحزن أيضا فما أشركم وأقساكم أنتم الاعاجم فنحن اللواتى امنا سود وجوارى فى رق العبودية قلبنا أقوى من قلبكم طاقين فى الجسارة وكان الواجب عليكم اكرام الغريب والشفقة بحاله لانى لم أر ولم أسمع فى عمرى معاملة بهيم يعامل بالصفة التى عوملت بها هذه الغريبة الذليلة

قلت (بالله يا نورجهان) تخبرينى ما الذى صنعوا بها بحياتك تخبرينى قالت بعد التذلل والملاطفة بأرق ما يمكن من الالفاظ (ياحاجى) انه بالنسبة لغيرة سيدتها منها أمرت بسجنها فى أودة صغيرة خلف المنزل وفيها حصل لها اهانة وانزعاج شديد وصومات بالقسوة التى كانت عاقبتها اعراضها بحمى قاتلة ولولا صباها وقوة جسمها قاومها هذا كله لاسكنتها رمسها ولكن لما رأتها سيدتها انها سقمت من هذا المرض صعبت عليها حالتها وأمرت باستعمال الحناء والكحل وهما التى أنا متوجهة لاحضارهما من العطار وأيضا لولا ما شاع من الاخبار المنتشرة ان فى عزم الشاه زيارة مرزا أحمق ما كان يسمح لزينب بالافراج عنها ولا بمعالجتها وراحتها اعنى انه من عادة الشاه اذا أراد زيارة أى انسان فانه يدخل فى حرمه بدون مبالاة ويدور فيه والنساء امامه مكشوفات الوجوه ولما رأت سيدتها ضرورة انتشار الخدم والجوارى فى كل مكان لاستقبال الشاه أمرت بالعفو عن زينب للوقوف فى خدمتها الا انها لم تزل معتكفة فى أودتها المذكورة

فلما سمعت مقالتها سررت بهذا الخبر وانتعش جسمى لشفاء مهجة قلبى وابتدأت بان أتدبر فى طريقة أحتال بها على الاختلاء مع زينب الا اننى رأيت من الموانع الحسيمة التى كابدتها ربما يكون ذلك جالبا لاضرارها مرة

أخرى فصرفت النظر عن هذه المسئلة الآن وان التزم السكوت واتبع في ذلك نصيحة الشاعر حيث قال

ان التردد في الافكار متعبة * والرأي أحزمه التسليم للقدر
فلا تبيت على يأس تكابده * فربما جاءت الالطاف في السحر

هذا وقد اقترب في أثناء ذلك اليوم الذي يزور فيه الشاه الصحراء لفسحته الصيفية وعلى حسب العادة المعتادة مضى الوقت المناسب في زيارة أشراف معيته ليجمع بذلك له ولاتباعه جملة من الهدايا وبذا علمت صحة ماقالته لي نورجهان وكان مرزا أحمق من ضمن الذين سيشرفون بزيارته لشهرته بالثروة حيث وجد فريسة لائقة للاطماع الملوكية من مدة مديدة وبناء على ماذكر اعلموا الحكيم بتشريف الملك بمنزله وانه بماله من الشهرة العالية ولكونه من أكبر الذوات الممتازين بالشرف لم تكن زيارة الملك له بصفة عادية بل يصير استعداد وليمة شائقة لضيافته حيث في عزم الملك تناول العشاء في منزله فانتفخ الحكيم وتعاظم لتشريف الشاه من جهة وارتعدت فرائصه من جهة أخرى بالنسبة لما سيلحقه من خراب ماليته المنتظر وأخذ في اجراء الاستعدادات الضرورية وأول أمر اهتم فيه هو معرفة ثمن ونوع (باه انداز) القماش الذي يفرشه في الشارع لمشي الملك عليه بما انه أول شئ امام أعين الاهالي ولا بد من التحدث به في عموم البلد وراية للممنونية التي ينالها من التفات مولاه فكان يظهر تفاخره من جهة وينزعج لبخله من جهة أخرى لانه اذا أظهر ثروته بدرجة عليا يكون عرضة لاغتصابات مستقبلة وان اقتصر على الضروريات تنظر اليه اعداؤه بعين الاحتقار ويقذفون في حقه ومكث مدة في أوائل الامر لم يسألني في شئ وكنت أنا أيضا أغض النظر عنه ولكنه لما ارتبك في تدبيراته وتذكر نجاحي في المخابرات السابقة التي وقعت بيني وبين الحكيم الاورباوي دعاني اليه بالثاني يستشيرني في هذه المسئلة وقال لي ياحاجي ما الذي يعمل في هذا

المشكل

المشكل الصعب حيث ورد لي أمر من الخزندار الاعظم بان الملك يؤمل ان الباه انداز يكون من أفخر القماش وبمقدار كاف كما هي عادة الخزندار بافتخاره في مثل هذه الاحوال داخل عموم العجم والآن لا أقدر على معارضته أو مخالفة أمره وان قصده ان أفرش جوخا عريضا من ابتداء الشارع لغاية ماينزل الملك عن جواده ثم يمشي على قماش مقصب لغاية مدخل الجنينة ومنه يفرش جميع المسافة المستطيلة الموصلة للكرسي المعد لجلوسه بشيلان من الكشمير وان يكون كل شال أفخر من الذي قبله وهكذا الى محل مسنده الذي يكون مفروشا باثمن وأفخر الشيلان ولا يخفاك باني لست من الناس ذوي المقدرة المعدين لاجراء جميع ماذكر وما أنا الا حكيم من ضمن الحكماء وليس عندي أموال مخزونة ولا من المدعين بالثروة والغنى وغير خاف ان الخزندار يقول ذلك لكونه بطرفه جوخ ومخيش وشيلان للمبيع يريد اعطاءها لي ويستحيل الاصغاء لطلباته الباهظة فما رأيك حينئذ أخبرني بما يصير اجراؤه

فقلت حقا انك حكيم ولكن لا تعلم انك طبيب ملوكي والوظيفة التي أنت بها ذات أهمية كبرى وبخلاف ذلك فاكراما لخاطر الست زوجتك مجبور على الاستعدادات اللائقة بالنسبة للنسب فان الملك يتغير خاطره ان لم تستقبله بحالة ترضيه من جهتك فقال مرزا ان جميع ماقلته فهو عين الحق ياصاحبي ياحاجي الا اني مهما بلغت فأنا لا أخرج عن كوني حكيما ولا يظن أن جميع هذه الشيلان والمخيشات والاقمشة ملك لي وأظهرها عند اللزوم فاجبته وما الذي تفعله غير ذلك فهل تريد ان تنشر الجلد في الطريق وتفرش مخدع جلالته بالقماش العادي

فقال لا بل ننشره بالزهورات الرخيصة التي تعلمها ولربما نذبح ثورا عند تشريفه ونرش مبلغا وافرا من زجاجات الشراب تحت أقدام جواده (وهذه عادة الاعجام القديمة لانهم يتباشرون برش الحلوى ويعتقدون ان

السكر اشارة الى السعادة) فهل لا يكفى ذلك

(قال الحاج بابا) فصحت قائلا كلا هذا يستحيل اجراؤه فانك اذا فعلته فالشاه وأعداؤك يدبرون حيلة فى تجريدك وتصبح عريانا مثل يدى اغا الا بأس من عدم اتباع جميع مشورات الخزندار وتكتفى بفرش شيت فى الشارع وقطيفة محل نزوله والديباج فى الحوش والشيلان تفرشها فى أودة الجلوس وبذلك لا تتكلف مصاريف زائدة

(قال الحكيم) لقد وقع عندى كلامك موقع الاستحسان ولربما أسير بهذه الطريقة فان الشيت موجود بالمنزل وهو الذى أحضرته للحريم لزوم تفصيله سراويل لهن وان مريضا أهدانى ذلك اليوم بقطعة قطيفة أصبهانية وفى امكانى أيضا مبيع بدلة الشرف تعلق لاستبدالها بالديباج وشالان أو ثلاثة من شيلان حرمى تكفى لفرش أودة الجلوس وببركة الامام على انتهت هذه المسئلة فقلت له متعجبا كيف ذلك فان الملك سيدخل عند الحريم ويلزمهن ان يلبسن أفخر الملبوس ويتحلين بأثمن الحلى فى هذا الوقت وذلك مما يوجب سرور الملك ويجلب لك السعادة

فأجاب (آه) أما من هذا الخصوص فيمكنهن يستعرن من أحبابهن أى شئ من الجواهر والحلى والملبوسات والسدارى والشيلان ويتحصلن على جميع ما يحتجن اليه

(قال الحاج بابا) فلما طرق مسامع سيدتى الخانم نقضته واستحالت وقوعه ونسبت زوجها الدناءة الاصل وانه ما كان يليق ان تكون زوجة له وحتمت رأيها بالشروع فى هذه المسئلة على أسلوب يستحق امتياز الشرف الذى سيمنح اليه فعلى ذلك لم يمكن الحكيم مقاومة زوجته بل أخذت الاستعدادات بهيئة تفوق جدا عن الصفة التى كان سيجريها وكل فرد فى منزله سلك بحسب هواه وانجبر على صرف جميع الدراهم التى اغتصبها ونهبها من مدة مديدة من الناس الآخرين

(الفصل

(الفصل الثامن والعشرون)

(فى الكلام على كيفية استقبال الشاه والهدية التى تقدمت اليه وما تلا ذلك من غريب المسامرة)

ولما كان صباح اليوم المعد لتشريف الملك (وكان يوما معلوما حسب ما أخبر عنه المنجمون) شاع فى كل مكان ما أعده ميرزا أحمق فى منزله من التجهيزات الهائلة والزينة الفاخرة وحضرت ابريقجية الملك (وهم الخدمة الخصوصية كما يلقبهم بذلك الاعجام) ودخلوا الجهة التى سينعقد فيها مجلسه وفرشوا مسنده الملوكى بالسجاجيد وغطوه بأفخر طيلسان ورشوا الحوش بالمياه وفتحوا ينابيع المياه التى فى الفساقى وصارت ترتفع وتنخفض اليها المياه ثم غطوا السور بستر جديد وبعد ذلك أتى جنابينية الملك وزينوا المحل من الداخل والخارج بالزهورات وفى أسرع وقت نثروا على سطح مجرى المياه المواجهة لمحل جلوس الملك ورق الورد باختراع عجيب الشكل وغرسوا حول الفسقية الرخام أشجار البرتقال حتى صار رونق المحل فى غاية البهجة والانشراح ومن يراه يكاد ان لا يفارقه مما يجده من طراوة الهواء وانشراح الصدر ثم دخل الطباخون وهم فرقة مستبدة يصحبهم جملة من القزانات والحلل والتناجر والاوانى النحاس ولما رأى الحكيم جميع ذلك طار عقله ولم يجد صبرا عن سؤال رئيس الطباخين عن الداعى لاحضار جميع هذه الاوانى الفائقة الحد وهل فى العزم تقديم الطعام لاهالى المدينة عموما مثل الملك فاجابه رئيس الطباخين قائلا ليس للكل ولكن اعلك تتذكر كلام السعدى حيث يقول

اذا رام رب الملك تفاحة غدت * حواشيه تجتث الفروع مع الجذر
وان رام يوما بيضة بلطافة * ترى الطير فى الاسياخ تصلى على الجمر

ثم انهم دخلوا المطبخ فلم يجدوه ربع اللازم لتشغيلهم وبذلك انجبروا على

اقامة كوانين وقتية فى الحوش المجاور له وجعوا فيه الاوانى النحاس وفلفلوا الارز المعتاد توزيعه على من يحضر من الناس فى مثل هذه الاحوال كما هى العادة وبخلاف الطباخين حضرت طائفة من الحلوجية واستقرت فى أحد محلات البلوك وجهزوا فيها أنواع الحلويات والشوربات والمبردات والفواكه وطلبوا جملة أجزاء حتى ان الحكيم عندما رأى قائمة الاصناف كادت ان تزهق روحه ومايدرى أيضا الا وحضر طقم المغنين والموسيقة واللوتى باشا (وهو رئيس السخرية) يصحبه عشرون سخريا وكل واحد معلق طبلة على كتفه وكان الوقت المعين لتشريف الملك هو بعد صلاة المغرب يعنى بعد غروب الشمس وهبوط حرارة النهار وهو الوقت التى تستنشق فيه أهالى طهران النسيم البارد وعند ذلك الوقت قام الملك من سرايته قاصدا منزل الحكيم وكانت وقتئذ الشوارع مكنوسة ومرشوشة وبمجرد اقتراب الموكب الملوكى نثرت الازهار فى الطريق وأسرع مرزا أحمق بنفسه الى الحضرة الملوكية ليعرض لها استعداد كل شئ ومشى بجانب الركاب الملوكى أثناء الموكب وكان يتقدمه المشاعلية وبيد كل واحد نبوت وعلى رأسه الزينة ينادون بتشريف الملك وينظمون الناس فى الطريق والنساء قاعدات فوق أسوار الحيطان للفرجة وعلى وجوههن براقع بيض وأما النساء المعتبرات فكن يتطلعن من شقوق مشربياتهن ثم تبعهم قسم كبير من الابريقجية والفراشين وبأيديهم شماريخ طوال ليحفظوا الطريق من الطفيلية وكان خلف هؤلاء جملة من ضباط الاصطبل الملوكى حاملين على أكتافهم الرخوت المزركشة الثمينة ووراءهم الخدم متجملين بأفخر الملبوس وبأيديهم شبكات من الذهب ويصحبهم حامل مداس الملك وحامل الابريق والطشت الملوكى وشماشيرجى يحمل برنسه وآخر معه علبة الافيون ويعقبهم كمية من الخدمة الآخرين

وبما ان هذا الموكب خصوصى فلم يسر امام جلالته فرسان الخيالة الذين

يجعلون للملك هيئة عظيمة عند تظاهره وكان خلف من تقدموا فرقة من العساكر القرابة يسيرون اثنين خلف اثنين بملابس رسمية والبعض يلبسون برانس من القطيفة السوداء مزركشة بالعملة الذهبية والبعض يلبسون المقصب وآخرون الحرير وماشون قدام الملك نفسه وبجانبه رئيس القرابة وهو رجل من كبار المديرين ذوى الفطانة مشهور بكرباجه المصفح يده المغرز فى منطقته وكان الملك راكبا على جواد هادم هون ومسرج بافخر السروج الا ان ملبوس جلالته بسيط وعمتاز فقط بحسن الشيلان المتلفع بها وببعض الزينة التى فيها وبعده بمسافة خمسين خطوة أنجاله الثلاثة ثم كبير الاشراف ورئيس التشريفات والميرياخور وشاعر المعية وغيرهم كثيرون والجميع محاطون بخدمهم فوجدان الذين اجتمعوا على مائدة مرزا أحمق يبلغون الخمسمائة بل أكثر من ذلك ثم نزل الملك من فوق جواده على الباب لضيق المدخل ومشى على المشاية المتوسطة المعدة له الى ان وصل الى كرسيه الخصوصى الموضوع فى الصالة فوقفت جميع الناس فى الخارج ماعدا الامراء وأنجاله وأما الحكيم فكان يؤدى الواجبات اللازمة عليه بصفة خدام ذليل وبعد ان استقر الملك على كرسيه قليلا مشى رئيس التشريفات يصحبه كبير المنزل جهة الفسقية حفايا الاقدام وكان الحكيم حاملا على يده طبقا من الفضة موضوعا فيه مائة تومان ذهب من العملة الجديدة فلما وصلا أمام الملك صاح رئيس التشريفات يخاطب الملك قائلا بصوت عال

أذل عبيد جلالتك يعرض بكل خضوع الى مركز الكون ملك الملوك ظل الله على أرضه وهو ان مرزا أحمق رئيس أطباء الملك يتجاسر بالتقرب الى تراب أقدام جلالتك الطاهر يقدم على سبيل الهدية مائة تومان من الذهب

(فاجابه الملك) أهلا بك يامرزا أحمق والحمد لله كونك خادما صادقا فان الشاه

تكرم عليك بتعطفاته الخصوصية التى ابيض منها وجهك وزادت شهرتك وثروتك فاخرج واشكر الله سبحانه وتعالى لرضا الملك عليك وحضوره لدعوتك وقبوله هديتك فلما سمع الحكيم ذلك سجد على ركبته وقبل الارض بين يديه فالتفت الى الملك رئيس الشرفاء وصاح قائلا وحق رأس الشاه ان مرزا أحمق من أطيب الناس ولم يوجد الآن نظيره فى بلاد العجم وانه أعقل من لقمان وأعلم من جالينوس

(فاجاب كبير الشرفاء) نعم نعم فان لقمان أو جالينوس يعد كلبا بالنسبة له وأما هذا فنجمه من أنجم ملك الملوك السعيدة لانه لم يأت للعجم ملك مثلك ولا حكيم لملك مثله وان الناس يعتدون حكماء اوربا والهند ولكن أين العلم ان لم يكن فى بلاد العجم ومن الذى يدعى الرئاسة مادامت بلاد العجم مستنيرة بالحضرة الملوكية التى لا نظير لها

(قال الملك) حقا جميع ذلك فان بلاد فارس من ابتداء ما خلقت الدنيا الوقتنا الحاضر مشهورة بذكاء سكانها وحكمة وعظمة حكامها فاليك من مدة ما تبوأ (قايمرس) وهو أول ملك حكم لغاية حكمى أنا وهو الشاه الحالى أى سلسلة وجدتها مثل هذه متصفة بالعدل والكمال والمجد واليك ملوك الهند وخلفاء العرب وخون خورس تركيا (شار بين الدماء) وخانات التتر وامبراطورات الصين الا الافرنج الذين أتوا الى ممالكى والله أعلم من أى مكان فيشترون ويبيعون لى جملة من الهدايا هؤلاء الكفرة الاذلاء الذين لهم جملة ملوك ولم تطرق أسماء بلادهم على آذاننا

(قال الشريف) بلى بلى (نعم نعم) انى فداؤك أيها الملك ولكن ما عدا أمة الانكليز والفرنساوية فانهم مشهورون فى العالم وأما جميع الممالك الاخر فلا يذكرون بشئ مطلقا كأنهم عديمو الوجود تقريبا ومن جهة الموسكوف فلا يعدون من الاوروباويين وانهم أقل من كلاب أوربا

(فاجاب الملك ضاحكا) هاها لقد قلت حقا وانه كان عليهم ملكة يسمونها

خورشيد كوله (يعنى رئيسة مجدهم وهى كتر ينة الثانية وبذا يلقبها الفرس) وبالنسبة لكونها امرأة فكانت من النوادر العجيبة حقيقة لاننا جميعنا نعلم انه اذا توسطت امرأة فى أى أمر (پناه بخدا) أى نسأل الله الحماية فى هذا الوقت وتولى عليهم بعدها (پول) وكان فى غاية الجنون ولاذ كر لك أمرا من جنونه لما أراد أن يسير بجيش الى الهند وهو أمر لم تأته قزل باش (وهو لقب تلقب به طائفة من العجم من قديم الزمان) مطلقا فصار الروسى يلبس قلنسوة ودميرا ضيقا باكمام ضيقة أيضا ويحلق لحيته وبعد ذلك يدعى انه اوروباوى فبذلك يمكنك الآن تربط أجنحة الاوزة على ظهرك وتدعى انك ملك

(قال رئيس الشرفاء) العجب العجب ان الشاهنشاه يتكلم مثل ملك من السماء فاى ملك فى أوروبا يتكلم مثله فصرخ الواقفون قائلين حقا حقا وقال واحد يدوم لنا ألف عام وقال آخر لا ينقص ظله ثم استمر الملك فى حديثه قائلا أما من جهة نسائهم اللواتى نسمع عنهن حكايات خارقة للعادة فهن أولا ليس لهن اندرون (وهى جهة داخل المنزل لمداراة الحريم عن الرجال) فى منازلهن والرجال والنساء يختلطون ببعضهم وثانيا انهن لم يتسترن بالبراقع بل يكشفن وجوههن لمن يريد النظر اليهن مثل قبائلنا الرحالة فتأمل يا مرزا أحمق للنظامات الغريبة الالهية التى صيرتنا نحن المسلمين الامة الوحيدة على وجه الارض بان نعتمد على نسائنا وانهن الخاضعات لاوامرنا فى جميع الاحوال ثم تبسم الملك مستهزئا وقال وانى أسمع انك أسعد الناس لحيازتك زوجة مطيعة وممتثلة لاوامرك

(فاجاب الحكيم) الذى امتلكه ما هو الا من فضل ورعاية ملك الملوك مهما كان فانه يصيرنى سعيدا وفى أرغد عيش مدة حياتى فانا وزوجتى وعائلتى عبيدك انى ضعيف وكل ما استحوذ عليه فهو ملك لك وان ملك عبدك شيأ فليس له بل كل ذلك ناشئ من ملجأ الدنيا أى جلالتك وعندما تأمرنى بأمر

تتبدل أوهانى بالقوة فأى سراج يضىء امام وجه الشمس وأى منارة تعلو بجانب جبل الوند فامامن خصوص ما أراد به المتكلم عن النساء فالظاهر لاقل صيدلك وجود علاقة كبرى بين الحيوانات والاوروباويين وروايات تدل على سفالتهم للمسلمين وكان الذكر والانثى من الحيوانات يجتمعان سوية بدون تمييز فكذلك الاوروباويون وكما ان الاناث من البهائم لا يسترن وجوههن فنساؤهم بالمثل والبهائم لا تغتسل ولا تصلى الخمس أوقات فبالمثل الاوروباويون وكان البهائم تعيش بالالفة مع الخنازير فهم بهذه الصفة لانى أسمع أن كل بيت فى أوروبا بدلا عن ان يبيدوا الحيوانات النجسة مثلنا يتخذ كل واحد محلا مناسبا التربية حلوفه فالزوجة فى هؤلاء الممالك النجسة هى لفظة ليس لها معنى ما دام ان زوجة الرجل منهم ملك لاى رجل آخر

(قال الملك) أحسنت أيها الحكيم وعلى ذلك جميعهم بهائم ماعدانا وقد أخبرنا بكثير من ذلك نبينا عليه الصلاة والسلام وان الكفار يصلون فى نار جهنم وأما المؤمنون فيجلس كل واحد منهم للابد مع حوريته فى السماء السابعة ولكن بلغنا أيها الحكيم ان جنتك صارت على وجه الارض وانك تحصلت على الحور لتتمتع بهن فكيف ذلك فانحنى الحكيم ساجدا قليلا وقال ما ينعم به الملك فهو ملك له وان الساعة لاسعد الاوقات اذ فيها تصل عنق مرزا أحمق للسموات عندما يتحرك القدم الشريف بتخطية عتبة اندرونى الحقير فاجاب الملك نشاهد ذلك بأعيننا فنظرة من الملك تجلب حسن الاقبال فقم واذهب الى حرمك وأخبرها أن الشاه سيزورها وانه اذا كان عندها مريضة تشتهى أمرا أو خادمة تشتهى رؤية معشوقها أو زوجة تريد الخلاص من زوجها فرهن يحضرن أولا لرؤية الملك وبذا ينلن السعادة الوافرة فى قضاء وطرهن

وكان شاعر المعية فى هذه المسافة ساكتا لا يتكلم ويظهر عليه انهما كه فى الافكار فلما انتهى الملك من كلامه صاح وقال ما يأمر به الملك ماهو الا

برهان اضافى على احساناته ورضاه ثم أنشد باحسن طريقة وقال هذه الابيات المترجمة بقلم من تشهد له البراعة فى هذه الصناعة الكاتب اللبيب والفاضل النجيب مصطفى بك نجيب

الشمس فى أفق السماء فريدة * ومليكنا فى الارض فرد أوحد
لهما البقاء مع ابتهاج دائم * وكلاهما بين الخليقة يقصد
نخر الطبيب وأين يبلغ طبه * نظر المليك فذا العمرك أجد
أدنى التفات منه يدنى للمنى * ويزيد فى برء النفوس ويسعد
فاهنأ فقد أصبحت أفق سعادة * اذ أمك الملك العظيم الامجد
فهو الشفاء لكل داء والعلا * ج اذا أصاب الناس خطب أنكد
دع عنك أنباء الاساطين الاولى * ماطبهم مارأيهم ما المقصد
هذا مليك للسعادة جامع * تالله قد شذ القياس ويبعد
من رام بينهما قياسا ضله * كانوا السماد وذاك بحر مزبد

وكان الحاضرون ساكتين اثناء تكرار هذه الابيات يترغون بما فيها من لذيذ الالفاظ ولما انتهى الشاعر قال له الملك (افرين) أحسنت يالك من شاعر أهل لمجالستنا ومنادمة الملوك كذب من يقول ان الفيردوزى أو محمود الغزناوى الوسخ يعادلانك فانك أشعر الشعراء ولم يسبق لك مثيل فقم اليه يارئيس الشرفاء وقبل فمه واملأه بالقند (السكرنبات) فقام الشريف بأمر الملك وبعد ان قبل فمه ملأه بالقند وصار يحشى شدقيه حتى تضايق الشاعر وانحدرت الدموع من عينيه وسالت مياه القند على صدره وهو مازال ينحنى ويفتخر بهذا الشرف السامى ثم أمر الملك بالانصراف فقاموا الجميع من حضرته وخرجوا وأخذوا فى اجراء الاستعدادات لتجهيز العشاء الملوكى

﴿الفصل التاسع والعشرون﴾

﴿فى وصف الوليمة التى انتهت بحادثة مبيدة لسعادة الحاج بابا﴾

أما الذين سمح لهم بالدخول لتناول العشاء مع الشاه بخلاف الخدم فهم الثلاثة أمراء انجاله فقط برفقة جلالته وكانوا واقفين بعيداً عنه راكنين ظهورهم للحائط متوشحين بكساوي التشريفة ومتقلدين بالسيوف على جوانبهم وأما ميرزا أحمق فوقف خارج الباب تحت الطلب ثم أحضر كبير الفراشين سفرة من أعظم الكشمير المزركشة بالذهب وفرشها على السجادة امام الملك وابريقاً وطشتاً من الذهب لغسل أيديهم أيضاً ثم أحضروا الطعام على صوان مختوماً عليه بختم كبير المطبخ احتراساً عن سمه وكشفه بيده في حضرة الملك فظهر بوقتها جملة أصناف من الطبيخ المفتخر والبسلك مشتملاته فكان فيه الارز أنواعاً مختلفة يطلع منه الدخان مع السفرة فمنه أرز شيلاو أبيض كالثلج وثاني أرز بيلاو بقطع من لحم القوزي مسلوقاً ومغرزاً فيه وثالث أرز بيلاو أيضاً عليه دجاجة مطبوخ في الفرن ورابع أرز ملون بالزعفران وممزوج عليه حمص ناشف وأخيرهم أرز يقال له ملك الصحون الفارسية وهو بيلاو النارنج مصنوع بقطع من قشر البرتقال ثم البهارات من كل صنف واللوز بالسكر ومن الاسماك البياض ونوع من السردين مجلوب من بحر القزبين موضوع بين الصحون وأصناف من السمك أيضاً من نهر الزنجي بالقرب من أريفان وأطعمة متبلة داخل آنية وسلاطين مختلفة الحجم محتوية على طيور مسلوقة ومفرومة قطعاً مطبوخة بالارز والاعشاب الحلوة والبصل وأيضاً يخني مطبوخ بنخاع عظم القوزي وعليه قطع من اللحم مطبوخة بعصيرها وقرع صغير محشي باللحمة السمينة مطبوخ بالزبدة وطيرة مطبوخة قطعاً وعليها مرقة غامقة من عصير الاجاص وصحن عجة سمكها قيراطان تقريباً وكاس مملوء من خلاصة اللحمة وفيها قطع من الضأن وعصير اللوز والاجاص والتمر هندي مرشوش على أرز شيلاو وبيض نصف سليق محمر بالسكر والزبدة وصحن من الباذنجان مشقوقاً نصفين ومسلوقاً بالدهن ولحم صيد مطبوخ وأصناف أخرى كثيرة من الاكل يضيق المقام

لذكرها

وبعد هذه أحضروا اللحومات المشوية والمحمرة فمنها قوزي مشوي على السيخ وذنبه مستو كالمخ ملوي على ظهره وسماني يتهيأ للناظر انه يندر وجود لذة مثله يلتذ بها في العجم ونوع آخر منه صادوه من الوادي ذلك اليوم وديوك من ندرة وقطع من جحش بري وظبي وخلافه وكان المنظر واللذة يدهشان كل انسان لان الطعام كان مكوماً حول الملك بكثرة حتى كل من رآه يظن ان الملك من ضمن الطعام ولا أذكر لك ما فيه من الاصناف التي لا تحصى من المربات والمخللات والجبنة والزبدة والبصل والبهار والملح والفلفل والحلويات والحوامض التي كانت حول الصينية أنواعاً مختلفة لحسن الهيئة وأما الشرابات فحدث ولا حرج لما لها من لطافة الطعم واللذة اذ كانت موضوعة في سلاطين من أفخر الصيني وتشرب باحسن الملاعق المصنوعة من شجر الكمثرى ومنها شراب الليمون من أحسن صناعة وشراب السكنجبين وشراب السكر بالماء ممزوجاً بماء الورد ليجعل رائحته ذكية وعليه بزور حلوة لازدياد طعمه وهو حب الرمان وجميع ذلك عليه قطع من الثلج

فجلس الملك على الطعام وانحنى برأسه ومال نحو قدمه وأكل من أنواع الارز وصحون أخرى وهو ساكت لا يتكلم وأولاده والخدم واقفون أمامه بغاية الاحترام لا يتحركون ولما انتهى من الاكل قام وغسل يده في أودة أخرى وشرب القهوة وتدخن بالكليان (الشيشة) وفي حال أكله أمر أحد الخدم بحمل صحن من الارز المفلفل الذي أكل منه الى ميرزا أحمق اشارة الى الشرف الخصوصي اليه والرضا الملوكي فاخذه داعياً للملك بعد ان أعطى لحامله بعض الدراهم هدية ثم أحسن الملك أيضاً بامتياز الشرف من هذا الصنف على الشاعر فالتزم بدفع هدية للخادم أيضاً تليق بمقامه وبعد ذلك أخذ الملك صحناً وأمر بارساله الى زوجة الحكيم التي بعد ان أخذته

أعطت لحاملها مكافأة فكان الملك سببا لمكافأة شخصين وهو الذى أخذ الصحن من الملك والثانى الذى أخذ المكافأة

وبعد ان جلس الامراء على المائدة مكان والدهم وأكلوا ما يكفيهم نقلوها لاودة أخرى حتى جلس عليها شريف الشرفاء وشاعر المعية والميرياخور وجميع ضباط وخدمة المعية الذين كانوا بمعية جلالته وأكلوا من نفس المائدة التى تقدمت للملك وأنجاله ومازالوا كذلك يتبادل عليها باقى المعازيم والخدم والمرمتونية حتى شبع الجميع وكان فى غضون ذلك قام الشاه مع الحكيم ودخل الحريم وبما سبق من التنبيهات والانذارات الشديدة ان كل من يتطلع أو يميل بنظرة لامرأة يكون جزاؤه القتل بوقتها فوقفت متحيرا أستنشق ما يحصل داخل الحرم ولكن يا أسفى ما يفيد خوفى ورعبى وقلقى اذ سمعت بعد عودة الملك للصالون ان الحكيم قدم الجارية الكردية هدية اليه فلما بلغنى الامر ضعفت آمالى على انه يلزمنى من كل وجه انسر بتركها محلها الحالى لانى تأملت ان عواقب هذه المسئلة موثرة لمعيشتها لارتفاع درجتها وثروتها فى حال ما تذكرت ذلك هدأ روعى وبردد مى ثم اننى تفكرت فى نفسى ببذل مجهودى للوقوف على حقيقة الاشاعة ولعلى فى أثناء هذا الصياح تصادفنى العناية برؤية زينب

وعلى ذلك لم أتأخر لحظة عن توجهى الى محل المقابلة السابق فوق السطح حيث سمعت منه ضجيجا وصياحا بين النساء العديدات اللواتى أتين للزيارة فى حرم الحكيم فكنت أتطلع عليهن فلم أعثر بينهن بامرأة تشابه معشوقتى واستمريت واقفا حتى أظلم الليل ويئست من ابداء أى اشارة لالتفاتها نحوى بالنسبة للظلام ولكن بما أؤمله من دواعى المحبة التى بيننا فكنت متيقنا بانها لا تتأخر عن وضع الاشارة التى بيننا بالطريقة السابق اجراؤها وكان بجزء من السطح الذى تقابلنا عليه أولا مطلا على الشارع ومن عادة النساء التفرج منه عند حدوث أمر غريب مثل ذلك فرجوت وقتئذ ان

تكون زينب ضمن النساء اللواتى سيتفرجن الآن على موكب الشاه لانى سمعت ضجة الخيل وصياح العساكر ورأيت الفوانيس فى أيديهم وذلك دلالة على قرب خروج الشاه ولسرورى سمعت أيضا قعقعة نعال النساء وصياحهن وهن طالعات على سلالم السطح فتواريت بجانب الحائط ولم يرنى أحد الا اللواتى يعلمن مسألتى وقلت فى نفسى انه لابد ان زينب جبرا عنها تلتزم من طبيعتها بالتطلع جهتى وكان الامر كما رأيت فلمحتها بين النساء اللواتى طلعن على السطح وهى بالمثل نظرتنى وهذا ما كنت أنتظره فسلمت الامر اليها كى بفطانتها تحيل على طريقة بها تتسامر معى

وبينما أنا كذلك اذ سمعت المنادين يقولون (كچن) مروا يريدون بذلك ان الملك عزم على القيام وكل انسان استعد للانتظام فى سلك الموكب ما عدا الفوانيس فانها كانت امام الاشخاص المعتبرين اشارة الى علو درجاتهم وكانت هيئة عودة موكب الملك للسراية مثل خروجه منها وخرج جميع من كان بمعية جلالته قبل ان يبدى تشكراته وممنونيته ببرهة لصاحب المنزل وأما النساء فلما سار الموكب نزلن من السطح وكانت محادثتهن جميعها طول هذه المدة مشتملة على مجادلات ومناقشات بينهن عن أجمل امرأة استحسنها الملك وأعجبته وبما انهن كن نازلات على السلم فسمعت منهن ما يدل على غيرتهن وحسدهن للسعادة العظيمة التى كانت نصب أعينهن وكانت من نصيب زينب وسمعت احداهن تقول أنا لست متصورة ما الذى رآه الملك فيها حتى انجذب قلبه اليها على انها لم يكن فيها رائحة الجمال ألم تنظرن فمها الواسع ومزاجها الاملح فيه (طوزسز) أى دمها ثقيل وقالت أخرى انها مقوتية وقالت ثالثة ان سديريها كهيئة الفيل ورجليها أكبر من أقدام الجمل وقالت رابعة انها يزيدية ولابد ان الشيطان كتب لها حجابا بالقبول فصحن جميعهن وقلن حقا هذا هو الصحيح فهى اتحدت مع ابليس ليطعموا الملك وخلا وبعد ذلك انقطع كلامهن بعد ان شفين غليلهن ولم

أسمع شيأ ولم يبق فوق السطح الا امرأة يظهر انها مهتمة بالنظر لسير جميع الموكب فى الشارع فلما علمت بنزول النساء الآخرين قامت فى الحال وأتت نحوى فاذا بها زينب

﴿الفصل الثلاثون﴾

﴿مصادفة الحاج بابا عزولا وهو نفس الشاه وحرمانه من معشوقته اللطيفة وقطع مواصلات المحبة بينهما﴾

أما المحل الذى كنت مختفيا فيه خلف الحائط فانه لم يكن حاجزا كبيرا بيننا فاخبرتها قبل ان تعلمنى بالضرر الناشئ من مسامرتنا الاخيرة عن الحالة السيئة التى أنت بفكرى فاجابتنى انها مادامت الآن صارت من ضمن الحرم الملوكى فهذه هى آخر مقابلة ولم يكن من نصيبنا سوى الموت اذا وجد ناسوية

(قال الحاج بابا) وكنت مشتاقا لسماع الحالة التى بها الملك استحوز عليها ولأقف على مايكون من مستقبل أمرها ولكن ماعندى من التنهد والبكاء أخمد كل أمر أريد التفوه به وكانت هى أيضا من جهة أخرى لم يطمئن قلبها تماما بهذا الفراق لتشتت عقلها فيما يكون من مستقبل نصيبها أوانها تخضع مدة حياتها الى ما نالها من الذل الذى تحملته من جهتى وحقيقة لا أقر بهذه الحالة العودة لسالف المحبة

ثم أخبرتنى ان الملك لما دخل الحريم استقبلته فرقة من المغنيات وضربوا سلامه الملوكى على الطنبورة وحال جلوسه فى الصالة المكشوفة أذن للخانم بالحضور وتقبيل ركبته وقد أعدواله قماشا مطرزا بالحرير للدخول عليه وعندما استقر انقض عليه الطواشية واقتسموه بصفة استحقاق لهم وكان يصحب الملك كبير التشريفاتية فقدمت اليه الخانم ومعها الهدية على صينية من الفضة داخلها ستة طواقى من نسيج الخانم وستة أوجه سداريات محشوة

بالكشمير لاستعمالها زمن الشتاء فوق القميص وزوج سراويل من الشيلان الكشمير وثلاثة أقمصة حرير وستة أزواج شورابات محبوكة بعائلة الحكيم وبعد ان قبل جلالته هذه الهدية وأبدى تشكراته وممنونيته للخانم نظير حذاقتها هذه تقدمت اليه النساء ووقفت صفين من جانبى جلالته

(قالت زينب) ومن ضمن المصائب التى تراكمت على كنت آخر واحدة فى الصف حتى خلف نورجهان أيضا وهى الجارية السوداء ولو كنت موجودا لشاهدت ما قاسيناه من الاتعاب التى أجريناها بقصد انجذاب التفات الملك نحونا وميله الينا وبالمثل ليلى العجوز فكان البعض منا خجلان والبعض مكشر والبعض ينظر جهة جانبيه والبعض يتطلعن بجسارة لوجه الملك وبعد ان فتش الملك جميع النساء واقترب نحوى وتأمل لهيئتى كف عن التفتيش ونظر لى مليا ثم قال للحكيم أى جنس هذه الجارية فانها بضاعة لاتوافقك وحق جيقة الملك (وهى اشارة توضع على التاج الملوكى من الامام) ياحكيم انها جارية حسناء فماشاء الله ما أحسن ذوقك وجهها كالبدر وعينها كعين الظبى وقدها كغصن البان ليس بها من عيب وقد حوت أنواع الحسن والجمال

فانحنى الحكيم اجلالا للملك وقال انى فداءلك وان كانت هذه جارية لاتذكر وجميع أمتعتى وما أمتلكه هى من احسانات ملك الملوك وتعلقاته فليسمح الملك بان أقدمها هدية لاعتاب عرش جلالتك فاجابه الملك وقال (قبول) أقبل ذلك ثم دعا بكبير الطواشية وأمره بتمرينى فى الرقص والغناء وتفصيل جميع ملابسى على هيئة ماتقتضيه خدمتى المستقبلة وبصير استعدادى كاملة من تعليمى هذا الفن فى أقرب وقت حتى بعودته من الصيفية يقدمنى لجلالته

ثم صاحت زينب وقالت آه من تطلعات زوجة الحكيم نحوى أثناء هذه

المحاورة فانها صادقت على جميع ما قاله الملك وهى تشخص لى بنظر ينبئ عن ألوف من الغيظ كامنة فى صدرها وأما الجارية الجرجانية فكانت تنظر الى بخناجر سليمانية ولكن نورجهان حسنة المعاشرة كانت تنظر لى بالبشر والسرور دلالة على ما نالنى من حسن البخت وفى أثناء ذلك سجدت على الارض امام الملك الذى كان يلحظنى بنظرة الالتفات والشفقة ولما خرج الملك حصل تغير كلى فى أخلاق الهانم لانها كانت تعاملنى بسوء العشرة فلما علمت اننى انضممت الى جوارى الشاه أخذت تعاملنى باللطف والانسانية ولم أكن فى هذا الوقت ابنة الشيطان ولا خادمة ملعونة بل كانت تقول لى يا حبيبتى يا روحى يا نور عينى يا بنتى وانى ما كنت أتدخن امامها مطلقا فصارت تشركنى الآن فى شبكها وان كنت شبعانة أو جيعانة كانت تأخذ قطع الحلوى وتضعها باصابعها فى فمى وأما الجارية الجرجانية فلم تطق النظر الى بل دخلت أودة أخرى لتهضم حسدها بقدر ما يمكنها وقد اقبلت جملة تهانى من النساء الاخر طويلة العبارة كانها كانت مرسومة امامهن

امام مشغوليتى المستقلة فهى المحبة والخمر والموسيقة والاستحمام ووقوفى امام الملك وأخبرنى البعض عن أحسن التمائم الجالبة للمحبة والمهلكة لسلطة الاخصام وأخبرنى آخرون عن كيفية الحصول على الهدايا الثمينة والبعض علمنى طريقة التكلم وابداء الاحترامات والتسليمات فيما اذا كان الشاه يريد التكلم معى وبالاختصار أقول عن نفسى ان زينب بعد أن كانت مسكينة وذليلة وأحقر المخلوقات ماتدرى الا وأصبحت على حين غفلة وجدت نفسها موضع الالتفات العمومى والاستغراب ولسان حالى يقول

ان كان دهرى قددنا * واذا قنى طعم الهوان
فلقد غدا الى محسنا * لما وفى لى بالامان *

فلاصفحن عنه ومن * نقم الذنوب على الزمان
ولاشكرنه على الذى * أولاه من نعم حسان
لما عددت من سرا * رى الشاه ذى الملك المصان

(قال الحاج بابا) وهنا انتهت زينب من حديثها والسرور الذى استشعرت به نظرا التغيير حالتها كان من نوع العتو والجنون حتى اننى لم أتجاسر على اخماده وانبائها عن الخطر المنتظر امامها وانها لا تعلم الا قليلا مما يترتب من العقاب المخيف فيما اذا دعاها الشاه لحضرته ووجدها لا تستحق التفات جلالته لانه من المقرر فى سجلاتهم انه اذا حصل من أحد مثل هذا الامر فلا يكون جزاؤه الا الموت بأشنع قتلة ولم تسمع له دعوة فى أى مجلس على وجه الارض وعلى ذلك هنأتها بما أصابها من السعادة ولكوننا تيقنا بالفراق من بعضنا فصرنا نسلى أنفسنا مؤملين مبادلة المخاطبات بيننا وعدم انقطاعها ثم أخبرتنى ان أحد طواشية الملك سيأخذها صباح باكر ويرشدها للسراية وبعد ان تغتسل وتلبس ملبوسا جديدا يجرى تسليمها الى بلوك الباز يجر (المغنيات) وهناك تبتدئ فى تمرين هذا الفن هذا ولما سمعت اسمها يتكرر المرار خشيت ان تخاطر بنفسها للجلوس معى مدة زيادة عن ذلك فافترقنا بعدان تبادلنا وداعا عشقيا ألوفا من المرار حتى ضعف منا القوى لربما لا نتقابل ثانيا

﴿الفصل الحادى والثلاثون﴾

﴿تحيرات الحاج بابا فى أمره بفراق زينب وطلبه لجأة لاظهار حذاقته بصفة حكيم﴾

(قال الحاج بابا) ولما غابت زينب عن نظرى جلست فى مكانى مرتبكا بالافكار وقلت لنفسى لقد كان مثلنا مثل نواتين داخل لوزة فاذا كانت الدنيا بهذه الصفة لا تصفو ولا حدفان الذى أجريته فى هذين الشهرين لم يكن الا احلا

بعد ان تهيألى انى أنا المجنون وهى ليلى ومادام الشمس والقمر يتبادلان نستمر فى المحبة حتى تسقم أجسامنا وتروح أرواحنا وتحترق من شدة الغرام مثل الفحم وتشوى قلوبنا كما يشوى الكباب ولكن أين ذلك فقد ظهر انه ضحك على لحيتى فان الشاه بمجرد حضوره وتلفظه بكلمتين انتهى كل أمر وفى لحظة واحدة صار الحاج بابا فى زوايا النسيان وتلبست زينب بالاهواء الملوكية لا تفتكر فى طبيب ولا حبيب

ومازلت على هذه الحالة الى الصباح ولم يهو عينى نوم طول ليلتى وأنا أتقلب على الجمر مما لحقنى من شدة الافكار الممزوجة بالحمى ثم نهضت طائش العقل عازما على جملة آراء بالنسبة لحالتى وخرجت لا تمشى خارج أسوار المدينة فصادفت حال خروجى زينب راكبة على جواد مجمل بأحسن الزخرف يديرها أحد الطواشية الملوكية وامامها الخدم يوسعون لها الطريق لمرورها فطار عقلى وارتخت أعصابى ورجوت انها بمجرد ماترانى ترفع لثامها لاشاهد محياها فلم يحصل ذلك لا ولم تحرك على الاقل ركابها فمشيت قليلا خلفها وقد نويت على طرحها من فكرى ولكن لا أدرى الا وشئ يعلمه الله جذبنى خلفها الى باب السراية الملوكية بدون ان أشعر وبدخولى الحوش البرانى وجدت جملة من الخيالة واقفين للاستعراض امام الملك اذ كان جالسا فى الاردة التى فوق الايوان وبالنسبة للزحام الحاصل تاهت زينب وقائدها عن نظرى حيث بعد دخولها منعنى الحرس وفى هذا الوقت زالت عنى الافكار نظرا للهيئة التى رأيتها امامى وماذلك الا لامر يعلمه الله

وكانت الخيالة الموجودة تحت التجربة تحت قيادة نومر دخان وهو رئيس السيافة وكان حاضرا معهم ولابسا كسوة مطرزة بالذهب وعلى رأسه الزينة المرصعة بالمينا تلمع من ضياء الشمس وراكبا على أنفر جواد وقد كان هذا المنظر بالنسبة لى غريبا الا انى لما تطلعت اليه والى الخيالة والخيول

والحرب والبنادق تذكرت أيام التركمان السالفة وتمنيت وجودى فى وظيفة شقاء كهذه

وكان الجند مصطفا فى أحد جوانب الميدان وكاتب سر الحربية واقفا فى منتصفه يصحبه كتبته الستة ومع كل واحد منهم دفتر يختلف عن الآخر ومناديان أيضا أحدهما ينادى بصوت عال على اسم الفارس والثانى يجيب بكلمة (حاضر) بعد مروره فى السوم (وهو الاستعراض) وكيفية ذلك هو ان الفارس بكامل آلاته الحربية يفرها جاما من بين فرقته الكثيفة ويعبر الميدان على آخر سرع من الرماحة وفى هذا الاثناء يؤدى التعظيم والخضوع حال مروره على الشاه وهذا التعظيم يفعله كل فارس حتى ينتهى الاستعراض وكان يرى على كثير منهم هيئة الفروسية اذ انهم مختلفو الاجناس فالبعض مطلعه لطيف بغاية الشهامة كانه رستام (وهو اله الشجاعة عند العجم المتقدم ذكره) وبعضهم كان يرى انهم كانوا مستعيرين خيولهم لقضاء هذه المهنة فيخرجون بخيولهم تعرج كانهم خارجون الى ميدان حرب منصوب فعرفت كثيرا من أصحابى وهم فى الاستعراض جهتى وقد اندهشت عند رؤية حركة قوية حصلت لشاب عندما قفز بجواده للامام أصيب بحادثة أسكنته رمسه وذلك انه لما أراد المرور فوق قضيب عال كانوا يمرون عليه وقع الجواد وراكبه بقوة على الارض فرفع الراكب فى الحال وحملوه الى وسط الزحام فلمحنى بعض الناس ونادانى بعد ان أعلم الواقفين انى من أتباع حكيم الشاه وسألنى التحفظ على المريض ومع عدم معلوميتى شيأ وجهلى لم أتأخر فى اظهار نفسى بصفة حكيم ورأيت الشاب ملقى على الارض يرى انه قاطع النفس وكل من حوله يصفون جملة من الادوية فكان الواحد يسكب اليه الماء فى فمه قائلا هذا على بركة سيدنا الحسين والآخر يتدخن فى شبكه ويثير الدخان جهة أنفه لينعشه والثالث يدلك جسمه وأعضاءه ليعيد اليه قوته ودمه فلما أردت الكشف عليه

واقتربت منه امتنعت هذه الاجراآت المختلفة وأخلى الى الطريق فجست نبضه بكل سكون والحاضرون شاخصون ينتظرون القرار عما يكون فابنت اليهم بصوت شديد قائلا ان وقوعه قضاء محتم والحياة والموت يتكافحان معا الآن ليتوكل أحدهما به

وبناء على التمرينات التى التقطتها من سيدى اننى بعد ان أخبرت الحاضرين باليأس والعشم أمرتهم بصفة مقدمة للعلاج ان يهزوا المريض جيدا كى يعلم لنا ان كانت روحه فى جسمه أم لا فاذا كانت به لا ينفعه الدواء لارتخاء أعصابه كلية وعدم تأثير شئ فيه وبينما أنا على هذه الحالة أتبصر فى أمره اذ سمعت مناديا ينادى فى وسط الزحام ويقول (راه بيدن سرحساب) وسعوا الطريق وارفعوا رؤسكم فتطلعت فاذا به الحكيم الافرنكى الذى ذكرته سابقا أرسله السفير عند سماعه بالحادثة بدون ان يرى المريض وبمجرد ما رآه قال (افصده حالا بدون تأخير) فلما سمعت كلامه رأيت الآن وجها كافيا لاثبات شرف الحكيم العجمى وان أبرز البراهين على قدر امكانى وتصورى فاجبته قائلا (ماهذه الحكمة التى تريد بها أخذ الدم) ألم تعلم ان الموت بارد والدم حار وأصول هذا الفن تشير الى استعمال الادوية الحارة للامراض الباردة وبذلك أمر بقراط وهو أبو جميع الحكماء وانى متيقن انك لا تكذبه فيما يقوله فلو فصدت هذا الجسم لمات فى الحال فاذهب وأخبر من تريد من عقلاء الناس بما قلته اليك حتى تصدقنى قال الحكيم انه غنى عن التجربة فان المريض توفى والحار والبارد الآن على حد سواء فلنوفر أنفسنا من هذا العناء وعلى ذلك تركنى الحكيم الافرنكى وأننى وأنف بقراط مرفوعتان الى عنان السماء وقلت لنفسى ان الموت هو السابق وحكمة الانسان لا تفيد شيأ اذا كانت مضادة لقضاء الله

اذا ما الداء كان من السماء * فلا عجب اذا أعيا الطبيبا
ومن يامل مغالبة القضاء * فلم يك رأيه أبدا مصيبا

ونحن

ونحن الحكماء لا قدرة لنا على مقاومة القضاء كما ان مياه القناة لا يتصور فيضانها على مياه النهر حتى قيل

ان الحكيم اذا تصورانه * بالطب يمنع بالقضاء المنزل
كان كمن قاس وقال ضلة * يعلو عباب البحر فيض الجدول

وكان موجودا وقتئذ فقيه (منلا) فامر بربط ابهامى قدميه ببعضهما وادارته على القبلة وان يلف منديل من تحت ذقنه ويربط من فوق رأسه وبعد ذلك تشهد عليه جميع الحاضرين وقد حضر فى اثناء ذلك بعض أقاربه فصاروا يبكون عليه حتى حضر النعش ووضعوا داخله الجثة ونقلوها الى عائلته

وبالبحث عن حالة المتوفى وجد أنه مستخدم بوظيفة (نسقجى) سياف وهو ضابط ينتمى الى رئيس السيافة مرأس على نحو مائة وخمسين عسكريا ومن واجباته المشى امام الشاه أينما يذهب لتفريق الزحام وتوسيع الطريق ويبلغ الاوامر ويلاحظ المسجونين وبالاختصار فان وظيفته تقوم مقام ضابط المستحفظين خارج المدينة فاتى بفكرى موافقة واستحسان هذه الوظيفة ومافيها من الفوائد العميمة لو أجتهد فى الحصول عليها فانها أحسن عندى من مزج العقاقير واعادة المريض وهنا يصح المثل المشهور وهو مصائب قوم لقوم فوائد فقدحت الفكرة فى الطريقة التى أتوصل بها لقيدى بدله وبعد قليل تذكرت ان رئيس السيافة من أعز اصدقاء مرزا أحمق لامر اعلمه وهو انه صنع له جميلا أوجبه الامتنان الدائمى وذلك ان من مدة أيام رجاه العرض للشاه ان النبيذ الممنوع تعاطيه فى الديوان مقو ومعيد لصحته وبدونه لا تعتدل فصرح له الشاه بشربه بعد استئذان القاضى الشرعى وقد رأيت ان هذه منة عظيمة لا نهاية لها وعلى ذلك عزمت على تفهيم مرزا أحمق بكليات المسئلة واهتمامه فيها لعله يتمكن من اعادة المياه المرة التى كانت تسكبها ينابيع القضاء فى كأس المتوفى الى مجارى من

﴿الفصل الثانى والثلاثون﴾

﴿تعيين الحاج بابا فى خدامة الحكومة بوظيفة سياف﴾

(قال الحاج بابا) ثم انى تدبرت فى الوقت الذى فيه أتكلم مع الحكيم بخصوص قضيتى وان أراقبه صباح اليوم التالى قبل توجهه الديوان وأترجاه عدم التأخير لحظة فى التكلم مع رئيس السيافة بتعيينى بوظيفة سياف بدل المتوفى ولشدة ضرورة هذه المسئلة اجتهدت فى اجراء اللازم خوفا من توجه الحكيم صحبة الشاه الى سراى السلطانية بعد كم يوم لرؤية معسكره فاحرم من هذه الوظيفة ان لم ينظر طريقة قبل سفره فلما دخلت عليه وجدته مشتغلا فى حساب مصروف وليمة الملا وقد استحسن الاقتصاد الكلى من مصروف عائلته ليوفر قيمة ما أنفقه ولم يبال بشكوى جوع أو خلافه و بعد عرض حالتى عليه وعدنى بالمساعدة بدون أن يظهر أدنى ميل واتفق انه بعد أن يتوجه الى رئيس السيافة فى الديوان أن احضر اليه فى منتصف النهار ليكلمه امامى ويعرفه بشخصى

فلما كان وقت الظهر توجهت الى الديوان ووقفت على باب الاودة المعدة لجلوس رئيس السيافة الكائنة امام وجهة البوابة العمومية فنظرت من شباكها فرأيت حوله جملة أشخاص وهو مشتغل بالتسابيح فى احدى زوايا المكان وظهر لى تشتت أفكاره باسباب مناظرة حاصلة بين صاحبى الشاعر ومعاون التشريفات الذى سمعته يصف للشاعر ما أصاب السياف من أشنع الموتات ويحشو فيها جزأ من المبالغات فلم يعجب رئيس السيافة كلامه العارف بحقيقة الواقعة وهو يتلو فى ورده حتى اذا رآهما اقتربا على الانتهاء قطع ما كان مشتغلا به وابتدأ يقص حكايته بمبالغة تفوق عن حكاية معاون التشريفات وانهى كلامه بقوله مؤكدا ان الحكيم الافرنكى تسبب فى

مونه بواسطة فصده بعد ان أعاد روحه الحكيم العجمى فى جسمه بمجرد هزه و بينما رئيس السيافة يسير فى حديثه اذ دخل عليهم مرزا أحمق و بدلا عن رفضه ما تحقق عن الحكيمين أثبت ذلك زيادة بكيفية مستجدة يقبلها العقل ولما انتهى أشار بيده نحوى قائلا هذا هو الذى كان يمكنه شفاء السياف لو لم يمنع فشخصت أعين الحاضرين الى وأمرونى بالدخول وسألونى بيان الواقعة فالقيتها تفصيلا باحسن وقع وطابقتها على مقالتهم مع نسبة جميع هذه الاستدلالات العلمية التى أجريتها الى تعليمات الحكيمباشا بعد الثناء عليه فامتلا مرزا أحمق سرورا أوجبه الغيرة لمساعدتى فى مسألتى وأوصى على رئيس السيافة بعد ان أظهر لياقتى واستعدادى لهذه الوظيفة بدل المتوفى فاجابه ما هذا هل الحكيم يخدم بوظيفة سياف كيف ذلك قال الشاعر وهو يشخص للحكيم بطرف عينه يريه المساعدة من جهته بان هذا الامر لا يضر فكلا الوظيفتين واحدة وذلك ان الواحد يتمم شغله وهو محقق من نهايته عن الآخر والحالة واحدة فاما ان يتوفى الانسان تدريجا بجبة دواء أو يقتل به بضربة سيف

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ❊ تنوعت الاسباب والموت واحد

فاسرع مرزا أحمق مجيبا للشاعر أتنتقدون على غيركم وأنتم الشعراء مندرجون فى سلكهما لانكم تميتون شهرة الانسان وكل واحد يوافقنى على هذا الكلام على ان ذلك أشد موتا من موت الحكيم أو السياف فعند ذلك صاح رئيس السيافة قائلا حقا جميع ما أبديتموه فانكم تقتلون باى طريقة تريدونها وأما حالة العسكرى فاتركوها لى واذكروا الى أكبر حرب أجوب ميدانها وأبدد شملها فانى لو ضربت بالحراب أو قطعت بالسيف فذلك ألذ عندى من النعيم ودعونى أشم رائحة الرصاص وأترك رائحة الورد فانها أشفى الى يا حضرة الشاعر وصوت المدفع ألذ لسماعى عن تغريد البلبل ثم أنشأ يقول

أنا نومر ذو البأس الشديد * وخواض المعامع للورود
أجندل كل ذي قرن عنيد * أخي بأس تسربل في الحديد
ولي سيف يحوم على الورود * ولكن سقيه بدم الوريد
فقل للقرن ذي القلب الجليد * أراك تفر كالطير الشرود
تركتك في الوغى مثل الوليد * بلا قلب ولا رأي سديد
فلم تثبت لدى أسد الاسود * على تلك الصواعق والرعود
دخان الحرب ما بين البنود * كريح الورد في أنف العميد
وصوت الجل ما بين الجنود * ألذ الى من ضربات عود

فاجاب معاون التشريفات يخاطب الجمعية قائلا (نعم) كل انسان يعلم مالكم من الاهمية والاستعداد ومما يؤيد ذلك اظهار الملك سروره المرار بالنسبة لاستعداده الزائد عمن تقدمه من ملوك العجم وقد عزم أن يحمل بجيشه الجرار داخل جورجيا ثم قال لرئيس السيافة واذا كانت الروسيون ترى ما أنت عليه من الشجاعة وشدة البأس لارتدوا على أعقابهم خاسرين وماتوا عن آخرهم وخلصوا أنفسهم من ضربة سيفك القتال

قال نومر دخان مستهزئا من هم الروس فاني بنصف هزة ونصف رعشة من يدي بسيفي هذا أصيرهم غبارا كأنهم لم يكونوا فان استولاء العجم على جورجيا منهم شبيه ببرغوث في قميص يعاكسني كل حين ولو أتعب نفسي طرفة عين لاقبض عليه ومثله عندي مثل الروس

(قال الحاج بابا) ثم ان رئيس السيافة أعرض عن هذا الكلام والتفت الى وقال اني أقبل دخولك في هذه الخدمة بشرط عدم اشمئزازك من رائحة دخان الرصاص بل تميل اليها كل الميل حيث يلزم للفارس السياف ان يكون عنده شجاعة رستام وقلب الاسد ومهارة النمر ثم تفرس في شكلي من الرأس للقدم فاعجبه هيئتي وأمرني بالتوجه الى وكيله ليسلمني الادوات

الحربية على حسب درجتي بعد ان أعطاني التعليمات المتعلقة بواجباتي اللازم تأديتها فلما توجهت اليه وأبلغته الامر وجدته مهتما في التجهيزات المعدة لسفر الشاه واعطاء الاوامر واستقبال الحوادث من الذين تحت قيادته ولما علم اني أنا الذي تعينت بدل المتوفي أمر لي بجواده وآلاته الحربية مع التنبيهات القوية بلزوم التحفظ على الجواد وقال اني لا يمكنني تبديله اذا حصل له عارض مالم يكن بذنبه وعليه الدمغة الملوكية وهي كية على فخذه ورتب لي ثلاثين توماناسنويا يعافيها تعييني ومؤنة حصاني فلبست بدلة العسكرية بكامل آلاتها الحربية ولم ينقص لي شيء سوى بلطة أجلها على كتفي علامة على وظيفتي فقال ان هذه تصرف الي بمعرفة الحكومة

واني أرى من الضروري قبل الخوض في الحديث ان أحيط القاريء بشخص وصفات نومر دخان المظنون عنه انه كان موجودا في سنة ١٨١٣ أو ١٨١٤ بعد الميلاد في بلاد العجم عما ان هذه الصفة هي نفس صفات رئيس السيافة الذي كان موجودا في التاريخ المذكور فكان طويلا مربع الاكتاف قوي البنية يبلغ من العمر خمسة وأربعين سنة ومع هذا فكان في ريعان الشبوبية بطلا شجاعا وأسدا جسورا ومن يراه يقول (خوب جان) ذو شبوبية يانعة وكانت تقاطيع وجهه غريبة الشكل اذ يستظل بحواجب غليظة الشعر سوداء ولحيته وشارباه أسود من الفحم وراحتاه عريضتان وفي غاية الصلابة ويرى من شعره الاسود البارز من حواشي قميصه شدة غلظ جلده وبالاختصار فانه غريب المنظر لا يماثله أحد في صفاته الا انه فظ غليظ مواظب على وظيفته موجه التفاته الكلي نحو اطمئنان وسكون المدينة وكانوا يخوفون به الاطفال وتخشى بأسه الرجال فانه اذا نظر نظرة غضب الى شقي ترتعد منها فرائصه ويوشك أن تسكنه رمسه ومع هذا كله فكان مشهورا في طهران عند الاعجام بلفظة

(خوش جوزران) أى محب للشهوات وكان يشرب الخمر بلا تعنف وبما ان الفقهاء كانوا يهددونه وينذرونه لقبح فعاله بان لا مقر له سوى الجحيم فكان يسبهم بدون مبالاة ولا يخشاهم حتى نسبوه للكفر لعدم تمسكه بشريعة النبى عليه الصلاة والسلام امامنزله فكان مأوى الخبث والفساد ويسمع فيه أصوات الطنابير والغناء من المساء الى الصباح يجتمع فيه الرجال والنساء للرقص وملجأ لكل لوتى (يعنى بذلك أولاد الزنا) مع ماهو عليه من الوقاحة والسفاهة وفضلا عن ذلك فانه لا يتراخى عن القيام بمهام وظيفته فيسمع المار امام منزله صوت وصياح المذنب بين أصوات المفسدين من شدة تلويه من عذاب الضرب المتساقط على قدميه وعلى ماهو عليه من الاوصاف المتقدمة الذكر كان فارساقويا وماهرا فى صنوف الطعن بالحراب الا انه وان كانت هيئته دالة على انه عسكرى حربى وبطل شجاع ولكن كان فى نفس الامر جبانا شريرا ولما علم ماهو عليه من هذه الصفات اجتهد فى اخفاء هذا العيب وازالته بواسطة ما يظهره من الافتخار والتعاجب بالالفاظ الضخمة وبذلك نجح فى مداراته عن الذين يجهلون حقيقة أمره حتى أصبح بين الاعجام المستجدة أحسن عندهم من سام وافراسياب (فارسان مشهوران عند العجم) اللذين كانا موجودين فى الاعصر المتقدمة

اما وكيله وهو النائب فكان كلح المنظر الا انه من الضباط الماهرين ذوى الفطانة والمعرفة وكان خبيرا بعوائد وخصال رئيسه فيتملق اليه ويدخل فى ذهنه انه لا يوجد على سطح الارض مثيل للشاه وله ولا من يقال له رجل فى أرض فارس يضاهيهما وقد تحققت مما أصابنى من الصعوبات التى يلقيها امامى ويندبنى لتأديتها انه ميال للبخل والطمع وان تقصده لى بالاشغال الشاقة هو لعدم اعطائه هدية مقابلة تعيينى فى هذه الوظيفة فلم أجد سبيلا الا اتباع خطته وسيرى معه بحسب حالته وان استعمل له كلاما لينا

وتملقا زائدا حتى اننى جعلته زبدة النواب وانه يليق لان يكون فى المستقبل رئيسا للسيافة لاستعداده وذكائه وبذلك أزال ماعنده من الكراهة وأحبنى حبا شديدا وراعى خاطرى وماهذا الا ببركة الله الرؤف الرحيم وهو بالمثل اعتقد انى فى زمن يسير أصبح عقدا فريدا تزدان بى وظيفتى

وقد استمريت هذه المدة مقيما فى منزل الحكيم الى سفر الشاه وأنا أقضى الوقت فى قضاء ما يلزمنى للسفر بما ان هذه الوظيفة صيرتنى ذا أهمية عظمى واعتبار عند التجار وسهلت لى كل أمر عسير لمشترى كافة لوازمى بالدين واجتهدت أثناء اقامتى مع الحكيم فى الحصول على بعض أدوات ضرورية البعض أخذتها من المرضى بصفة هدية والبعض بواسطة ما تدبرته بلطيف اختراعاتى وذلك انى أردت ذات يوم طراحة ولحافا ووسادة وبالصدفة توفى عند نا مريض مسكين تحت مراقبتنا وكان أهله من المسلمين المتمسكين بالديانة فأكدت لهم ان موته تسبب عن عدم اعتنائنا به وان كنا جارين الالتفات الكلى اليه ولكن الطراحة التى كان ينام فوقها مشؤمة لاسباب منها انها من الحرير الحرام وثانيا كان يلزم ادارة الطراحة على القبلة فلما سمعوا كلامى تشاءموا من فرشته وتركوها وأخذتها لنفسى ثم واحتجت يوما مرآة لضرورتها فى تنظيم هيئتى فحدث انى صادفت مريضا باليرقان كان ينظر فى المرآة فانزعج لتغير لونه فابنت له ان ذلك ناشئ من عيب بها أوجب تغيير وجهه فانتعش جسمه مصدقا اياى وأمر برميها فخطفتها معى للمنزل واحتجت أيضا لزوج (بخدان) سماحير وكان بطرف الحكيم سمارتان موضوعتان فى أودة مهجورة غير معتنى بهما ولعلمى ان مرزا أحمق أدق رجل فى مسائل الديانة ويرتاب من أدنى أمر يشك فيه بالنجاسة قصدت أخذهما بحيلة أتدبرها وقلت لو أعرف نصف تحيلات الدرويش صفر لاخذتهما فى أقرب وقت ووضعت فيهما أمتعتى الآن ولكنى تذكرت بعد حين ان كلبة ولدت جملة اجراء تحت قبوة خربة

بجوار منزلنا فاستحسنت أخذها هى وأولادها ووضعها فى احدى السحارتين وان ألقى بعض عظام بالية فى السحارة الثانية بدون معلومية أحد بهذا الخبر ففعلت ذلك حتى اذا كان اليوم الذى يستعد فيه الحكيم للسفر صحبة الشاه وأراد الخادم نقل السحارتين عوت الكلاب فى السحارة وهاجت فارتعدوا من ذلك وعاد الخادم قاطع النفس الى سيده يحدثه عما رآه فقام مع اتباعه وتبعته للوقوف على ما يكون فتعجبوا جميعا لهذه المسئلة وقالوا ان هذا أمر يشير الى سوء حالة منزل الحكيم وصار كل منهم يستهزئ بكلمة فغضب الحكيم وأيقن بنجاستهما وأمر برميهما مع الكلاب فى الحال فلم أتأخر فى أخذهما وأظهرت كأنى أنا المالك لهما ونظفتهما وملأتهما بالادوات اللازم وضعها داخلهما وهكذا اصرت أجمع شيأ فشيأ مبلغا من العفش كى افتخر امام الناس بكثرته ولما أخذوا فى جمع العفش وتحميله توجهت الى مكارى الملك وحصل بينى وبينه نزاع شديد لاخذ بغلة أحمل عفشى عليها

﴿الفصل الثالث والثلاثون﴾

((فى توجه الحاج بابا بمعية الشاه الى معسكره وما يجريه من الفراسة فى وظيفته))

(قال الحاج بابا) وبعد ان عين المنجمون يوم الرحيل قام الملك من سرايته قبل شروق الشمس بنصف ساعة قاصدا السلطانية فى ٢١ ربيع الاول وظل سائرا على سرع واحد بدون أن يقف فى الطريق حتى وصل سراية السلطانية الكائنة على شواطئ نهر كراج وتبعد عن طهران بنحو تسعة فراسخ وقد صدر الامر للجنود المركبة من فرق مختلفة الموجودة فى السلطانية بالتجمع فى وقت معلوم فى سراية السلطانية أمام معية الملك فلا تشتمل الا على حرسه الخصوصى فقط وهم الجمالة الطوبجية وفرقة كبيرة

من السوارى

وقام فى هذا اليوم أيضا صحبة الملك ضابطان الديوان العظام ووزراؤه وخدمة المصالح الملكية وبذا أصبحت المدينة فى آن واحد خالية من نحو ثلثى السكان تنبئ حالتها بالحزن والخراب ينعب بها غراب البين لحرمانها من أهلها اذ لو رآها أجنبى على هذه الحالة وما لسكانها من حركات الانتقال الذين كانوا يأوونها كالنحل لداخله الظن بان الملك أمر باخلائها وتكلها والاقامة فى مدينة أخرى حيث كان يرى البغال والجمال العديدة محملة من الفروشات والسجاجيد وآلات المطبخ والخيم وعدد الخيول ومؤنات من جميع الاصناف مالا يحصى سائرة فى كل شارع والغبار يصعد من اقدامها الى عنان السماء والسواق يزجون نداءهم بجلجلة الاجراس المزدانة بها الحيوانات

وكنت يوم الرحيل واقفا على بوابة كسبين أتلقى الاوامر وامنع المارة من طريق الشاه وأرشد الفلاحين الذين كانوا ياتون بالمؤنة وينتظرون فتح البوابة بالتوجه من مكان آخر هذا وقد رشت المدينة بالماء وعملت الاحتراسات الكلية لخروج الشاه بغاية السرور والتنعم على قدر الامكان حتى يكون منشرح الصدر بما يراه من التنظيم وبالاخص صار منع النساء العجائز خوفا من أن ينظرهن الشاه فيصيبهن ضرر وقد وجدت فى نفسى قوة وقساوة لطرد الناس المزدحمة وأيقنت بتغيير خصالى لانى استعملت الضرب بعصاى بدون مبالاة فوق الرؤس والظهور فاخذ رفقائى الاندهاش والعجب لوجود شيطان مثلى بينهم ولم يعلموا ان اجتهادى هو رغبة فى اكتساب شهرة الشجاعة التى بها أؤمل ترقيتى لدرجة أعلى من هذه

وبينما أنا على هذه الحالة اذ رأيت الموكب أخذ فى المسير وسمعت صوت السلام المعلن بتحريك ركاب الملك من سراية طهران وكانت أرسلت فرقة من الطوبجية قبل الرحيل بيوم لاستقباله فى السلطانية وعند ذلك هدأ

المتفرجون تشوقا لانتظارمرور الموكب وكان نوم دخان يركب جوادا من أحسن الخيول يرمح به فى الشوارع والخيالة تسير فى كل مكان بقصد اخلاء السبيل فسار الموكب يتقدمه الضوية ينادون ثم الجنائب مرختون بالجواهر الفاخرة والشيلان وأغطية مزركشة بالقصب يتبعها العساكر البيادة ثم الشاه والامراء والوزراء ويكتنف الجميع شرذمة كبيرة من الخيالة وكان الناس يلغطون عندمايرونى واقفا امام بوابة الكسبين ويقولون كل انسان سائر فى سلك حرفته ورتبته وقدمت الذوات والخدم والفراشون والرجالة والسياس والمكارية والجمالة ونحو العشرة آلاف من الاتباع وهذا لم يزل بالباب فما الجم الغفير الذى خرج حينئذ

ولما اقترب الشاه منى ورأيت لحيته المسترسلة على منطقته ورعب الاستبداد متجمع فى شخصه اقشعر جسمى بحالة لم أدركها وأجريت التعظيمات والاحترامات الكلية وأنا بغاية الخضوع والاحتراس حذرا من أن يرى أمرا واهيا مغايرا للاصول فيأمر بعزل عنقى عن كتفى قبل الاعتذار اليه وبعد خروج الموكب خارج المدينة تأخرت برهة لاندخن مع الحرس الموجودين وفى أثناء ذلك لمحت نساء أحد الوزراء سائرات لمرافقة سيدهن خلف الموكب فتذكرت وقتها زينب معشوقتى وتنهدت زفيرا من صميم فؤادى على ما لحقها من القضاء بفراقى وقد أخبرتنى نورجهان قبل الرحيل بيوم انها أرسلت الى منزل صيفى من منازل الشاه كائن على حافة الجبل الشامخ المحيط بطهران كى تتمرن مع جملة من الباز يجار على الرقص والموسيقة والطنبورة وقالت ان الشاه أمر باستعدادها فى جميع هذه الفنون حتى عند عودته فى الخريف يجرى تجربتها امامه وبحال ركوبى وسيرى لم أتمكن من تحويل نظرى عن الجهة القاطنة بها وقلت لعلى أعثر بمحلها الذى بسفح الجبل وتساعدنى أيدى المقادير فى وقت صاف بشفاء فؤادى بمشاهدتها ولكن واأسفاه لم يمنعنى عند هذا الاصدور الامر

بتوجهى فى مقدمة الموكب وانتظارى فى السلطانية لاستقبال الملك عند نزوله من فوق جواده فندمت لهذا الامر حيث لا ينفع الندم

ما كل ما يتمنى المرء يدركه * تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن

ثم أسرعت ساعتى وعاينت قشلاق رئيس السيافة فوجدت هنالك خيمة صغيرة مخصصة لى ولخمسة سيافة آخرين لمرافقتى مدة السفرية وان كان سبق معرفتى اياهم حال وجودى بالمدينة الا انه كاد بيننا الشقاق يلجئنا الى الفراق لضيق الخيمة التى لا تزيد عن ستة (جاز) اذرع طولا وأربعة عرضا وبهذه الحالة كنا نجلس فوق بعضنا تقريبا الواحد فوق الآخر ولكونى أنا الصغير فيهم فمن المعلوم ضيقتى دونهم ولكن بالنسبة لما أنبأنى به حسن ضميرى من الفوائد التى تنجم من هذه الوظيفة لازدياد سعادتى فى فرصة مستقبلة عزمت على تحملى هذه الاتعاب وان لا يكون ذلك الا باستعمال الخداع واللين فى أى الاحوال

وكان من تحت يد نائب الرئيس معاون ثان له واسمه شبرعلى حائز رتبة بك وشيرازى الوطن ولى معه حادثة غريبة أقولها فى محلها الا انها أوجبت التفات ذوات الرتب نحوى وان كنا من مدينتين متناظرتين تحت سلطة العجم ولذا لم يسبق بينى وبينه معرفة انما نظرا لموافقتى له فى بعض الامور الواهية واتحادى معه أصبحنا من أكبر الاصدقاء ولم نقدر على مفارقة بعضنا والسبب فى هذه الصحبة هو انه أعطانى فى يوم شديد الحرارة شقة بطيخ وكنت عطشان فاوقدت له شيشته نظير ذلك وأيضا فصدنى مرة بسكينته لحصول تخمة فى معدتى من كثرة أكل الارز وأنا بالمثل عالجت حصانه من مغص بحقنة بماء الدخان وبالاختصار كانت الحالة على رأى المثل السائر دقة بدقة ولو زدنا لزاد السقا ومازلنا كذلك حتى تمكنت بيننا الصحبة وكان يزيد عنى فى العمر ثلاث سنوات وكان طويل القامة جميل المنظر عريض الاكتاف بيضاوى اللحية ذا ضفيرتين ملتويتين بغاية اللطف خلف أذنيه

كالتواء الكرم فوق سور الجنينة وكان خبيرا بعكريات ومخبآت وظيفته لمكثه مدة طويلة فى الخدمة حيث راق لنا الوقت فى احد الايام للمسامرة سوية وفى أثناء حديثه زادنى العجب من حذاقته فيما كان يجريه ومهارته فى الابواب الشاسعة التى أخبرنى عنها فقال

لا يخطر ببالك ياحاجى ان المرتبات التى يعطيها الشاه لخدمه هى كفاية لهم أو ذات أهمية لديهم كلا فان الاهمية قاصرة على نفس وظائفهم التى هى آلة للسلب والاغتصاب بحسب الاحوال وشطارتهم هى فى جذب الفائدة من أى مهمة يقومون بتأديتها ولاضرب لك مثلا فاليك رئيسنا مرتبه ألف تومان سنويا تارة يأخذها بتمامها وأخرى ناقصة وعلى كلا الحالتين لا تكفيه فان مصرفه السنوى لا يقل عن خمسة أو ستة اضعاف هذا المبلغ فمن أين يتيسر له الحصول على ذلك ان لم يكن من رسومات مضروبة على أشخاص معلومين يتولى أمرهم فى الاحكام الجنائية وذلك انه لو فرض وحصل للشاه اغبرار خاطر من خان تخلف عن أمر من ارادة الشاه وأراد مجازاته بالسوط أو تغريمه فيتولى الامر رئيس السيافة بحسب ما يرتشى به من المذنب وكذا اذا أريد قلع عين عاص فيعتمد ذلك أيضا على ما يأخذه اما قلعها بمدية بحالة وحشية أو بمشرط صغير بحالة لطيفة وقد يقود رئيسنا بعض الاحيان جودة من العساكر لتوزيعها على بعض الجهات فاينما يذهب تتراكم عليه الهدايا من جميع البلاد والقرى لعدم وضع عساكر فى جهاتهم وهو بفطانته ينتخب البلاد التى يرغب فيها وضع العساكر بقدر ما يأتيه من الهدايا وقد خصصت له أغلب أصحاب المناصب العالية والوزراء معلومات سنوية خشية من اثارة غضب الشاه يوما ما على أحدهم فيخفف عنه الجزاء وبالاختصار فانه فى أى مكان ترفع فيه السياط أو يقع فيه العقاب فلرئيسنا عوائد منها يجمعها سنويا وقد يستغيث منه الناس أحيانا ويتمنون رضاه بواسطة أقل ضباطه وأنا نفسى دعيت مرة قبل

تعيينى فى هذه الوظيفة نائبا لجلد مذنب فقبل ضربه بمدة يسيرة دفع لى مبلغا وافرا فسررت لذلك وصرت بدلا من ان أضرب به على قدميه أحكم السياط على الفلقة الموضوعة فيها رجلاه وتصادف أيضا ان الشاه غضب السنة الماضية على رئيس كتاب سر المدينة فأمر بجلده وبالنسبة لعلو درجته فرشنا له سجادة صغيرة لطرحه فوقها فكنت أنا وواحد بصفة جلادة واثنان عسكان الفلقة فلما أردنا رميه على الارض خلع برنسه وطربوشه فأخذناهما بصفة شرعية ولم نبال وبما ان هذا الضرب كان فى حضرة الشاه فسارّنا بصوت خفى بعد أن عاهدنا بعدم اخباريه الشاه وقال بحق أمهاتكم اللواتى حملنكم لا تثقلوا الضرب فانى أعطى كلا منكما عشرة تومان ان لم تضربونى فلما داسنا على كعبيه وأدخلنا قدميه فى العقدة واضطجع على ظهره مطروحا فوق السجادة فلاجل منافعنا الذاتية أثخناه ضربا وأثقلنا السياط حتى صار يصرخ بقوة ومازلنا كذلك الى ان تمكنا من أخذ ما نطلبه منه فخففنا بالتدريج الضرب على قدميه وجعلنا الزخم تنزل على الفلقة وكان ذلك بغاية الذكاء والتدبير كى لا يفهم الشاه حصول اتفاق بيننا من هذا القبيل أما الذى كان يأمر به المذنب أثناء صياحه وعويله حال الضرب فهو بالكيفية الآتية

آه امان امان ارحمونى ياأهل الشفقة بحياة النبى اثناعشر تومانا بمحبة آبائكم وامهاتكم خمسة عشر تومانا برأس الملك عشرون تومانا ثم يقول من شدة الضرب بحق جميع الائمة بحق جميع الانبياء ثلاثون أربعون خمسون ستون مائة ألف تومان مثل ما تريدون ارحمونى

وبعد انتهاء العدد المقرر من السياط نجد أن كلامه نقص بسرعة بقدر الزيادة وعلى ذلك نكتفى بأخذ ما أمر به أولا اذ انه مجبور على الوفاء خوفا من اصابته بمصيبة أخرى كهذه فلا يجد له راحا

(قال الحاج بابا) ومازال الشير على يحدثنى بمثل هذه النوادر الفظيعة التى

بها اهتديت لحل الفائدة الناتجة من وظيفتي حتى انى ما كنت أحلم طول
ليلتى الا بالضرب والحصول على الدراهم ولذا استمريت يومى رافعا العصا
امام رأسى اضرب بها أى جسم من المعادن يشابه الاقدام بقصد تمرينى
وبذا المرعض على غير قليل الاوانقنت الصناعة ووجدت نفسى قادرا على
تحكيم الزخمة على أى باهم من الاقدام بدون تعد على خلافه لو يأمرونى
بذلك مع ان طبيعتى الفاعلية كانت فى الزمن السالف تأبى القسوة
والاذية وكنت متحققا من نفسى عدم الشراسة والشجاعة فعجبت جدا من
تغيير طبيعتى وانتقالها الى دور جديد اذ أصبحت وأنا لا ادرى تلقبنى الناس
بهذه الالفاظ وهى (شيربى پير) أى أسد طائش وقد ازددت قسوة وعنفا
وصرت لا اسمع الآن شيأ الا شرم الانوف وقطع الآذان وقلع الاعين
والتطير بالمدافع وقطع الرجل قسمين وشى الآدمى فى الفرن فعلمت ان ذلك
كله أنموذج لى يلزمنى اتباعه حتى تصورت الآن انه لو يأتينى والدى
لامكنى خوزقته بدون أن يأخذنى رعب أو شفقة به

((الفصل الرابع والثلاثون))

((تعاطى الحاج بابا خدمته الرسمية واظهاره انموذجا من الاستبداد والظلم العجمى))

(قال الحاج بابا) وكان الشاه يسير سيرا بطيئا فقطع أربعة عشر يوما فى
الطريق ودخل سراية السلطانية فى الساعة التى أخبر عنها المنجمون
وهذه السراية شيدت من عهد قريب فى زمنه للتصييف فيها وهى
موضوعة فوق تل يقترب من آثار المدينة القديمة ويرى منها امتداد
السهل المتسع على قدر مرأى النظر مملوًا بخيام بيضاء منصوبة لاقامة
العسكر بها وكان المنظر غاية فى البهجة والرونق فاستشعرت فى هذا الوقت
باهمية وظيفة السياف الهائجة بصدرى عند ماميزت بين حالتى الحاضرة

وحالة ذلى ووحدتى فى خيام التركمان وقلت فى نفسى انى الآن رجل اذكر
بين الرجال وبعد ان كنت سابقا من المضرو بين أصبحت من الضاربين
وبينما أنا متحير بافكار مستقبلى أتمنى انتشار شهرتى بين الخلائق الذين
يعرفونى اذ أتى عندى شير على وقال لقد أسعدنا زماننا بتوجهنا سوية
لقضاء مصلحة ترافقنى فيها وان شاء الله ننهيها على أحسن حالة وذلك ان
مؤنات معسكر الملك جارى جلبها بالاكثر من القرى المحيطة بنا وقد ظهر
ان قرية (كج سوار) الكائنة بيننا وبين قرية حمدان لم ترسل المقرر عليها
بحجة ان أحد الامراء هو ومعيته أقام بها زمنا طويلا من عهد قريب
بقصد الصيد وأكلوا ما بالقرية وجردوا أهلها من جميعه داخلا وخارجا
ولذا أمرنى الرئيس بالتوجه اليها وتحقيق ما يدعون به واحضار (كتخداها)
أى شيخها وعمدة القرية امام رئيسنا وانه بالنسبة لما بينى وبينك من وثوق
الصحبة استأذنت باخذك معى وان كانت السيافة الاخر تشتكى من ضياع
دورهم فجهز نفسك للقيام معى بعد صلاة المغرب حيث فى عزمى الوصول
اليها فى صباح باكر
فلما سمعت كلامه زاد فرحى لهذه المأمورية وشكرته وتصورت انى وان
كنت لم أقف بالدقة على الاجراآت التى يستصوبها الشير على الا انى كنت
على بعض معلومات من هذه المسائل بالنسبة لما تقدم وقلت ان طالعنا
لكون أنحس الطوالع ان لم يترك لنا الامير الذى كان مقيما بها شيأ نلتقطه
فتوجهت وهذه الافكار تلعب فى رأسى وجهزت حصانى المربوط مع
خيول السيافة بالقرب من خيامنا واستعديت للسفر ولما رأيت الحصان
يطيح برأسه وحبال النصل لم أصدق انى استحق هذا كله وقلت مخاطبا لنفسى
أيها الحيوان انك الآن حر لرفس وغرق أى انسان وقادر على فعل ما تريد
من الاذى ولا شك ان هذه هى حالة العجمى عند ما يأمن من خوف سيده
ثم قام الشير على وانا برفقته ومعنا خادم راكب فوق بغلة محملة بفرش النوم

وأغطيتنا وحبال الخيل وأشياء اخرى ومن عهد تقلدى خدمة العسكريه أطلقت على نفسى لقب (بيك) وأيضا لكى أظهر ما أنا عليه من الاهمية والشرف اقترضت رشمة فضة وطبنجة سوارى فضة ذات شكل لطيف لغرزها فى منطقتى أخذتها من أحد أصحابى ووعدته بان أحضر له نظير ذلك (سوغت) أى هدية فيما اذا وجدت المحصول وافرا واستمر بنا سائرين طول ليلنا ولكوننا غنا نحو ساعتين فى قرية أثناء الطريق فوصلنا قرية كج سوار فى وقت اخراج النساء المواشى من الزرائب وتدخين الرجال فى شبكاتهم قبل ذهابهم الى الغيط حتى اذا دخلنا القرية ورآنا أهلها حصل انزعاج زائد وسكت النساء من صياحهن وسترن وجوههن وقامت الرجال من مكانهم فياليت القارئ كان يرى الشير على بيك عند وصوله القرية وما أجراه من العجب والهيئة فانه نفخ نفسه بقدر امكانه وتكبر وتمرد وجعل نفسه فى هيئة رئيس السيافة حتى دخل فى ذهن الاهالى انه من كبار الامراء ثم انه طلب شيخ القرية فاتى نحوه رجل بسيط ذو لحية رمادية خاضعا ذليلا وقال السلام عليكم أيها الاغاها أنا خادمك شيخ القرية جعل الله خطواتك سعيدة ولا أنقص الله ظلك ثم قال بسم الله وحضر الرجال لينزلونا من فوق خيولنا بغاية الاحترام فواحد قبض على رأس الحصان وآخر أمسك الركاب والثالث وضع يده تحت الابط وبهذه الحالة ترجلنا ونحن نثقل أنفسنا بقدر ما يمكننا وأحنينا ظهورنا على شكل أصحاب المقامات والرتب العالية وفرشوا لنا سجادة امام منزل الكتخدا وكان يمشى خلفنا أغلب ذكور القرية فلما وصلنا المنزل جلسنا فوق السجادة حتى أعدوا لنا غرفة داخل المنزل ونفس الكتخدا هو الذى خلع نعالنا من أرجلنا بخلاف ما أجراه من جميع أنواع الادب والالتفات حسب العادة الجارية للضيوف

و بعد ان استراح الشير على واستقبل ما أدى اليه من الاحترام الذى ظن فى نفسه انه أهل لذلك وتدخن مرارا من شبكه قال لرب الدار بصوت شديد

مرعب أنت يا كتخدا قرية كج سوار اعلم انى أتيت من قبل الشاه وأكرر لك انى من قبل الشاه لاقف على سبب عدم ارسال هذه القرية ما خصص عليها من المؤنة اللازمة لعسكر جلالته فى سراى السلطانية بناء على الامر الصادر بمقتضى فرمان منذ شهرين أرسل اليك بواسطة محافظ حمدان فاجوابك على ذلك أجب وبيض وجهك ان أمكنك فقال شيخ القرية وحياة عيونى ماقلته سابقا أقوله الآن امام هؤلاء الرجال (بشير لاهل قريته) العالمين بكنه الامر وان كنت أكذب فالله يمسخنى حجرا أصم فانى لست امرأة والتمس أن تأذن لى بالكلام يا حضرة السياف لانك رجل لطيف وعاقل وماهر وذو نظر حاد لا سيما وأنت مسلم تخاف الله ولا أزيد ولا أنقص عن الحق وأبين لك ما حصل وبعد ذلك احكم بما تريد

فقال الشير على وقد أقلقه كلامه الغير مفيد طيب طيب استمر فى حديثك فانى خادم الملك وما يحكم به جلالته استعد اليه فاجابه الكتخدا قائلا أنت السيد والتمس منك أن تلقى أذنيك لحكايتى وهى انه من مدة ثلاثة أشهر لما بلغت الغلال نحو الذراع تقريبا فى الارتفاع والشياه تمضى فى الخلاء ما أدرى الا وحضر لهنا أحد خدم أمير اسمه خراب كولى مرزا وأعلمنا ان سيده حاضر للقرية فى اليوم القابل للاقامة بها زمنا بقصد التنزه والصيد فى الخلاء المحيط بالقرية لبعض ظباء وحمير وحش وسمانى وخلافه وأمر باخلاء أنفر المنازل الموجودة بها واخراج أصحابها منها وطلب جملة أنواع من المؤنة فعند انتشار هذا الخبر بين أهالى القرية ارتعدت فرائصهم ولما لم يجدوا طريقة لردع خدام الامير عن طلباته لا بالرشوة ولا بالاقناع لازالة هذه الكربة عنهم عزمنا على هجر منازلنا واقامتنا فى الجبل لحين انتهاء هذا اليوم المشؤم ولو شاهدت حالة هؤلاء الفلاحين المساكين عندما جبروا بترك جميع ما يمتلكوه من الدنيا لارتعد فؤادك وذابت كبدك قال الشير على ما هذا الكلام الذى لا أفهم معناه فهل قرى

الشاه مجردة من كل شئ أو تظن انى أشفق بحال المهاجرين كلا لو يعلم الشاه
ذلك لامر بقتلكم جميعا أجاب شيخ القرية مهلا ياسيدى بحق الشفقة ان
تسمع باقى حكايتى وتروق ذهنك وتريح بالك قال قل مابدا لك قال ثم اننا حملنا
كل مانقدر عليه وطلعنا فوق الجبل وأقمنا فى مغارة بجانب مجرى ماء ولم
نترك بها سوى ثلاثة نساء عجائز وقطط القرية

(قال الحاج بابا) فتطلع نحوى الشير على وقال أتسمع مايقول يا حاجى هذا
الرجل وانهم أخذوا كل متاع ذى قيمة ولم يتركوا الا حيطانها خالية والنساء
العجائز للامير ثم قال لشيخ البلد أتمم حديثك قال وكنا نرسل الجواسيس
من وقت الى آخر لاستكشاف ماهو حاصل ونحن قاطنون بين صخور الجبال
فاذا بالقافلة حضرت فى ظهر ثانى يوم هروبنا ولما علموا اما أجريناه غضبوا
غضبا شديدا اعاقوا بلوا به من الخيبة وصار خدم الامير يدخلون بيتا
ويطلعون من آخر ويفتحون أبوابها بحالة جبرية ولم يمنعهم بالكف عن ذلك
الا عجوز قامت من فراشها وبختهم فلما رأوها اختبؤا منها ولم يقدروا على
مواجهتها وعلى ذلك أرسل الامير لجلب المؤنة من القرية المجاورة لنا
وكانت اقامة الامير فى منزلى حيث وجد به الغلال فاغتنالها خدمه وحرقوا
آلات الفلاحة بدل الحطب ولما انتهت داروا على الابواب والشبابيك
وحرقوها ولم يبقوا الاعوارضها ولا برورها ولارفوف البيوت وربطوا
خيولهم فى القمح الجديد وغير ذلك قلعوا مبلغا وافرا منه وحملوه معهم
وبالاختصار حاق بنا الخراب وأصبحنا فاعا صفصفا لانملك درهما ولا ملبوسا
ولاماشية أومنزلا نأوى فيه أومانقتات به ثم ان شيخ القرية قال مشيرا الى
والى الشير على ولا لنا أحد ولا ملجأ الا الله وأنتما فلما سمع الشير على قفز من
مقره بقوة شديدة وقبض على لحية شيخ البلد وقال له ألا تستحى أيها العجوز
بشعورك الرمادى هذه الطوال وتتكلم الكذب وقد قلت من لحظة انكم
أخذتم معكم الى الجبال الاشياء الثمينة والآن تدعون انكم أصبحتم لا

تملكون فتيلا ولا نقيرا او عمكم الخراب فلا كان ذلك فاننا لم نأت اليكم ونكابد
اتعاب السفر مدة لنا كل أوساخكم وان أردتم بدهائكم هذا الضحك على
لحانا فانت غلطان لانك لا تعلم حالة الشير على وماهو عليه فنحن رجال ننام
بعين مفتوحة وأخرى مقفولة لانغفل ولم ينسحب ثعلب من جحره الا ونعلم به
وان كنت قطا فنحن آباء القطط وكان يلزم تطوبل لحيتك عماهى عليه
الآن لانه يرى تسوحك فى البلاد وتريد ادخال الحيلة علينا فقال شيخ
القرية الله لا يامحسنى اذا كنت أقصد غشكم فن أنا بالنسبة لكم حتى
أفكر هذا الامر فنحن لم نكن الا امر ارعيين للشاه وجميع ماتملكه ملك له
الا اننا نهبنا وتعرينا وتفضل شاهد الحالة بعينك وانظر غيطاننا ومخازننا
فليس عندنا غلال لا فى الداخل ولا الخارج فقال الشير على اذا كنتم تعريتم
أولا أو عندكم غلال أولم يكن فلا نقول غير كلمة لابد من اتباعها وهى البتة
من القيام باوامر الشاه وغير ذلك لا أقبل فاما ان تسلمونا صنف المؤنة
المقررة عليكم أو تعطونا بدلها نقدية واما نتوجه معنا مصحوبا بعمد قريتك
الى السلطانية لتسليمكم الى أصل السلطة الادارية

فلما سمعوا كلام شير على ارتبكوا فى أمرهم وتساروا مليا مع عمد القرية
وشير على يشرب فى شبكه وعلينا الهيبة والوقار مظهرين التيه الكلى نحو
مسامرتهم ثم انهم عدلوا عن اغراض الكتخدا كما تبين لنا من مجلسهم
واقترب رجل هرم جانب الشير على وآخر نحوى يظهر الى الميل والمحبة منه
مع التملق الزائد فلم أعبأ بكلامه بل ثبت فى مكانى لا أتقلقل من تمويلاته
الكاذبة حيث كلف يريني ان محبتى تمكنت من فؤاده مع الاقسام الكلية
وبالمثل أهل القرية يريدون بذلك انى أنا الرجل الوحيد لخلاصهم من هذه
الصعوبة كل هذا وأنا لا أبالى بل أسلى نفسى وأتغافل عنهم بتحريك شبكى
ولما رأيته دخل فى موضوع ماريد أخذه لا نفسنا ألقيت اليه أذنا صاغية
اغتناما للفائدة فقال انهم اتفقوا على تقديم هدية بها ينجوا من هذه الطلبات

بعدان أوروا عدم امكانهم القيام بارسال ماليس بقدرتهم فقلت ماتراه فهو حسن لكن الامر ليس بيدى بمفردى بل نحن اثنان هنا بخلاف رئيسنا وانه لابد أن يكون أولنا وتقدموا له مايكفيه والافلا طائل لجميع تعبكم ومصاريفكم وأقول لك اذا أردت القبض على الدهن فاكاله بالمن (وهو سبعة أرطال ونصف) وليس بالمثقال (٢٤ قمة) قال الكتخدا ماعلكه نعطيه لكم لان الجزية التى دفعناها أخيرا أضرت بنا ولا يكون عندنا سوى نسائنا وأولادنا وتيقن بتجردنا من أى شئ نقدمه اليكم قلت أخبرك أيها الصاحب انا لا نأخذ شيأ خلاف الدراهم فادفعوها فورا وغير ذلك لا يفيد بفائدة فالدراهم اذا كانت جاهزة فى يدك تشترى تاج الملك من فوق رأسه وبخلافها الا أعدك الا بالجلد والزخم التى لا تحصى فعند ذلك قال الكتخدا (آه دراهم دراهم) من أين الحصول على الدراهم فان نساءنا اذا تحصلن على قطعة من النقود يخرقنها ويلبسنها فى أعناقهن بقصد الزينة وأيضا نحن لو بعد التعب الشديد وجمعنا خمسين توما ناندفنها فى الارض وتقوينا زيادة وتكون عندنا أحسن من امتلاك كوه نور (وهو الحجر الالماس الكبير الذى يلبسه الملك فى اسورته ويسمونه بحر النور) ثم اقترب نحوى ووضع فمه جهة أذنى وسارنى بقوله انك مسلم دين وذو فهم حاد ولا ترضى ان ندخل فى فم الاسد (وهو يشير بذلك الى رفيقى) فاخبرنى ما الذى يرضيه فقلت له انه لا يحتوى على خردلة من الرقة والشفقة فالاحسن تجعل الخمس تومانات عشرة وتبدل السراويل ببرنس ولك ان أجتهد معه فى قبولها فاجاب الشيخ وقال (ياسلام) ان قريتنا لا تستحق دفع هذا المبلغ وهو كثير عليها فارضه بالخمسة تومان والسراويل وبعد ذلك نريك مالنا من الكرم نحوك ونعطيك هدية تسرك وتدهشك

وعلى ذلك انفض المجلس وكنت متشوقا لما يبديه رفيقى من رأيه وانه كان متلهفا لسماع نتيجة مسارتى مع الكتخدا فلما قصصت عليه ماصار من

الابتداء للانتهاء وأوريته عدم رضاه الا بعشرة من التومان قال لى وبالمثل فانا أخبرت الشيخ الذى سارنى بمثل ذلك وأريته مالك من الهيبة والقوة وعدم الغرور بسكونك

وأخيرا بعد برهة تقدم الينا العمد يقودهم شيخ القرية حاملين هدية ظاهرة من التفاح والكمثرى وقدر من العسل وجبنة طرية وترجوا رفيقى بقبولها بصفة صلحة فى مثل هذه الاحوال ولما ألقوها امامنا قدم الشيخ بصوت خفى الى الشير على الخمسة تومان والسروالين معتذرا بما لحقه وقريته من الفقر الزائد بحالة تفتت الاكباد بخلاف كبد شير على فانه حتم برفضها ورفعها من امامنا فنشأ من ذلك غاية المذلة لهؤلاء الناس الفقراء ورفعوا صوانيهم المملوءة بالفاكهة وهم يتأخرون رويدا بخطوات دالة على حزنهم ولم يغيبوا نصف ساعة حتى عادوا ثانيا وذلك بعد ان اتفق الكتخدا مع شير على بانه اذا أحضر له العشرة تومان والبرنس هو يقبلهم ولما تحقق بقبولها اسلمها اليه وبعدان أكلنا ما كانوا أحضروه ووضع شير على الدراهم فى جيبه وأخذ برنسه ابتدأت بالتطلع الى الهدية التى قيل عنها انها تدهشنى فلم أجد شيأ سوى غمزات واشارات دنيئة من الكتخدا يلاعبنى بها فلما قل اصطبارى قلت له أخيرا ماهى الهدية ومامقدارها قال آتية فصبر قليلا حيث جارى تجهيزها وبعد انتظارى زمنا يسيرا ما أدرى الا وهم محضرون الى الزوج السراويل الذى رفضه شير على على صينية بهيئة مفتخرة وقدموها الى مع جملة من الكلمات اللطيفة ففاردمى لذلك وصحت قائلا مخاطبا الرجال الذين امامى ألم تعلموا أنتم أيها الرجال القليلى الحياء انى أنا سياف وفى قدرتى حرق آبائكم وأصب عليكم المصائب التى لم تخطر لكم ببال ما الذى تقصدونه باحضار هذين السروالين المعفنين الكهنة اللذين من بقايا أجدادكم الانذال ومضى عليهما أجيال وتريدون أن ألبسهما يا مجانين بالحقيقة قد اعترا كم الجنون أتظنون انى أدافع عن منافعكم

وأمنع عنكم المصائب بهذه الكهنحة الوسخة فاذهبوا بعيدا بهما والا أريكم مايفعل السياف فلما أرادوا الانصراف اتباعا للامر أوقفهم شير على وقال لا نظر السراويل فاخذها وصار يكشف عليها وهو واضعها بين عينيه ويتفرج عليها وبعد ذلك قال آه انها تكفى ليس بها عيوب فاتركوها فانى أخذتها لنفسى مع التشكرات الزائدة والسعادة الدائمة لعائلتكم فنظروا اليه مندهشين غير قادرين على منعه وبهذه الحالة فقدت هذا المتاع الذى كنت فى انتظاره وما كان لى من الفوائد وفقط اكتسبت التبصر الكافى لمعرفتى كيفية المعاملة مع أهل بلدى وزيادة على ذلك الاعتماد على الانسان بمجرد ادعائه صحبتى

(الفصل الخامس والثلاثون)

(فى الاقبال الذى تظاهر بالعبوسة ثم تبسم على الحاج بابا وترقيه الى وظيفة نائب رئيس السيافة)

(قال الحاج بابا) اننا حملنا الفرش على البغلة وربطوا عليه شاتين فقط هدية الى رئيسنا وبمجرد وصولنا المعسكر توجهنا معا الى النائب فأخذنا وأدخلنا امام الرئيس اذ كان جالسا مع واحد أو اثنين من أصحابه يتسامر معهما فلما رأى شير على قال له خيرا أى شئ أجريته هل أحضرت الغلال أو الكتخدا فاجاب ألتمس بعرضى انى لم أحضر كليهما فان كتخدا وعمدة قرية كج سوار أرسلوا شاتين بقصد الهدية لاعتابكم بعد ان أيقنوا الناو أقسموا بأعيننا انهم لم يكن عندهم غلال فهما ولم يمتلكوا شيأ مطلقا وكادت أرواحهم تزهق مما أصابهم من النهب وخراب قريتهم وبخلاف ذلك ان لم يرسل اليهم مؤنة فيأكل بعضهم بعضا فاجابه الخان وهو الرئيس احقا ما تقول فاذا كان عندهم شياه فبالضرورة عندهم نعاج فما الذى خطر ببالك قال شير على هذا هو الصحيح وان كلامك حق ولكن نحن نتكلم فى شأن الغلال وليس فى

النعاج فاجابه الرئيس وما الداعى لعدم اتباعك الاوامر واحضار الكتخدا والعمدة فلو كنت توجهت بنفسى لشويت هؤلاء أولاد الزنا بالحياة وأربطهم رباط الجمل حتى يعترفوا بما يمتلكونه فأخبرنى عن السبب فى عدم احضارهم قال شير على وهو ينظر الى لمساعدته لقد أكدنا عليهم بالحضور بعد ان ربطناهم وو بخناهم وشتمناهم وضربناهم أيضا وكان بودنا جلبهم والحاج بابا يعرف جميع ذلك لانه قال لهم ان لم يدفعوا الدراهم فلم ترتفع عنهم الرحمة اصالة فان الرحمة بعيدة عن طريقنا ولا لها علاقة بنا وقال لهم انهم لو علموا عنكم أمرا فاعلموا ان الخان سيدنا ورئيسنا ورئيس السيافة ذو قوة لا تطاق شديد البطش قوى العزم لا تحرك امعاؤه من شئ واذا وقعتم فى قبضته لا يسلم أحد منكم فقلت مصدقا على كلام شير على (نعم) أخبرناهم بذلك حتى كادوا ان يغوروا فى الارض

فالتفت الخان نحوى وقال ماذا يقول يا حاج بابا فانى لم أفهم جيدا السبب فى عدم احضار أولئك الرجال فاجبته بغاية الخضوع قائلا حقا ايها الخان وأنا بالمثل لم أفهم السبب لان شير على بيك هو النائب لك والشغل جميعه كان بمعرفته وتوجهت معه فى خدمته ولم يكن لى صفة فى هذه المسئلة فغضب الخان غضبا شديدا ونسبنا الكل وقاحة وقباحة بقدر ما يمكنه من الاحتقار والتوبيخ ثم التفت الى أصحابه وقال انظروا هؤلاء الاشقياء الاشرار وما أجروه من الملاعبة والحيل وبعد ذلك قال يا شير على وحياتى وملح الملك تخبرنى ما مقدار الذى أخذته لنفسك وأنت يا أغا حاجى الذى لم يمر عليك شهر فى الخدامة ما الذى تحصلت عليه من الدراهم فذ بيناعن براءتنا بدون فائدة وأقسمنا اننا لم نكتسب شيأ فلم يصدقنا أحد وكانت عاقبة أمرنا خسرا حيث أمر بسجننا تحت حراسة النائب حتى يحضروا مشايخ القرية بالفعل للمعسكر ولما جهتنا فلما اختليت مع شير على اجتهد فى مرضاتى وسألنى الاشتراك معه فى الغنيمة مناصفة فاجبته ليس لهذا الحد

حتى تغشى الآن فالوقت أزف لانك اذا سكرت وتلذذت بالخمر المحرم وحصل لك ألم فى رأسك بسببه فلا حاجة لاجتهادك فى غرضى أيضا فان الامر الذى ترأست عليه اتخذته درسالى فى هذه المرة ثم سألنى ان أعده بوقوفى بجانبه عند مواجهة الكتخدا وأقسم بكل شئ انه أوعد بحضوره الا اننى مازلت متيقظا لنتائج هذا الوعد العائدة على بالضرر وقال انه لو طرح تحت الفلقة فلا يتحمل ما يأتيه من السياط نظر اللرعب الشديد الذى أوقعه فى قلوب الغير من ضربه اياهم والكل يتمنون حتفه وبذلك فانه يفضل أى عقاب كان أولى له من وضع قدميه فى الفلقة هذا ولما اقترب وقت طلب شبر على امام رئيسنا فلم نقف له على اثر بل فرهاربا ولما سئلت عنه قلت لم يحصل منه ذلك الا لخوفه من الوهم الذى تصوره من جلده واننى لما ظهرت امام رئيسنا ونظرتنى أهل قرية كجوار أقر الواحد بعد الآخر انى لم آمرهم بامر ولم ألتمس منهم شيأ قط الا الزامهم بتقديم هدية فاخرة لرئيسنا الخان وكان جميع شكواهم ضد شبر على الى أن قالوا انه أنذرهم بالاعدام وأفقر أهالى القرية وانه مزق جلود جروحهم التى نبتت عليها

(قال الحاج بابا) ان جميع ذلك مما يؤدى لمنفعتى ويمهد لى طريقا الترقيتى وقد شاع هذا الخبر على لسان كل انسان حتى أصبحت أمثولة للعفة وضبط النفس وقال رجل من الجالسين معه ان عفته تأتت من كونه كان حكيما لان الحكمة أحسن من المال وقال آخر انه خبير بمبادى العواقب فانه لا يضع قدميه محل رأسه وبالاختصار فقد شاعت شهرتى بانى رجل ماهر وحريص وكانت نتيجة حكايتى هى تعيينى بدل الهارب أى نائب رئيس سيافة بلاد فارس وهذه أعظم منة من الله سبحانه وتعالى

الصبر أجمل يافتى * بالصبر تنفسح الفرج
قال الذين تقدموا * الصبر مفتاح الفرج

(الفصل

﴿الفصل السادس والثلاثون﴾

﴿الكلام على ما يظهره الحاج بابا من الرقة والشفقة عند مقابلته بفتى وفتاة احاطهما الكرب وان كانت مهنته سيافا﴾

(قال الحاج بابا) وكان الشاه فى هذا الوقت مشتغلا فى حرب بينه وبين المسكوف القاطنين فى جورجيا لهدمهم حدود أقاليم العجم الكائنة بين نهرى كور واراس وكان محافظ اريوان الملقب باسم سردار واحد ضباط الشاه المقربين توجها من مدة لفتح الميدان بهجمات فجائية على نقط مقدمة العدو وخربوا القرى والصحراء التى يريدون التقدم بواسطتها الى بلاد العجم وحشد أيضا جيشا جرارا بالقرب من مدينة تبريز تحت قيادة ولى العهد محافظ أقليم اذربيجان المتسع وكان من عزمه التوجه سريعا الى مقر الحرب ليرد العدو بالثانى الى تفليس ويقتفى أثره حسب اتفاق المجلس الى أسوار مدينة موسكو وكانت الاخبار منتظرة يوميا فى المعسكر الملوكى الموجود بالسلطانية من السردار الذى أعلن ان فى نيته الهجوم على نقط الروسيين الكائنة فى جومشلو وقد صدرت الاوامر باستقبال رؤس العدو استقبالا عظيما كما هى العادة فى ارسالها علامة على النصر ولذلك كانوا فى انتظار نتيجة الهجوم وبينما الكل ينتظر الخبر اذ حضر ساع مسرع الى المعسكر يقود خمسة خيول محملة من رؤس الاعداء فألقيت امام الخيمة الملوكية باحتفال شائق الا انه تبين من الاخبار الواردة حصول أمر اوجب طلب امداد ولذلك صدر الامر الى رئيسنا نومر دخان باستعداد وقيادة جيش مركب من عشرة آلاف فارس والمسير فى الحال الى شواطئ نهر اراس فاجتمع الجيش وملئت خيمة نومر دخان بضباطه وأعطى كل ضابط الاوامر المختصة به وبوقوفه بفرقته فى نقط معلومة فى القرى اثناء المسير وكان

من واجباتي الرحيل قبل الجيش بيوم ومعي فرقة من السيافة بقصد اجراء الاستعدادات اللازمة لنزول العساكر في القرى ثم قلت ان هذه مسئلة يلزم لها المهارة والحزم وعلمت ماينتج لي منها من الفوائد العظيمة التي لو التفت اليها لثقل كيسي من الدراهم ولكن ماحصل الى شيء على بل صار عبرة لي نصب عيني وان لا أجبر احدا على أخذ جزية وقد عزمت في هذه الحالة بالتحفظ على شرفي وعدم مد يدي وان أطفئ لهيب الطمع بماء التبصر في العواقب ثم قمت بفرقتي ووصلت اريوان قبل وصول الجيش بجملة أيام ووجدنا السردار بها قد تقهقر بعد هجومه على جومشلو ينتظر الامداد السواري المحضر بقيادة رئيسنا وكان جيش البرنس الملوكي سار الى جهة أخرى من الحدود قاصدا الهجوم على قلعة جنيا التي احتلها العدو سابقا ولعدم امكان الامير توفير قسم من عساكره لاعانة السردار فلذلك التمس الامداد من الشاه ولما اجتمع السردار مع نومر دخان وتداولا اتفقا على ارسال جواسيس ليكشفوا موقع وحركات الروسيين فتعينت مع عشرين عسكريا من طرف رئيسنا وكذلك أرسل هذا القدر من جانب السردار وهم الذين أرشدونا الى بعض جهات في الصحراء لعدم معلوميتي اياها وفي آخر النهار اجتمعنا جميعا وابتدأنا في المسير وقت أذان المغرب تماما وتوجهنا في الطريق المستقيم الى قرية اشتارك ومررنا على قرية اشميازن وهي كرسي بطريرك الارمن جهة شمالنا ولم يأت الفجر حتى وصلنا قنطرة اشتارك وكانت مظلمة بالنسبة لعلو شواطئ النهر الصخرية بهيئة حائطين امام بعضهما وقد بنيت هذه القرية على حافة الشاطئين وبها النور الكافي لتميزها من الصخور المحاطة بها ورأيت هنالك جملة مباني خربة أخبرني عنها رفقائي انها من آثار كنائس الارمن التي كانت داخل حدود العجم وفي اثناء مسيرنا على كوبري النهر جلجلت حوافر خيولنا على بلاطه فأوجب ذلك انزعاج كلاب القرية وسمعنا أيضا صياح ديك وكان مطمح أنظارنا الى المنازل وماندري ونحن على هذه

الحالة الا وأحدنا أوقف حصانه وصاح وهو يشير بيده الى الكنيسة وقال يا علي ماهذا أماترون الخيال الابيض الواقف هنالك قال آخر اني أنظره وهو لاشك غول وهذا وقته يبحث على رمة وأظنه يأكل فيها الآن فتطلعت أنا الآخر فوجدت شيأ أبيض لم أتحقق منه فوقفنا جميعا نتأمل لهذه الحلقة العجيبة فكان الواحد يستغيث بالامام علي والثاني بالحسين والثالث بالنبي عليه الصلاة والسلام والاثنى عشر أئمة والباقي صار كل منهم يستغيث بامام ولم يقدر أحد منهم يتقدم نحوه ثم قال لهم رجل ايراكي حلواد كان البستكم وهو يجرب في الحال وهذه هي الطريقة التي نجري استعمالها لغيلاننا الموجودة في الصحراء القريبة من اصبهان فأجابه شاب ممازحا وقال ما يفيد ذلك فاني أستحسن بقاء الحيوان خارجا أولى من أن يكون داخلا

وبالاختصار بعد ان مازحوا وقتا ومن نوع الجدال أخيرا أضاء النور الكافي لتحققنا من الهيئة التي أدهشت عقولنا ولما عبرنا القنطرة لكز الشاب حصانه وقال أنا أكشف خبر الغول ودفع بحصانه جهة الكنيسة ثم نظرناه عائدا مسرعا نحونا مخبرا ان ماظنناه انه غول فهو امرأة وغششنا ببرقعها الابيض وان بصحبتها رجلا وكلاهما مختفيان تحت ظل الاسوار الخربة فاشتقت للوقوف على خبر هذه المسئلة لعلي أعثر على أمر يكون من متعلقات واجباتي وأخذت معي خمسة خيالة وأمرت الباقي بالانتظار بالقرب من القنطرة ولما لم نجد في طريقنا أحدا واعتدلنا الى زاوية حائط خرب فرأينا امرأة يظهر عليها المرض مطروحة على الارض ورجلا منحنيا يعالج في رأسها بغاية اللطف والمحاذرة وكان نور النهار فضح عليهما فاذا هما في ريعان الشبوبية ووجه المرأة مستور بالبرقع ومع ماهو عليه وجهها من اصفرار الالم فان جمالها يفتن الرائي

بهرت عيون الناظرين وأبرزت * حسنا يكاد البرق منه يخطف
لو نالت الشمس المنيرة حسنها * ما كانت الشمس المنيرة تكسف

وأما الشاب فكان يرى عليه الشجاعة والقوة والشهامة التى لم أرها لاحد ومتسلح بسكين طويل على فخذه مثل أهالى جورجيا وبندقية مركوزة على السور وأما البرقع الذى هو من أعظم بياض كان ملوثا بالدم من جميع أطرافه وممزقا كل ممزق وانا وان كنا وجدنا بين قوم تعودوا على الشقاوة والقساوة لا يشفقون بحال الغريب ولكن بالنسبة لما رأيناه من حالتهما التى يرثى اليها تجلدنا على عدم ضررهما والشفقة بهما للوقوف على أثرهما وما وقع من خبرهما فسألتهما اذا كنتما غريبان فما الموجب لمكثكما هنا ولم تتوجها الى القرية قال الفتى اذا كان عندك احساس الآدمى وعندك شفقة فساعدنى حبا لله تعالى ولو كنت رسولا من طرف السردار ومأمورا بالقبض علينا فساعدنى أولا فى خلاص هذه المسكينة التى على آخر درجة من الحياة

واذا الكريم نبت به أيامه * لم ينتعش الا بعون كريم
فاعن على الخطب العظيم فانما * يرجى الكريم لدفع كل عظيم

وأما من جهتى فلم يكن لى أدنى مقدرة للمقاومة ولا ألتمس الا الاستغاثة بعاونتكم فقلت له من أنت فالسردار لم يخاطبنى بامر يخصك فقل لى من أين أنت والى أين ذاهب أجاب ان قصتنا طويلة ومحزنة وانك اذا ساعدتنى فى نقل هذه الفتاة التى تكابد اليم العذاب الى محل يعتنى بها فيه فأخبرك بجميع ما حدث لنا لا سيما اذا حصل لها مراعاة والتفات فتشفى شيئا فشيئا لانها مجروحة وانى أتشم فى وجه الله بان لا يكون جرحها خطرا وأحمد الله لكونك لست من ضباط السردار فرجائى ان تصاحبنى ولا تفارقنى عاان حكايتى المكدرة تلجئك بأخذى تحت حمايتك

اذا لم تنل همم الاكرمين * وسعيهم وادعا فاغترب
فكم دعة أنعمت أهلها * وكم راحة نتجت من تعب

(قال الحاج بابا) انى لم أر لزوما لا يضاحاته هذه فان هيئة ومنظر الفتى أوجبا

مالا يطاق حصره فى صدرى من الشفقة عليه وبوقتها مال فؤادى للقيام بمصلحته وطمنته بعدم تاخيرنا فى نقل صاحبته المريضة الى القرية وانه بعد سماع رحلته نجرى ما يلزم نحوه أما الفتاة فلم تتلفظ لغاية هذه اللحظة بكلمة قط غير انها صارت تجمع برقعها حولها بغاية الاحتراس وتتألم بتنهدات شديدة وعلى ذلك أمرت أحد الخيالة بنزوله من فوق جواده وأركبناها عليه وهى تتأوه مما أصابها من المصائب وتوجهنا بها الى القرية وبعد ان عرضناها على جملة منازل اخترت المنزل الذى وجدت صاحبه أظهر كرما زائدا وميلا عن خلافه فادخلناها اليه ودققت عليهم بمراعاتها وشدة الالتفات اليها بقدر الامكان وكان بالقرية عجوز ذات معرفة تامة فى شفاء الجروح وتجبير العظام فارسلتها اليها وشرعت فى معالجتها وقد اتضح لى من كلام الفتى انه هو ورفيقته من الارمن وعاان سكان قرية اشتارك من هذا الجنس عرفوا بعضهما وحصل الاكرام الزائد للمريضة حتى انها أظهرت ممنونيتها وعدم امكان وقوعها فى أيدى أعظم من هؤلاء القوم ولسان حالها يشير الى بقولها

لاشكرنك ما لاحت مطوقة * على الغصون كما طوقتنى مننا

﴿الفصل السابع والثلاثون﴾

﴿تاريخ يوسف الارمنى وزوجته مريم﴾

(قال الحاج بابا) انه وان كان فى عزمى الاقامة فوق مرتفعات قرية أبيران بالنسبة لجودة الهواء وبرودته ووجود المراعى الجيدة لخيولنا الا ان ماسمعته من انتقال القبائل الرحالة الى نقطة بعيدة عنها فى الجبال خوفا من نيران الحرب التى انتشبت استحسنت الراحة فى اشتارك لحين تناقص حرارة النهار وعلى ذلك أمرت من معى من العساكر بالراحة فى هذه القرية فنزلوا عن خيولهم وربطوها بين الحشائش وبعضهم استراح تحت قبوات القنطرة

واثنان أقامافى طاحونة ماءتدوربواسطة مياه النهر وأماأنافافترشت سجادتى فى أودة مكشوفة كائنة فوق احدى الصخورالتى على حافة النهرومنها أكشف جميع الجهات واشاهدأى أمريحدث لنامن حدود الروسيا وبعد نومى ساعتين وجدت نفسى فى غاية الراحة فأرسلت الى الفتى الارمنى فحضروكان أهالى القرية أحضروالنا طعاماخفيفا كنا فى حاجة اليه فدعوته للاكل معنا وبعدذلك سألته أن يخبرنى برحلته وبالاخص عن السبب الذى جبره على الالتجاء فى الجهة التى اكتشفته فيهاوبعدالاكل وأخذالراحة اللازمة وكان شعاع الشمس انتشرفى المكان الجالسين فيه فلماابتدأ يحدثنى رأيت علامات الفروسية تلوح على الفتى وتتناثرمن وجهه دالة على ماله من التقاطيع الجميلة التى ألزمتنى بحالة غريبة عمايبديه من الحركات الاهتمام بسماع حديثه والاعتقاد بصحة جميع مايقوله

(قال يوسف)

أناأرمنى المولدوعلى دين النصرانية واسمى يوسف ووالدى شيخ قبيلة قرية جومشلو المسكونة جميعها بالارمن الكائنة بالقرب من نهر عباكى اللطيف وتبعد من هذا المكان بنحوستة أجانس (نوع قياس) وهى فى وسط خلاء مخضربه أحسن المراعى وتتمتع بالمناخ المشهور ببرودته ورقة هوائه ولذلك تجدأهلهافى غاية الصحة والقوة وفضلاعماياتى لنامن اغتصاب حكامنا أموالنافنجدأنفسنافى غاية من السرور وعدم الاحتياج عمانحن فيه من الفقر وانناسكن الجبال البعيدة لنكتفى الظلم الذى عادة يعم الاهالى القريبة من المدن الكبيرة ومساكن الولاة ومختفون من أعين جميع الخلق أماعوائدنافبسيطة وحالة معيشتنارهبانية وكان لى عم شماس وكبيرعلى كنيستناوهو بطريق ايتشميازن وخال كان كاهن قريتنا وعاان عائلتنا لهاالمقام الاسمى فى الكنيسة نويت على اتباع هذه الوظيفة المقدسة بالنسبة لكونى والدى اعتكف على حراثة الارض وشغله الخصوصى وقد

حرث قطعة كبيرة بالقرب من القرية بمساعدة ولديه خلافى وتأمل فيهما الاعانة له فى الغيط فعزم على ان يوفرنى من هذه الاشغال لخدمة الكنيسة وعلى ذلك لمابلغت من العمرعشرسنين أرسلنى الى ايتشميازن وفيها تعلمت القراءة والكتابة وتأديةوظائف الكنيسة وقدنتج لى من التعليم سرور زائدحتى كنت اقرأكل كتاب يصادفنى وبذاأصبح عندى مكتبة متسعة فى الديرمملوءة من الكتب الارمنية نظمتهاعن قريب

وان كان أغلب مافيهامن الكتب الدينية الااننى تحصلت على تاريخ ارمينية فجذب التفاتى الكلى لمطالعته لانى علمت منه اننا كنافى سالف الزمان أمة عظيمة تحكمها ملوك أرمنية محترمين ومعتبرين فى العالم فلما تاملت فيمانحن فيه من حالة المذلة والاحتقارفى أيامنا الحاضرة وتنبهت على ما كانت عليه حكامناوماتجريه قام بى ماأوجبنى لنقض العهد وأمالت هذه الحاسيات أفكارى عن الوظيفة المقدسة الى ماقضى على به الامر المحتم

وفى خلال هذه المدة قام الحرب بين العجم والروسياوكانت قريتنا هى البقعة المعدة اسيرالجيوش داخلها الى الحدود فخشيت ان يلحق بعائلتى الوبال وانهافى حاجة لبذل مساعدتى على قدرالامكان فاخترت وجودى بزمرتهاوالتفريط فى نفسى لحمايتهاأولى لى من اختلائى فى الصومعة وتركهاتكابدأمورامفجعة وبناءعليه قمت بدون انتظارى اذن الكاهن تاركاأصحابى بايتشميازن وعدت لمنزل والدى حيث استقبلونى بالبشر والسرور فوجدتهم متلبسين بجلباب الفزع وقلوبهم ترتجف من أهوال الحرب الحاصلة لان الفئة المغيرة للسلب من الفريقين من العجم والروسيا وكلاهما يخشى منهماظهروافى القرى وبددواشمل أهالى قريتنا وسكان القرى المجاورة لنا الطائعة لسلطتهم وأوقعوابهم التلف والخراب وانه وان كانت هذه الحدود الحربية لم تكن نتائجها العمومية ذات فائدة كبرى

الكلدا المملكتين الان الخوف تسلط على القاطنين بها من كل الجهات وبهذه الحالة كان دوامايداخلنا الوجل ويفيدنا بخيبة الامل سواء كان من جهة العدو والمغير أومن جهة ما يحصل لنا من الاضرار والنهب بواسطة عسا كر حكومتنا وبذلك سلبت محصولاتنا وتشتت مواشينا وكنا نحن مستعدين فى كل لحظة لما ينكب علينا من المصائب والاخطار وتسليم أنفسنا للقيد الاسر والعبودية اغما لما قام بنا من الغيرة والحمية على حفظ أمتعتنا كنا نحرث غيطاننا بقصد الحصول على القوت الضرورى تحفظا على أرواحنا من القحط ولانخرج للشغل الاشاكين السلاح والبنادق معمرة على ظهورنا وبمجرد مانرى أجنبيا مهما كانت صفته نجتمع فى نقطة واحدة ونظهر له المحاماة عن أنفسنا وبهذه الحالة استمر بنا مدة سنوات نقاسى العناء والشقاء فى حصد محصولاتنا بكل مشقة حتى اننا بعناية الله سبحانه وتعالى جمعنا ما يكفينا للقوت وقد وجب على فى هذا المقام ايراد بعض الحوادث المتعلقة بتاريخ شخصى

وهو انه منذ سنتين خرجت فى فجر احد الايام بقصد حصاد بعض محصولات من غيطاننا البعيدة وأنا متسلح حسب العادة فرأيت فى طريق فارسا عجميا تكتنفه امرأة خلفه يجد فى السير نحو واد صغير وكنت واقفا وقتئذ فوق أكمة مرتفعة وكان ذلك على غير رغبة الفتاة لانها حال ما لمحتنى من بعيد صرخت بصيحات عالية ومدت ذراعيها نحوى تستغيث بى فأخذتنى عليها الشفقة وقامت بى الحدة حتى أسرعت فى أقرب وقت بالنزول لهذه الوهدة لمعارضة الخيال فى الطريق وأشرت بوقوف الخائن الزنديق وقد أخرجت سيفى من غمده حتى اذا لم يجبنى أسكنه رمسه وثبت ثبوت الاسد الضرغام لاحجزه حال مروره باللجام فلما ان رآنى متهيأ لقتله وقد أشهرت سلاحى ضده تحير فى أمره حيث لم يتمكن من اخراج بندقيته ولا سيفه نظرا للفتاة التى تكتنف ظهره فما كان منه الا وكز جواده فقفز قفزة كانت سببا

لنجاة حياته فلم يسع الفتاة الا وألقت بنفسها على الارض ولم تبال بما ينالها من الرض ولما اختلى الخيال بنفسه ورأى انه تخلص من ربكته أراد اخراج بندقيته ولكنه لما رآنى منشنا عليه عدل عن فعله وأدار جواده وسلك حال سبيله ولم أقف له بعد على أثر

ثم أسرعت لمساعدة الفتاة المطروحة فرأيت من هيئة لبسها انها أرمنية وهى ملوثة بالدم مجبورة العظم وقناعها الخارجى ملقى بجانبها فرفعت عنها لثامها التحتانى لكى تتنفس بالهواء وهو اللثام الساتر لنصف وجهها كما هى عادة الارمن وقد اندهشت برؤية تقاطيعها الحسنة التى ما كنت أتصور وجودها أو يخطر ببالى رؤية جمال مثل جمالها

أضيغم أم غزال ذاك أم بشر * شمس تزيت بزى الترك أم قمر
لقد تحير وصفى فى حقيقته * كما تحير فى أجفانه الحور

وكان يبلغ سن هذه الفتاة الجميلة التى احتضنتها بين أذرعى خمس عشرة سنة فآه وأسفاه انى لا أنسى ما نزل بى من رجفة العشق والسرور والشغف بها حال تطلعى اليها وانجذاب فؤادى نحوها بحنو زائد الحد أشد من شفقة الوالدة على ولدها حتى شعرت أخيرا بحالة فى قلبى لم يسبق حصولها وبذا نسيت كل أمر وعلقت آمالى بها

والقلب يخفق والغرام غمابه * والشوق يحرق فى الحشى المتقطع
والروح راحت من تباريح الهوى * آرنبافهل لوصالها من مطمع

وكنت مصمما ان لم تفتح الفتاة عينيها فاسمر نفسى فى مكانها مدة حياتى لولا انها ابتدأت تظهر لى علامات الحياة بالفاظ نفثت الا كادوانها لما تنبهت لنفسها والجهة التى هى فيها وانها وقعت فى أيدى غريب من غير البلاد أخذت فى الصياح والعويل بحالة اقشعر منها جسمى واضطربت منها جوارحى ولكن لما فاقت نوعا لنفسها وتحققت انى من ديانتها وابن جلدتها وزيادة على ذلك المنقذ لها من مخالب العدو صارت تتطلع الى بحاسيات

مختلفة دالة على ممنونيتها وميلها نحوى وكنت أتصور انى ربما أجريت أمورا لم تستحسنها وانى لم أقم بالواجبات اللازمة فى اجرا آتى التحفظية حتى ظهر لى فيما بعد انى لم أخالف الأمر او احدا اتهمتنى به أوجب لها الاسف على حالتها وهو رفع برقعها من فوق وجهها لعدم جواز النظر اليه وبذا المقام محنى حيث لا يتأتى هذا الامر الا من الزوج فقط وهذه الاشارة الدالة على العفة وشرف النفس هى دواما نصب عين كل امرأة أرمنية اذ أنها معتبرة من الواجبات المقدسة التى من الضرورى التمسك بها ولكنى لم ألتفت وقتها لمسائل الادب والحشمة بل وقفت امامها بهيئة رجل سبق له مشاهدة جميع وجهها ومع ماهى فيه من الآلام صارت تعذرنى لذلك وكنت أبين لها الحالة التى جبرتنى على رفع قناعها وأقول لها لولم أرفعه عن فمها وأنفها لخلاصها من الضغط الناتج من الرباط الخلقى لحصل لها اختناق عما ان سقوطها أحرمها من جميع الحواس ولولم تستنشق الهواء لفارقها روحها ومع هذا كله فما كانت تعتقد موتها من هذه المسألة ولم أتمكن من اقناعها

وكان أقوى حجة ثبتت فى عقلها وأهدأت روعها عن غيرها من الادلة من جهة هتكى سترها كما تدعى هو انى أقسمت لها بالصليب المقدس وبالقديس جريجوريو انى لا أبوح بهذا السر لاحد مادامت الروح فى الجسد

السر عندى فى بيت له غلق * قد ضاع مفتاحه والبيت مختوم

ثم سألتها ان تذكر لى رحلتها ومن هو الذى ساعدتنى الاقدار بخلاصها منه فقالت جميع ما أعلمه عن هذا الرجل هو فقط كونه عجميا ولم أره من قبل كما ولا أعلم موضوع خطفه اياى سوى كونه يبيعنى بصفة جارية وأما الحادثة التى تسبب عنها أسرى هو حدوث مناوشة من عهد قريب بين فرقة من الاعجام الخيالة وبين الجورجانيين فهزمهم الاعجام وأخذوا منهم بعض أسرى وحملوهم الى أريفان متهللين بالنصر والظفر على الجورجانيين

وكانت قريتنا قبل هذه المناوشة بزمن يسير ملئت من عساكر الاعجام وللقضاء المبرم خرجت فى صباح يوم ولم أدر ما دبره لى هذا السلاب من المكايد وقصدت التوجه الى بئر القرية لاملأ ابريقى وبينما أسير فى الطريق اذ فاجأنى العجمى من خلف سور خرب وشهر سكينه أمامى وهددنى بالقتل ان لم أتبعه بدون صياح وأركبنى خلفه فوق حصانه فرمح بنا الحصان حال ظهور بعض فتيات قريتنا وكن ذاهبات الى البئر فعند ذلك لم أجد لى أملا فى فك أسرى الا بالصيحات والهيجان الذى ينشأ فى القرية من الفتيات اللاتى نظرننى ولم يمض بعض دقائق حتى رأيت اننا غبنا عن النظر وطلعنا فوق أكمة عالية وسرنا فى واد بدون ان يمنعنا أحد من المارة وأخيرا المار أيتك على سفح التل شجعت نفسى وهونت عن صدرى ما كنته بالصيحات التى ارتعدت منها فرائص العجمى فاتيت نحونا وحصل ما أنت أعلم به

(قال يوسف) ولم تكد الفتاة تنهى حديثها حتى اكتشفنا جملة أشخاص سائرين على الاقدام ومعهم رجل ممتط جوادا او أتوا مسرعين نحونا وبحال اقترابهم منا وتحقيق حبيبتى منهم كنت أشرح صدرى واتلذذ بالالفاظ التى تخرج من فمها حيث قالت

آه يافرحتى ها هو أبى واخوتى ها هو أوفان واغوب واراتون وعمى أيضا وبمجرد حضورهم استقبلتهم بالاحضان بعبارات الفرح والسرور وغبت عن الوجود وقتئذ خشية من وجود أحد من الشبان معهم متعلق باذيالها ومهيج لبواعث أفكارها للاقتران بها من قبلى فاقتحمتهم فلم أجد بينهم أحدا من هذا القبيل خلاف أقاربها فقط فحمدت الله على ذلك ثم انهم حدثوها عما حصل من الانزعاج المهول فى عموم القرية الناشئ عن انتشارها وانتشار رفقائها الهذا الخبر فى كل الجهات وقالوا لها انه بمجرد سماعهم الخبر ركب والدها حصان العائلة اذ لم يكن فى ذلك الوقت موجودا غيره بالمنزل

وظلوا سائرين على آثار خطوات حصان السالب ووصفوا لها الجهات التى عبروها والاكمة التى صعدوا عليها ونزلوا منها وهى القريبة من الجهة التى وجدوها فيها الآن

فصدقت على كلامهم وحمدت الله والقديس جرجيوريو على نجاتها وبعد ان سكنت هنيهة أشارت نحوى بحالة تحير منها العقول وأوضحت اليهم انى أنا المنجى لها وبذا أوجبت التفاتهم جميعا الى وسألنى والدها قائلا من هو والدك فاجبته أنا ابن الخوجه بطرس شيخ قرية جوميشلو فقال آه اعرفه انه صديقى وجارى وأظن انك أنت الذى كنت تتعلم فى الثلاثة كنائس وظيفة كاهن وحضرت لمساعدة عائلتك فأجبته حقا فقال أهلا وسهلا بك أعزالله بيتك لقد وجب علينا الشكر الدائم لخلاصك بنتنا والضرورة تجبرنا فى هذا الوقت أن نذبح لك شاة لتأكل وينشرح خاطرك ونحن وجميع عائلتنا نحملك على رؤسنا ونلثم قدميك ونروح على وجهك حبا فى خلاصك مريم بنتنا وحفظك لها من العدم بعد ان كادت تصبح أسيرة فى أيدى المسلمين

(قال يوسف) وبعد ذلك هنأنى اخوتها وعمها وعزموا على جميعهم بصفة جبرية بالتوجه معهم لضيافتى فى قريتهم ولما لم يمكنى معارضتهم وشعرت ان شوقى يدفعنى بالرغم عنى لمشاهدة مريم قبلت طلبهم وعلى ذلك سرنا جميعا دفعة واحدة وكأنى بقائل يقول

قوّ العزائم لاتكن متقهقرا * لاخير فى رجل يعيش جبانا
وابذل قواك ولاتمت جزعا فما * عهدى بمثلك أن تكون مهانا
ان مت مت شهيد حب خريدة * أو عشت عشت من الهوان مصانا

وبينما نحن منحدرون من احد الجبال أشاروا الى على قرية مريم وبذلك اسميها فاذا بها كائنة بين الاشجار وموضوعة بغاية الاتقان فى قرنة حارة لم يتملكها الهواء الامن الجهة الشرقية فقط يهب اليها من بحر القلزم (وهو

القزبين) بنسمات رطبة منعشة للاجسام بغاية اللطافة والرقة وخلفها نهر بومبا كى متحدر مجراه داخل واد بهيج مزروع بالاشجار والازهار المختلف ألوانها ويمكنا من مسافة تبعد عنها قليلا نشاهد بالتحقيق كنيسة قره كليسا (الدير الاسود) وهى أول محطة من حدود الروسيين من هذه الجهة ومشيدة فوق صخرة هائلة محاطة بالاشجار المخضرة من جميع جوانبها ويظهر للرائى انها منظر فى غاية البهجة والاتقان

هذا ولما اقتربنا من القرية كنا نرى سكانها خصوصا النساء والاولاد يتلهفون على سرعة حضورنا ليطمئنوا على ارتداد مريم ولما تيقنوا بحضورها سالمة أظهروا سرورا زائدا وقد شاع بوقتها مسئلة أسرها وخلاصها على الالسن فى أقرب وقت وبها بعض زيادات حتى قيل ان الذى اختطفها هو من الجن رأسه من الحديد ومخالبه وقدماه من البولاد ذو خطاطيف بظهره والجواد الذى كان راكبه كاد يسبق الهواء ويمزق الارض من كل جهة وضجيجه فوق التلول يشبه صوت طلق البنادق ومما أضافوه على هذا الكلام الخرافى أيضا قالوا ان ملكا نزل من اعلى قمة جبل عال مظلل بالغمام وبمجرد ماشهر بيده سيفا من نار انزعج الحصان ورمى مريم فوق الارض وصار الجنى وجواده رمادا.

فلما علمت أهل القرية انى أنا الحراث الشهير التفت جميعهم نحوى التفاتا شديدا وعندما أرادوا ان ينزلونى منزلة نبى ففى الحال من سوء حظى لمحنى شاب يعرفنى كان يرعى الغنم وقال ان هذا ليس بملك وانه ليوسف ابن الخوجه بطرس شيخ قرية جومشلو فتنغص بذلك على معيشتى ويئست من نوال بغيتى ومع كل فكانوا يعاملوننى بكل اعتبار وينظروننى بعين الاحترام وبالاخص فان أقارب مريم لم يتأخروا عن تأدية الواجبات والاقرار بالتشكرات التى لايمكنهم حصرها نظير ما كان منى من المكرمة وكانت نار العشق أثناء هذه المدة تخترق مسالكا فى صميم فؤادى وتجوب فيها لانى

لم أرمريم منذتلك الساعة السعيدة مكشوفة الوجه وبذلك كانت سببا قويا للمنع ما كنت أؤمله من مستقبلى لتمكن حبها من جوارحى وازدياد لهيبى بين أضلعى

رفقا بقلب كاد يتلفه الاسى * حتى تداركه الطبيب فاوجسا
قالوا له ماذا رأيت فلم يكد * يبدى التعال لالعل ولاعسى
لكنه غفل فلم يفطن به * ماشام نيران الغرام فبائسا
بل قال جالينوس لويدرى بذا الـ * ـداء العياما كان قط تنطسا

ثم قلت فى نفسى لا لا حاشانى ان افارقها ولو اجتمعت أهل السموات والارض فانها لا تبعدنى عن هذه الفتاة الجميلة وان ماقدر علينا لا يكون الا هو واجتماعنا سوية ماهو الا بأمر الله وكذلك لا يفرقنا من بعضنا الا القدرة الالهية حتى انى لو أردت أخذها ان لم يقبلنى أهلها فانى مجبور على استعمال قساوة العجمى وحملها غصبا وأشرح بقربها قلبى العليل وأطفئ بوصلها نيران الغليل

هذا وكنت أنا ومريم نتقابل فى كل لحظة وان كان كلامنا قليلا الا ان اعيننا ترمق بالحديث كثيرا وبذلك ازداد غرامى وتمكنت محبتها فى فؤادى بما رمتنى به من قوس حاجبيها فاصاب قلبى نبل مقلتيها فكانت سهام أشد طعنا من الحسام ليس لها دواء لامحال غير قربى منها بالوصال

رمتنى سود عينيها * فاصمتنى ولم تبطى
ومافى ذاك من عجب * سهام الليل لاتخطى

وكم اشتاقت نفسى بان اقابل وانازل عجميا آخر لا بل عشرين عجميا حتى أريهما لها من المحبة فى قلبى مع انى فى حد نفسى على يقين بانى ارمنى فقير من أمة دنيئة ومحتقرة لا قدرة لى على هذا الأمر وغاية ما كان يمكنى هو منع الذئاب عن أغنام والدى وطرد الاشقياء من غيطاننا ولكن عجبا فان حالة الحب آلت ان تلقى بصاحبها فى أشد المصاعب بدون أن يبالى بما فيها

من المصائب

فكنت يوم الحادثة فى غاية الاكرام فى قرية جنكاو وهى قرية مريم وذبحوا الى شاة حسب الوعد وطبخوا اقزانا من الارز وفى صبيحة ثانى يوم استأذنت منهم وتوجهت الى أهلى وحدثت عما أصابنى من لهيب الفراق ولاحرج فلما رآنى والدى ووالدتى أخذانى بالاحضان لانزعاجهما الزائد بالنسبة لغيابى وسألانى عن حكايتى فقصصت عليهما رحلتى وهما يسمعانها بكل اشتياق والتفات نظرا لما كنت أحليها به من الكلام المزخرف على قدر امكانى وكان العشق فى أثناء ذلك أضنى فؤادى وارتوى بشرب دمائى وزاد سقامى وهيج أشجانى ولم يكن بى شاغل غيره ولا اهتمام الا بأمره

ولا أدرى الدواء سوى الوصال * من الهجران والداء العضال

ولذلك قصدت ان أوقفهما على خبرى لعلهما يرحمانى و يقبلان عذرى وقلت لهما اشكر الله ولكما على بلوغى الآن السن الذى يصيرنى أدبر نفسى واسلك بحسب عقلى وقد أصبحت طويل الباع قوى الذراع على التكسب ولذلك أعلمكما بميلى للتأهيل اذقد سهل لى القدير السبيل ويسر لى كل أمر عسير ورجائى منكما طلب مريم من أهلها وتزويجى بها وبعد الانتهاء قت وقبلت يدى والدى واحتضنت والدتى فاجاباان الزواج فى مثل هذه الاوقات من أصعب الامور لعدم تيسير النقود ولا يخفى عليك يايوسف ماهى عليه العائلة من الفقر والاحتياج وبهذه الحالة لاقدرة لنا على التعرض لمصاريف الفرح اذ من الضرورى الواجب مشتراه هى بعض الملابس وخاتم وشموع وحلويات وبرقع قرمزى وطراحة وملاءة فرش وذلك بخلاف أجر المغنين والموسيقى واعمال وليمة فمن أين لنا هذه الدراهم لقضاء جميع ماذكر فقلت حقا اننا فى حاجة للدراهم وبدونها لايتم الزواج لامرين أولهما اظهار شرف عائلتنا وثانيهما اظهار محبتى الى محبوبتى ولكن فى امكانى السالفة حيث لى أصحاب فى اريفان وفى الثلاثة كنا نس

وعلى ظنى يمكننى السلفة منهم على قدر مصاريف الفرح واما من جهة السداد فانى أبذل جهدى فى السداد وأعيش بغاية التقتير حتى ينتهى دينى وبخلاف ذلك ففى امكانى الاستخدام طرف أى تاجر من الذين ينتقلون من بلدة الى أخرى بصفة خادم وبتوجهى معه الى مأمورية لاسلامبول أو استرخان انال مبلغا وافرا يقوم بسداد الديون وفائدتها

(قال يوسف) وبالاختصار فان ماقلته فى هذا الموضوع لايمكن حصره وبذا انجبرت والدتى بفتح المخابرات بينها وبين أهل مريم الى ان اتفقت الآراء أخيرا ان يتوجه والدى بعد قليل من الايام صحبة عمى القسيس وأحد كبار القرية الى جنكلو ليسأل أم مريم فى قبولها تزويجها بى وكنت فى هذه المدة أتوجه اليها كل يوم محتجا بامر أو بدعوة أشغال تخصنى فى الخارج حتى صادفتنى العناية باخبارها عن مقاصدى وان تعلم أهلها بالامر ومابيننا من ارتباط المحبة حتى لا يتوقفون فى أى أمر فاجابت بالسمع والطاعة وقالت سأبذل جهدى لحبك على قدر الاستطاعة وهى تقول

ساوليك روحى حيث كنت متيما * بحبى فلا تحزن أنالك فافرح

ولما توجه والدى ومن معه الى قرية جنكلو استقبلهم أهل معشوقتى باحسن استقبال وتحية لقدومهم صفوا اليهم كاسات بنت الجريال فصاروا يشربون الخمر ويتسامرون فى الامر حتى اذا استولت على عقولهم وقام بهم سرورهم اتفقوا جميعهم على القبول واشترطوا ان لا يحصل اتحاد مالم يتفقوا على جميع لزومات الزواج ودفع رسوم العقد وعلى ذلك انفض المجلس وقام كل لحال سبيله وقلبى مملوء فرحا وسرورا

عليك بحسن الصبر واحذر شكاية * فما أخشن الشكوى وما أحسن الصبرا

وبعد مضى ثلاثة أيام استعدت والدتى للتوجه الى جنكلو ومعها عمى الكاهن وامرأتان من العجائز فذهبت صحبتهم فاذا بهم أكرمونا الغاية وزاد سرورهم بابتسام فائق أعظم من المرة الاولى وذلك لعقد شروط الزواج

فاختلت

فاختلت النساء ببعضهن وأخذن يتحدثن فى هذا الامر وأرت والدتى ان الذى سيجرى احضاره من طرفى هو بدلتان كاملتان من الملابس محتويتان على قميصين أحدهما حرير قرمزى والآخر قطن سماوى وسروال من الديباج وآخر من القطن وجلا بيتان وبرقعان أحدهما قطن أبيض والآخر سماوى وزوجا نعال أحدهما من جلد الشجرين الاخضر بكعب عال والآخر جلد أسمر بكعب مفرطح محدوّ بالحديد وان أضيف الى ذلك منديلا من الشاش المطبوع ولفة من أربطة ومناديل الرأس وزادت خمسين غرشا من الفضة للمصاريف الصغيرة وسلسلة لعنقها تبلغ قيمتها تومانا من الذهب العجمى

وبعد التراضى من كل من الطرفين على ذلك قالت امرأة أصلها عجمية البتة من دفع جزء من دراهم اللبن كما هى العادة فى بلاد العجم فرفضت والدتى الطلب لعدم اتباعه بين الارمن فهاجت نساء الفريقين وعلا صياحهن وبعد جملة مناقشات ترجيت والدتى ان تدفع عشرة غروش نظير دراهم اللبن حسما للنزاع وخوفا من عدم القبول فقبلت والدتى وتراضين مع بعضهن ثم أوصونى قبل ان يعقدوا الشروط بعدم الضحك أو اجراء أمور موجبة للمزاح حيث ذلك مؤد لحصول تشاؤم فى المستقبل بين الزوجين وكانت والدتى جالسة مع من معها من النساء على الارض وخلفها والدة العروس فدخلت مريم عليها تخطر بقد فريد فى عصره ماله شبيه فى حسنه

لو رأى الدر ملافظها * لرمى ذا الدر بالخجل

شمس حسن كللت بسنى * قد علت نورا عن الحمل

كاعب أسكنتها قلبى * مذ أتت تهتز بالميل

ثم ألبستها والدتى خاتم نحاس فقلت يا أسفى ويا حزنى ولكن فقرى ألزمنى السكوت وعدم الالتفات ثم قدموا الخمر للقسيس وبمجرد ان شرب منه جرعة أعلنوا ان هذه دلالة على انتهاء كتب الكتاب بين الزوجين وقام

المهنؤن يهؤننا من كل طرف فطار عقلي من الفرح وان كنت ممنوعا من رؤية مريم الآن وقت وقبلت أيدي جميع الحاضرين وهم يقبلوني بالتبريك على هذا الزواج

ثم انصرف الجمع وتوجهت مع والدتي لاستعداد التجهيزات اللازمة للفرح وأنا مشروح القلب بدون أن أتفكر في حصول أدنى عائق مطلقا بيني وبين زوجتي وبينما نحن نتشاور في كيفية الحصول على الدراهم اذ حضر والدي ودخل غرفة العائلة وبيده كيس وقال هاهي الدراهم فان كتخدا قرية جومشلو أرسلها هدية لولده فنعم به من انسان أكرم وأحسن أهل القرية فاليك يا ولدي يوسف هذه العشرة تومان وأنفقها في مشترى ملابس لزوجتك فعند ذلك اقتربت منه وسجدت على ركبتي وقبلت يده وتضرعت بالدعاء اليه فلما رأى ذلك عمي وقد أخذه العجب من هذا الكرم قال لي يا ابن أخي لا يخفاك ما عليه الكنيسة من الفقر واحتياج الرهبان فخذ أيضا هذه العشرين عباسية من الفضة واستعن بها على مشترى شموع عرسك وبالمثل فقد حباني كل من كان حاضرا بجزء من الدراهم حتى بذلك وجدت كيسي مملوأ من الدراهم ولم أجد حاجة للسلفة ورأيت اني بها يمكنني مشترى جميع ما يلزمني دفعة واحدة ثم قمت بواجب الشكر الزائد للذين أحسنوا على بهذا الانعام لعدم وجود دراهم معي بهذا القدر سابقا فحت يدي وكدت أن لا أعرف الكيفية التي أسلك بها من فرحتي وبودي التوجه لساعتي الى أريفان التي تباع فيها الملابس حيث لم يوجد مدينة أقرب منها بها سوق ولكن بجهلي كيفية المشترى سيما لست متعودا على مشترى ملابس النساء فاتفق الرأي على توجه والدتي معي وان تمتطي حمارنا وأنا أسير خلفها على الاقدام وقالت ان لها أصحابا في أريفان للمبيت عندهم ليلة أو ليلتين أما المبيت في الطريق فيكون في احدى خيام القبائل الرحالة اذ من عوائدهم ضيافة الغريب وعلى ذلك ركبت الحمار وسرت خلفها بسيفي في جانبي

و بندقيتي على كتفي وقد سار خلفنا لخارج القرية نحو نصف أهلها بقصد الوداع ويسألون الله أن يردنا سالمين

فلما وصلنا الى مستعليات أبيران رأينا على بعد خيام مضروبة مملوءة بالعساكر وفي وسطها خيمة كبيرهم في غاية الزخرفة وحسن الهيئة وقد أخبرنا فارس كنا تقابلنا معه في الطريق ان سردار اريفان معسكر بتلك الجهة بجملة عساكر من السواري لملاحظة حركات الروسيين والجورجيين المنتظر قيامهم قريبا بجيوشهم وهجومهم على بلاد فارس فارتعبنا جدا لهذا الخبر المشؤم حيث رأيت من عزم والدتي العودة وابطال الفرح فلم أصغ لكلامها بالنسبة لما بي من الشغف وقويت عزمها في سرعة المسير وأخبرتها بعدم اساءتنا بشيء فسرنا طول يومنا بدون استراحة حتى اقتربنا على أريفان آخر النهار فبتنا في صخرة بارزة على هيئة جبل ارارط الشامخ تماما وعندما أردنا النوم اعتمدنا على بركة القديس جريجوريوو توسلنا به بأن لا يمسنا أحد بسوء وكانت القبائل الرحالة بعيدة عنا فلم نجد ضرورة للالتجاء اليهم وقمنا في بكرة النهار ووصلنا مدينة أريفان بالسلامة فنزلت والدتي عند احدى صواحباتها فأخذتها بالترحيب وثاني يوم الوصول توجهنا سوية الى السوق لمشترى ملابس العروس أما أنا فصرت أحوم من جهة الى أخرى أتفرج على السوق وأسمع كلام الناس عن تلك المسئلة فوجدت جملة اشاعات مختلفة عن اجرا آت السردار ضد العدو وانه جاري الاستعدادات الكلية للهجوم في أقرب وقت وبلغني ان عمال الترسانة وشغالي البارود ازداد عددهم عن العادة وجارون اعمال قنابل يدية لم يسبق استعمالها في بلاد فارس لطلقها بمهاجري الروسين بنفسهم وهم واقفون ومع كل فلم أبال بجميع هذه الحوادث بل آمالي متعلقة بمصالحي الخصوصية ومالي من السعادة الناجمة لي من عالم الغيب حتى انه كان طرأ بفكري الالتجاء الى السردار بواسطة رئيس الثلاثة كنائس لوقاية قريتنا حيث أصبحت ميدانا

الحرب فلما تأملت لطول المدة التى تستغرق فى هذه المسئلة وتعطيلنا فى الطريق صرفتها عن بالى وبعا أنافيه من القلق اعتمدت على سيفى و بندقيتى لنتوقى بهما من شر الاعداء وعلى ذلك عدت راجعا مع والدتى الى قريتنا بعد مشترى الملابس من الطريق الذى حضرنا منه وكان السير بطيئا بالنسبة لثقل الحمل الذى فوق الحمار بخلاف والدتى وكنت أنا بالمثل حاملا بين أذرعى زيادة عن البندقية مبلغا وافرا وقد وجدنا السردار معسكرا فى نفس النقطة التى رأيناه فيها أولا فمررنا من أمامه بدون أن يحصل لنا مانع حتى اذا وصلنا للارض العالية المطلة على قرية جومشلو ما أدرى الا وحصل لوالدتى اندهاش زائد من رؤية خيمة منصوبة فى القرية وأوقفت الحمار وهى تصيح نحوى بفؤاد مرتعد وتقول انظر يا يوسف ماهذه الخيمة التى هناك فأجبتها وكانت أفكارى وآمالى متحولة فى أشغال الفرح ولم التفت لشئ

نعم نعم أرى ذلك فلربما أهالى القرية يستعدون لاستقبالنا فصرخت والدتى قائلة وحياة ذقن زوجى وولي نعمتك قل لى ما الذى أصاب عقلك ابك جنون حتى انك لا تخشى ريب المنون حاز على ان لم يكن نظرى حقيقيا ويكون أولئك اماروسيين أو أعجاما وعلى أى حال لا نخلو من ضرر أحدهما

(قال يوسف) فلما سمعت كلام والدتى استيقظت من سكرتى وسرنا للامام فاذا بنظر والدتى جاء بالتمام واذا بالقرية ضارب فيها خمسون من العساكر الروسية البيادة بقيادة ضابط برتبة بنجاه باشا (رئيس الخمسين) قد عسكر فى هذه الجهة بصفة نقطة المقدمة لجيش ضارب بمسافة يوم من قريتنا وبذلك انجبر كل بيت فى القرية أن يضيف مقدارا منهم بمنزله ولكون منزلنا أشهر منزل فيها وبالاخص فانه لشيخ القرية نزل به الضابط فتأمل حينئذ ما أحاط بنا من الفزع الاكبر عند رؤيتنا هذه الاهوال الجسيمة وبالاخص ما تلبسنى من الافكار الوخيمة التى أنبأتنى بسوء بختى وازالة حظى بتأخير الوليمة لوقت غير محدود وانه ربما لا يتم ذلك الا بعد أن يحيق بنا الخراب والعناء

ونترك عرايا مجردين من الفتيل والنقير كالمهاجرين فيا أسفى ويا ذلى من هذا البلاء المنتظر ومما أنا فيه من شدة الهواجس المقلقة أسرعت بالتوجه الى جنكلو لاعلم أصحابى الذين بها بهذه المصيبة لعلهم ينصحونى بامر يهدأ به روعى ويسلينى على نكبتى لبعد قريتهم جدا عن نقطتنا العسكرية ولم يحتل بها جيش للآن فلما بلغهم حالتنا الكئيبة فزعت قلوبهم أسفا علينا وقد زادت حسرتى برؤية مريم الفتاة الجميلة وعظمت بلوتى وبما ان عوائدنا لا تبيح لنا بالتكلم سوية جهارا الا ان مجالس الحب لا تبعد عن العاشقين بأى طريقة كانت وبذلك اشترط كل منا على صاحبه بعد أخذ العهود والاقسام بالصليب المقدس اذا حصل لاحد نا شئ من الاهانة أو الاسر أو خلافه لا يتأهل أحد نا مدة حياته ثم تركتها وأنا نادم مما لحقنى من الجنون الذى ألجأنى الى هذا الاتفاق حيث ظهر لى من قرائن الاحوال انه لابد من حصول الاضطراب المزعج عند هجوم الاعداء يوما ما وبذلك لا أعلم ما يكون من أمر الفرح ثم قلت لو شرعت فى اعماله بالنسبة لاهميته قبل هذه الموانع فاكون بذلك جلبت لنفسى مصيبة مستقبلة لا أدرى عاقبتها وقلت ان الاحسن الصبر والتجلد لان ما أتحمله من العشق يمنعنى عن التأهيل بخلافها ولو قدر الله وحصل لها أمر

هذا وقد مضى على ذلك نحو أسبوعين بعد عودتنا ونحن سالكون بغاية المحبة والانسانية ولم يحدث أمر مقلق من ضيوفنا الروسيين بدون اظهار كراهة أو خيانة من جهتنا زيادة عن ما يكون عليه الاعجام لو كانوا ابدالهم وبذلك أصبحنا يدا واحدة فى غاية الارتباط والالفة

ولكون الروسيين على دين النصرانية مثلنا فكانوا يظهرون اشارة الصليب ويصلون فى كنيستنا ويأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر حتى نتج من جميع هذه الحالات الغيرة العظيمة بيننا وتقوية روابط الصحبة وكان ضابطهم شابا ذكيا عاقلا ميالا للعدل وبذلك انبث الامن والهدو فى قلوبنا

حتى انه من حفته ومهارته شدد على العساكر بالاستقامة وأنذرهم بالعقاب المؤبد اذا خالفوا النظام العسكرى أو أقلقوا الاهالى وأوصاهم بحسن السير والمودة معهم وبالمثل صار يشجعنا على المسامرة معه و يظهر لنا البشاشة واللين ورغبته فى تفقده اخبار العائلة واجراء ما يعود عليها بالنفع فلما شاهدت منه ذلك أيقنت فى نفسى ان هذا سبب قوى للدخول معه فى موضوع زواجى وحدثته بالامر من أوله الى آخره فكان يصغى لحديثى بغاية الالتفات والاهمية الكبرى مظهرا انه صاحب صديق مدة حياتى و بعد انتهاء حكايتى المعلومة قال

اذا كان الامر كما ذكرت فما الداعى يا يوسف لامتناعك عن الفرح مع عدم وجود مانع لتأخيره أما تعلم اننا مقيمون هنا بقصد حمايتكم وكل ما تريده من سلفة أو خلافها فاننا نعدك بالقيام بكل ما تطلبه وان العجم للآن لم تبد أدنى حركة ونحن ننتظر هنا مددا من تفليس ولم نتحرك قبل حضورها وبذا أرى الوقت الفسيح لاقامة وليمة عرسك وما يلزم من الشعائر وأنت مطمئن الخاطر مشروح الصدر ولربما يكون الفرح فى حال وجودنا زيادة فى البهجة والرونق والانتظام عما اذا كنا غائبين

(قال يوسف) ومازال الضابط الروسى يسهل لى الامر ويحرضنى على اقامة الفرح بعد ان وعدنى بتقديم عقد جرجانى من الذهب هدية للعروس و بأن يعيرنى جواده لامتطيه وقت الزفاف و بذلك أمال عقلى وعقل أقارب العروس بقبول مشورته وسرعة الاهتمام وعلى ذلك صار تحديد يوم زفافى على العروس الا اننى عجبت من الحاحه فى هذا الامر على انه لو كان رجل خلافه مهتما فى أمرى بهذه الصفة الغريبة لشككت فى حسن نياته التى يبديها نحوى واعتقدت أنها غيرة كامنة فى الصدور يريد بتحريضه هذا القاء الفتن والشرور ولكن بالنسبة لشناعة منظره وقبح صورته التى تشمئز النفس من رؤيتها صرفت عنى ما عندى من الريب وقلت لا خوف على مريم من

جهته حتى لو فرض ومال قلبها اليه فلا يكون تغزلها الا فى قرد على شكل آدمى ولا حاجة لاوصاف أعضائه التى تأبى الآذان سماعها وفى هذا القدر كفاية عن زيادة الوصف لانى تصورت فى نفسى ان مريم عوضا عن انها تميل لهذا المنظر البشع كان الاولى لها الميل الى الجنى العجمى الذى اختطفها سابقا اذ الفرق بينه و بين زوجها لا يقدر والشمس لا تخفى على ذى عينين ثم تأملت لنفسى بالتيه والعجب وأعجبتنى هيئتى وحسن منظرى وبذا تركت الاوهام وعزمت على اتمام الفرح فى اليوم المعلوم الذى عيناه

اذا أراد الفوز كل فتى * يترك الدنيا ولم يسل
هالك أفكارا منمقة * صانها المولى عن العطل

ولما كان اليوم الذى يعقبه يوم الوليمة حملت الرجال فوق رؤسها ابشان العروس موضوعا على صوان داخلها الملابس و بعض أشياء ومشوا وامامهم المغنون والموسيقة الى منزل العروس وكانت هذه الجمعية محتوية على بهلوان واثنين من المغنين وطبال واتماما للاتقان أعطانا أصحابنا الروسيون طنبورة فحملها أحد الرعاة وصار يضرب عليها ضربات مشجية جدا لجميع أهالى البلد و بعد مضى بعض ساعات تبعتهم بقصد استلام ما تقدمه الى العروس من الهدايا كما هى العادة الجارية عندنا وكانت هذه الهدية زوج طبنجات سوارى من نحاس صناعة أهالى قوقاسوس وقيل انه لاحد أعمامها اذ كان من ضمن عساكر والى جورجيا قبل ان تمتلكها الروسيون وفى ثانى يوم الذى هو يوم سرورى وفيه يطول على اتمام حظى اذ كل ساعة فيه تقاس بألف عام قمت أنا وجميع عائلتى قبل الوقت فى الصباح وكان الهواء لطيفا بالنسبة لنزول الندى أثناء الليل حيث كان الفصل حارا باقى اليوم وكان الضابط أعطانى جواده فزينته بأحسن الزخوت ولبست ملابس جديدة من رأسى الى قدمى ثم زينت نفسى أيضا بالاحذية المذهبة وعلب الخراطيش والخناجر و بعض أدوات أخرى حولى أخذتها من رجل

جورجانى من مستخدمى الروسيين وقد أخبرونى وأنا على يقين من كلامهم بان منظرى كان فى غاية البهجة والاتقان

ثم سرت بموكب حافل محفوفا باقاربى الذكور والضابط الروسى وبعض العساكر الذى أمكنه توفيرهم لزيادة الموكب حتى وصلنا الى قرية جنسكلو وكنا نسير بغاية الانتظام وامامنا الموسيقى والمغنون ونزلنا امام منزل العروس حيث أخذنا راحتنا واستقبلنا أهالى جميع القرية بالتهليل والتبريك وبعد ان أعدوا المعدات اللازمة لعودتنا مع العروس الى جومشلو حيث ينتظرنا بها عمى القسيس للتكليل امتطينا ركائبنا وكان مسبلا على العروس ستر من القرمزى مسبل من فوق تاجها أى من الرأس الى القدم وأركبوها جواد والدها وسارت وهى محاطة باخواتها من الجانبين

ومن العادة المعتادة ان العريس يحمل بيده اليمنى حذاء من احدى طرفيه والعروس تقبض على الطرف الآخر حال التوجه الى الكنيسة ففعلنا ذلك وكان جميع أصحابنا وأقاربنا وشبان القرى البعض سائر على الاقدام والبعض على الحمير والخيول حولنا يهللون ويصيحون ويلعبون وقد لازموا الموكب كل هذه المسافة وعند وصولنا الى أرض عالية يرى منها قريتنا وقف الموكب وتقدم الذين انتخبوا لوجودهم عند التكليل ووزعت عليهم الشموع فاوقدوها وسار الموكب الى القرية بخطوات بطيئة وقد ترأس عليه من هذه النقطة عمى وشقيقه لتلاوة المزامير والترتيل بين المتفرجين وبالمثل فان الضابط الروسى نبه على عساكره بلبس أجمل الملبوسات وأمرهم بالمشى فى المقدمة وبذلك كان الموكب مزدانا بهم يعلوه الهيبة والاعتبار حتى اذا وصلنا الى باب الكنيسة ترجلنا عن ركائبنا ومازلت أنا والعروس قابضين على طرفى الحذاء ونحن نخطر الى داخل المذبح فمع مانحن فيه من الفقر والتواضع وجدناه مزدانا فوق العادة مكللا بالزهور التى تأخذ بالابصار وبه

المرايا وأنواع الحلى الفاخرة وبعد ان أوقفونا فى المحل المستعد للتكليل وضعت جبهتى على جبهة مريم بدون ان نتحرك كاننا ملتصقان ببعض وفتح القسيس التوراة ووضعها فوق رؤوسنا ويدها قابضة على يدى ثم سألنا القسيس عن رضانا وقبول كل منا زواجه بالآخر وان أكون بعلا لها وهى زوجة لى فبعد ان أملنا رؤوسنا دلالة على الرضا والقبول تلا الخطبة اللائقة والصلوات والادعية والترانيل ولم ينته هذا التكليل حتى شاع وذاع أمره فى عموم القرية بواسطة صياح الناس المجتمعة سيما صوت طبولنا ومزمارنا وطنابيرنا حتى كادت ترتفع الى عنان السماء وكان فى هذا الوقت أفل النهار ودخل الليل بالاعتكار وتناقصت الرياح وأظلم الجو وأمطرت السماء وسمعت أصوات الرعود على بعد فكان ذلك سببا لانفضاض الوليمة التى أعدها والدى قبل حصول هذه الحوادث الجوية وبعد انصراف الضيوف من المنزل أتت الساعة التى أتمتع فيها بزوجتى وأطفئ بها لهيب غلتى وأروى ظمئى وأصير أسعد الناس فيها حظا وسرورا

(قال يوسف) فلما وصلت لهذا الكلام تنهدت من صميم الفؤاد تنهد العاشق الولهان وقلت للسياف آه وأسفاه من هذه الدنيا الدنيئة ومالها من الامور الذميمة والدواهى الجسيمة فانها تذيق الحر سما وتكسو الجسم بلاء وسقما فلا يغتر بها انسان لان سرورها يسير وحزنها كثير فهل أقف على هذا الكلام واترك ما أتذكره من عظيم البلاء والاهوال التى انكبت على تلك الليلة بما لا يطاق من المصائب أو أسير فى حديثى لانى لا أريد مضايقتك بسرد ماحصل من الاخطار فقال أتمم حديثك يايوسف فانى أعلم بالحب وحاله وأنشد يقول

سائلى عن الحب يامن ليس يعلمه * عندى من الحب ان ساءلتنى خبر
انى امرؤ بالهوى مازلت مشتهرا * لاقيت فيه الذى لم يلقه بشر
الحب أوله عذب مذاقته * لكن آخره التنغيص والكدر

(قال يوسف) اعلم أن زوجتى فى غاية من الخفة والجمال تشابه كوكب الصباح فى الاعتدال نقية طاهرة لاتميل لاحد كانها ملك وتحبنى محبة صادقة فتأمل لما لحقنى فى تلك اللحظة عندما رأيتها اذ ما كان يخطر ببالى التأهل بها لانى كنت أرى استحالته وكنت أتصور أيضا ان سعادتى المنتظرة وهى زواجى بها نقطة بيضاء لماعة فى حياتى لم يمكن الحصول عليها مطلقا ولكى أن يكون للحادثة التى سأقصها عليك تأثير حقيقى فى الذهن أحيطك علما أن قرى جورجيا وجهاتنا فى ارمينيا أغلب منازلها مبنية تحت الارض حتى ان الاجنبى اذا مشى فوق سطح أحد منازلها يتوهم انه ماش على أرض سهلة وأغلبها ذات مناور بجانب السطح لنزول النور منها وكان منزلنا الذى عمل فيه الوليمة بهذه الصفة وبغرفتى التى اقترنت فيها منور يفتح ويقفل عند الحاجة كائن فى جهة معرضة للهواء الخالص

ومن عادة الارمن أن يدخل العريس أولا ثم تاتى زوجته وتخلع نعله وجورباته من قدميه ثم تدخل خلفه وقبل رفع الستر من فوق وجهها تطفئ النور ثم تكشف وجهها فلما دخلت الغرفة وأرادت مريم تطفئ السراج وتزيل عنها القناع هبت العواصف ورعدت الرعود وتساقطت الامطار بسيول كالبحار يتخللها أصوات مرعبة وماندرى الا ويحال ان طفئ النور وأنا على يقين بنيل المرغوب بوصال المحبوب ورشف الرضاب بعد هذا العذاب لاشفى بحله قلبى العليل وأروى به ظمئ الطويل الا وطرق آذاننا من منور الغرفة صياح مقبض غير عادى واذا به صوت رجال ممزوج بفرقعة الرعد وصحة الخيل ولم تمر لحظة حتى انزعجت منا القلوب وغابت عنا العقول عما دهينا به من صوت شئ مرعب سقط فى غرفتنا قريبا من فرشتنا وبه نور يحير النظر ورائحة السولفر يك فصرخت منزعجا انها لصاعقة وحق الاولياء فنسألك يا الهنا الحماية والفرار يا روحى وهيا اهربى يا زوجتى فعند ذلك سترت مريم وجهها وأرادت الخروج واذا بالاشقياء هجموا علينا فى

غرفتنا بصيحات اقشعرت منها أجسامنا وساقونا ونحن لاندرى من أين هذا البلاء سقط علينا حتى تهيأ لى بوقتها انى نقلت الى أقاليم الشياطين فوقعت مغشيا لا أشعر بنفسى بين الاحجار المتساقطة والرخام والمفروشات ولم أتذكر شيأ سوى انى رأيت لهيبا أعقبه رائحة السولفريك الكريهة وبعد ذلك تاهت حواسى كالميت لا أدرى ما كان وراء ذلك واستمريت زمنا طويلا مطروحا فوق الارض حتى عاد لى عقلى وتمكنت من تحريك أعضائى ولما لم أجد حصول ضرر فى جسمى مكثت أتأمل فى الحالة التى رمتنى فى هذه الجهة وأنا مندهش العقل وقلت أما مسألة فرحى فهى حلم لانى لا أسمع الآن حولى الا طلق البنادق وسلبا ونهبا وصياح وصراخ الناس فمنهم الجريح والذى يتألم من شدة العذاب ومنهم من يهجم ومنهم من يقتل بخلاف ما أسمعه من صحة الخيول وصوت الطعن بالاسلحة فقلت بسم الله ماهذا الامر المهول ومتى كان ذلك وتحيرت فى امرى مع تصورى انى ما زلت منقولا فى دنيا أخرى ثم طرأ بسمعى صوت امرأة فصحت بجنون قائلا انه لصوت مريم وحق الانبياء والاولياء انه لصوتها فاين وأين يسهل لى الحصول عليها وقمت من من مكانى وأزلت ما سقط على من التراب والاوساخ ساعيا فى طلبها

متعجبا من حالة الدنيا التى * من شأنها تفريق كل مجمع

وان الفتى ينل المرام بها يرى * شيأ أمر من الفراق المفزع

وكان المنظر غريبا لا يتصوره العقل ولا يقدر على وصفه اللسان لانى أول أمر فجعت برؤيته هو رجل عجمى مر كالنسيم من جانبى وبيده سيف مسلول وبالاخرى رأس آدمى يتقاطر منها الدماء وكان وقتئذ ظلام الليل يضئ على بعد بالبروق المتواترة فلمحت من نورها ما كان من الخيانة السرية فأزلت ما عندى من الافكار حتى أتحقق من هذه الاخطار وقد نظرت بواسطة البرق ما يشيب الاطفال من أجسام شاكين السلاح يهجمون بدون مبالاة على الروسيين وهم قائمون من فراشهم ورأيت من جهة أخرى أهل القرى

المساكين يفرون من منازلهم المدخنة وعليهم الذل والانكسار وسطوا على مافيها وهرعت المواشى من محلاتها لاتدرى مأواها بما أصابها من الحريق وقد قيل ان حسن خان السردار حاكم مدينة أريفان هجم على قرى الارمن بالكيفية المذكورة اذ كان يقذف القنابل داخل المنازل من المنافذ حتى أهلكها وبالاختصار فان لسانى يعجز عن وصف هذه الواقعة المهولة التى استتمت على هلاكنا وخرابنا وعلى أى حال رأيت من الوجوب على ان أشكر الله القدير الذى نجانى من هذه البلوى المحيطة بى ولكن ضللت عن الطريق الذى أسلكه للبحث على زوجتى وقد خيلت لى الاوهام عند سماع صوتها انه صراخ موتها فخضت بين القتلى وانا متسلح بجزوة نار استضىء بها تناولتها من غرفتى ومشيت نحو الاعداء كالمجنون طائش العقل زيادة عن العريس ليلة عرسه ثم عدت الى ضواحى القرية ثانيا فخطر ببالى صوت زوجتى وهى تصرخ فجريت لتلك الجهة الخارج منها الصوت واذا بفارسين رأيتهما من نور البرق برمحان فوق تل يكتنف أحدهما امرأة فعرفتها بقناعها الابيض المسبل عليها انها مريم فاسرعت فى اتباع أثرهما ولم أبال بشىء من الاخطار مثل التيس الجبلى حبا فى خلاصها أو هلاكى فى حبها ولكن من جملة المصائب التى عمتنى فى هذه الساعة هى ان العواصف تناقصت وانقطع البرق وأظلم الليل الحالك وأنا سائر فوق التل فتهت عن الطريق ولم أعرف أى سبيل أسلكه ووقعت متحيرا فى أمرى وأنا لا أدرى هل استمر فى سيرى أم لا ولم يكن على من الملابس الا ماستر عورتى وأنا مخلع الاعضاء والمفاصل من شدة مانابنى من التعب فانى وان كنت سائرا على أقدامى فى الارض الصخرية الا انهما لما بهما من الجروح فلم أجد لى قوة على المسير ومع كل قد تلبسنى الحزن وانكسر قلبى

فلما رأيت حالتى التى يرثى لها من يراها ألقيت نفسى طريحا فوق الارض المبتلة وانا لا أشعر بنفسى زمنا حتى فتحت عينى فوجدت نور النهار أضاء

امامى وعاد لى عقلى بالتدريج حتى اذا استيقظت لحالتى قلت ما الذى حدث وأين أنا الآن وكيف كان حضورى فى هذا المكان فاما الشياطين أو الجان الاشرار سلوا أنفسهم على هذه الليلة أو ربنا غضب على حتى نقلنى الى هنا وصرت بهذه الحالة أحقق تصوراتى الماضية تارة وأتردد فيها أخرى مما أشاهده الآن من صفو الجو ومافيه القرية من السكون والهدو وتغريد الطيور على الاشجار ورعى أولئك الاغنام فى الغيطان وأقول ان ماحصل من الفزع والاهوال التى تغور منها الجبال ماهى الا أوهام أو اضغاث أحلام فكيف يتأتى فى هذه البقعة المنفردة والجو الزاهى الزاهر وبين هذه النعم والمحاسن الالهية ان أشاهد الرجل يقتل رفيقه والمنازل منتهبة والرمم ملقاة وممزقة قطعا والرؤس يتساقط منها الدماء فما أقتلك وأقسالك من فكر حتى تخيل لى حرمانى من عزيزتى ومهجة قلبى زوجتى الحرة الطاهرة ثم اننى بعد برهة عدت لافكارى الحقيقية وأيقنت ان ماقلته تصورات وهمية لا أصل لها صادرة عن جنون وتخيلات وظنون بل جميع ذلك حقيق الحصول فعند ذلك سالت دموعى التى كانت تأبى الانسجام لتفرج عن كربتى وأطفأت مايلتهب من خدودى المحترقة وهونت على كثيرا مما كان كامنا فى صدرى

ثم قمت وتمشيت رويدا رويدا على قدر امكانى الى القرية فوجدتها فى غاية السكون ورأيت دخانا يسيرا يخرج من بعض المنازل والمواشى الضالة ترعى فى ضواحيها والاجانب فوق خيولهم مشغولين فى تجهيزاتهم الخصوصية والفلاحين المساكين متشردين فرقا بدون انتظام مندهشين مما حاق بهم فجأة من الخراب المبين وغير مصدقين بالنجاة أما ماالحقنى من الخسارة كان سببا موجبا لانتظارى كل مصيبة أخرى من جهة الاقارب والعائلة حيث خطر بفكرى انى سأجد أقاربى قتلوا وان المنزل عمه الخراب وبذا يتأكد لى انى أصبحت وحيدا فريدا على وجه الارض لا زوجة لى ولا مأوى ولا والدين

فيرحانى ولا صديق فيسليني ثم تبين ان تصورى هذا فى غير محله لخروجه عن الحد لانى أول دخولى القرية قابلتنى والدتى المسكينة وعندما رأتنى تذكرت جميع ما حصل لها من الاتعاب والاهتمام فى بلوغ آمالى وتزويجى فرمت بنفسها علىّ واعتنقتنى والدمع يسيل من عينيها كالانهار فلما تناقص حزنها وهدأ روعها بعلا قاتى أخبرتنى ان والدى قاسى شديد التعب من ضربة أصابته فى رأسه وانجبر بعض عظامه واما باقى العائلة جميعها فهم بخير الا أن المنزل أصابه الضرر العظيم ونهب أغلب ما فيه من الامتعة وبالاخص غرفة العروس عدمت كلية وقالت ان الضابط الروسى كان أول من قتل حال هجوم العجم لانه وقت حصول السطو على غرفتى خرج ليكشف الخبر واذا باثنين من الاعجام قبضا عليه وبوقتها أحدهما أطاح رأسه عن جثته وهى تلك الرأس التى نظرتها يحملها العجمى وأنا فى غيبوبتى أمس ثم انها أخذتنى الى محل مستتر وسترتنى بما تيسر من الملابس أما الاعجام فبعد انتهائهم من اجراآتهم المفزعة وسلبهم ما أرادوا أخلوا القرية على حالها وتوجهوا الحال سبيلهم تاركين الى أهاليها عديمى الحظ تذكارا من المصائب والحزن وهو دفن ثلاثين جثة من الروسيين الذين وقعوا فى قبضتهم بعد تدبير مكيدة الهجوم وحملوا رؤسهم معهم دلالة على النصر فوق أسنة رماحهم وبعد عيادة والدى وسؤال خاطره واصلاح ما أمكننى فى المنزل عزمت على التوجه فى الحال فى اثر زوجتى لمعلوميتى ان أحد الاعداء الذين هجموا على قريتنا أخذها وتوجه بها الى قرية اريفان حيث به أقرب سوق تباع فيه الجوارى ولا شك ان أسرها لهذا القصد وقد وجدت أسلحتى وطبنجاتى وبندقيتى التى كانت معلقة فى غرفة عروسى بقصد الزينة مدفونة تحت الردم فاخرجتها وحملتها معى لحماية نفسى وأخذت بعض دراهم من الفضة فى كيسى وودعت قرية جومشلو ونذرت على نفسى أن لا اعود اليها ما لم أجد مريم زوجتى وأسرعت فى المسير بكل

نشاط وصرت أخترق مقاطع الجبال القريبة المؤدية الى اريفان وأنشدت

مابال مريم لا تأتى كعادتها * أعاجها طرب أو صدها شغل
لكن قلبى عنكم ليس يشغله * حتى الممات ومالى غيركم أمل
لو تعلمين الذى بى من فراقكم * لما اعتذرت ولا طابت لك العلل
نفسى فداؤك قد أحلت بى سقما * تكاد من حره الاعضاء تنفصل
لو ان ما بى من سقم على جبل * لزال وانهد من أركانه الجبل

(وبينما أنا) أعبر طريقا معتادا اذ قابلنى فارسان متسلحان كامل الآلات فاوقفانى وسألانى عن الجهة التى أطلبها والرسالة التى انا متوجه لاجلها فعند ذلك لم أتأخر فى اخبارهم بقصتى المنكودة رغبة فى كونهما ربما يدلانى على أمر فيه تنوير على محل اقامة زوجتى وقد كان فأجابانى عن محل وجودها وقالا انها وقعت فى يد رجل من ذوى السلطة النافذة وليس لها من ناصر لانها وان كانت عذراء فانها لا تنجو من مخالبه لانه رجل جبار منهمك فى اللذات محب للشهوات النفسانية لا يخشى لومة لائم فسألتهما ومن هو قالا السردار وقد تبين لى أنهما حرسه الخصوصى اذ كانا يكلمانى بالفاظ مرجفة جددت ما كان كامنا عندى من الفزع ولما انتهيا من حديثهما وأخبرانى بما عليه السردار قلت وهل دناءة النفس وحب الشهوات تصل لهذا الحد فانها لم يخلقها الله للسردار بمفرده كما يخطر بباله بل كل منا تكون له عونا وتسلية ورفيقة مدة حياتنا فضحكا على كلامى وأدخلا فى ذهنى انه اذا كانت الفتاة التى أبحث عنها هى التى عند السردار فان تعبى لا يفيد شيأ ونصحانى بالرجوع من حيث أتيت فلما سمعت كلامهما داخلنى الريب فى أمرى ولكن قصدت ان أقوى عزمى ولو أسقى كاس الممات وتركتهما وأسرعت فى سيرى معتمدا على الله سبحانه وتعالى وقلت ان الذى حملنى هذه المصائب الجمة لا بد وان يكافئنى يوما ما ومازلت كذلك حتى اقتربت من المعسكر المخيم فى أبيران فوجدت السردار مقيما بها ولتشوقى الى سماع

مابلغنى من الاخبار توجهت جهة المعسكر فاذا به هيجان عظيم لوصول فرقة الاعجام الذين هجموا على قريتنا وهم يقدمون البراهين والادلة على نجاح مشروعهم باظهار رؤس الروسيين التى أحضروها وكوموها أكواما امام خيمة الرئيس حتى لو رآها الانسان يظن انهم اغتموا أمر امهما انتصروا فيه نصرة عظيمة وهذه هى المسئلة التى كانوا فرحين لاجلها ويفتخرون بها ثم انهم ملؤها وارسلوها بموكب حافل الى الشاه حيث انه لا يصدق بحصول النصر على العدو فى احد المواقع مالم ير بعينه هذه البراهين الواضحة

وبينما هم يتبادلون المسرة بهذه النصرة اذ أتاهم رسول مسرعا فى سيره من الحدود الروسية وأخبرهم بما كان سببا لانقلاب حالتهم حيث قال ان الجيش الروسى لما بلغه هجومهم على نقطة مقدمتهم التى فى جومشلو جهز نفسه للحمل على السردار وانه سائر بغاية السرعة وقد قيل انه ينتظر الهجوم عليه قبل دخول الليل وحينئذ تبين من الهيئة التى ستحدث تكذيب ما سبق من الوصف وهو انه أمر المعسكر بفض الخيام والتقهقر وفى أقرب وقت حلوا الخيام وحملوا البغال وصار العسكر ينادون بعضهم ويجهزون الخيول والجمال والمدافع ولم يمض ساعتان حتى اخترق جميع الجيش سائرا الى أريفان وكنت الى هذا الوقت لم أسمع خبرا عن مريم التائهة وأكدت فى نفسى انها اذا كانت فى حيازة السردار لا بد وان تكون موجودة فى سرايته التى فى أريفان فتوجهت صحبة الجيش لتلك المدينة لعلى فى أثناء هذه الضجة يحصل لى الفائدة فى وقوفى على خبرها فلما وصلت اليها وقفت فوق قنطرة نهر زنجى ومنه تمكنت تماما من رؤية سراية السردار الموجودة بهناك وفى اثناء عبور العسكر من فوقه صفوفا منتظمة سرت معهم بصفة تابع لاحد من العسكر بدون أن يشعر بى أحد فوجدتها مشيدة على حافة صخرة سوداء هائلة بجانب نهر زنجى والقنطرة التى عليه

ذات ثلاث قبوات موصلة الى الطريق المستقيم المؤدى الى جورجيا وبلاد الترك ثم اننى طلعت على بعد فنظرت شبابيك بلوكات النساء ممتازة بالترابيس وبعض اختراعات أخرى منعا للغير ومع ذلك وجدت انها غير مأمونة جيدا الآن ينظرون المارين فوق القنطرة جيدا وبذا تصورت انه اذا كانت مريم مأسورة بها فانها لا بد وان تصادفنى بنظرة فوق الكوبرى ثم قلت فى ضميرى وان لم تكن بها فما العمل وقد يئست حتى أيضا لو نظرتنى فما يزيدها الا عذابا ولا يزيدنى الا بأسا لان الظاهر لى ان هروبها من هذه الجهة العالية يستحيل ولو رمت نفسها فلا تقع الا ميتة ولم يوجد الا شجرة صفصاف نابتة من الصخرة تحت أحد الشبابيك وبعد ان مكثت مدة فى هذا المكان وأنا مرتبك بالافكار خشيت أن يرانى أحد فتركته موقتا عازما على العودة اليه آخر النهار لا بل وكل ساعة عند الامكان بدون ارتياب أو خوف

ومازلت على هذه الحالة وأنا أتردد تحت شبابيك السراية أكثر من اسبوعين وكل يوم أطلع وأنزل من الكبرى ثلاث مرات حتى صادفتنى العناية فى احد الايام عند غروب الشمس فلمحت الشباك الذى فوق الشجرة فتح وفتاة تنظر منه فصرت أتطلع اليها وأنا ملهوف ولم أحول نظرى عنها لعلى أجدها مريم فظهر لى انها عرفتنى وأشرت اليها بيدى وبالمثل هى أيضا مدت يديها تشير لى يخبرنى لسان حالها بالطيران نحوى فصرت أكذب نظرى تارة وأصدقه أخرى وأقول ياهل ترى هى مريم لاشك انها هى بذاتها هى هى مريم زوجتى ثم نزلت أسرع من البرق بدون تدبر فى العواقب فى النهر وعبرته حتى وصلت الى الصخرة ووقفت تحت شباك زوجتى المحبوبة فلما رأتنى مدت يديها مرارا كأنها تريد أن تلقى نفسها من الشباك فارتجف فؤادى وكادت تنفتت أكبادى وأحاطت بى الافكار المزعجة لعزمها على القاء نفسها ووقفنا ننظر بعضنا ونحن صاغرون لا يكلم أحدنا الآخر وقام بنا الشوق الشديد وخشينا أن نتكلم واستمر بنا بهذه الحالة وأخيرا اقفلت

رواجع الشبالك وتركتنى ولاأدرى ماالسبب وأناواقف بمفردى ممزوجا بالاوهام المخيفة ومازلت كذلك واذابالرواجع فتحت بفجأة وأبانت نفسها وهى تنظر الى بنظرة تخبر عن شدة ولوعها وشوقها وقد يشق على بيان ماكان من أمرها اذ أنها بعد ان فتحت الرواجع صارت تميل للامام وتضطجع للخلف وتتقدم وتتأخر ومادرى الاورأيت شكلها اللطيف على حين غفلة مقذوفا بقوة فى الهواء ساقطا فوقى من هذا العلو الشاهق فتخلخلت ركبتى واظلمت عينى وكدت ان يغمى على لولا انى رأيتها فى نصف المسافة متعلقة فى احد فروع شجرة الصفصاف ففى الحال وانا اسرع من البرق طلعت الشجرة واحتضنتها بين ذراعى وقد وجدت بى قوة لم كنت اعهدها حتى تهيألى انه يمكننى أن اصل الارض واعبرالنهر واهرب بهذا الحمل الثمين من الضواحى المسكونه فى مسافه لاتزيد عن ثانية وكنت وقتها مخبول العقل لاادرى ماافعل من شدة فرحى ونجيت بها ثم أجلستها خلف سور خرب بقصد الراحة وحمدت الله الذى خلصنى من هذه الورطة كل هذا وهى لاتشعر بنفسها حتى ظننت انها ماتت ولما مكثنا للراحة وفاقت فتحت عينيها وعرفتنى وخاطبتنى باسمى فاعتنقتها فى صدرى من شدة سرورى وكانت فى اشد التعب وظننت ان عظامها جبرت ولكن لله الحمد لم يجبر من عظامها شئ انما حال سقوطها اصيبت بجروح كثيرة من فروع الشجرة وسال منها الدم بكثرة فصرت امسحه لها حتى فاقت من الاول فضممتها ثانيا الى صدرى ممابى من الشوق نحوها وسرت بها للامام عازما على استمرار المسير دفعة واحدة الى الجبال ولكن لما رأيت انه ضرورى من عبور نهر اشتارك ولا يتم ذلك الا بالمرور من فوق لكونى حاملها بين اذرعى ولا يمكننى اعوم بها فقصدتها وبينما نحن نرتاح بجانبها استشعرت بخطوات خيولكم نخطر ببالى انكم حاضرون من طرف السردار للبحث عنا فالتجأت فى الكنيسة الخربة التى رايتنا فيها فهل بعد هذا كله يلزمنى بان اتمنى منك اطلاق سبيلنا حتى نصل لمنزلنا سالمين

وكفالك مناماتقربه قلوبنا من الممنونية والشكر الزائد الذى لا يحصى بمالك من الجميل الذى لاينسى ومابنالك من دعوات أهل قريتنا المتلهفين علينا بما تفرج عنهم ماهم فيه من الحزن والكرب وتسرهم بنا والذى أراه فيك مهماكانت حالتك ورسالتك المأموربها انك من أهل المروءة والاحسان وماتعمله معنامن المعروف فالله القدير يضاعفه لك ألفا من المرار نعم وان كنا لسنامن ديانتك وجنسك ولكن مانحفظه من الادعية والصلوات لابدان الله يقبلها عند التضرع بها فى مثل هذه الحاجات بخلاف مايكون لك من الفضل علينا الى الممات جعلك الله لكل ملجأ ومحتاج ونجيت من الشرور والآفات

﴿الفصل الثامن والثلاثون﴾

نبذة من التاريخ المتقدم وعزم الحاج بابا على نتيجة مايجريه فى هذا الخصوص

(قال الحاج بابا) ومالنتهى الشاب الارمنى من قصته وتركنى الاوملئت تعجبا واندهاشا من جميع حديثه ثم استاذن بالانصراف لزيارة زوجته ووعد برجوعه حالا ليخبرنى بحالتها الحاضرة وما الذى تستشعر به بعد راحتها هذه المدة ثم قلت لنفسى بعد انصرافه ان ماحدث به يوسف فهو حقيق اذ انه لا يتجاسر على اختراع الاكاذيب أمامى هذه المسافة لاسيما والفتاة موجودة والدم يسيل منها ظاهر للعيان وهو ممايحقق صحة جميع ماتقدم ولكن لو أسمح له باطلاق سبيله وعلم بعد ذلك السردار بامره وما أجريته نحوه فما الذى يفعله بى فلاشك من طردى من وظيفتى ولربما يعاقبنى أيضا بقطع أذنى فلا أستحق أن أكون سياقابل الاحسن التجلد والثبات وعدم الميل للشفقة والشهوات وأتبع بعض ماقاله لقمان من النصائح حيث قال مايضاهى هذا المعنى اذا كنت نمرا فكن ثابتاشهما لاتقلقك الحوادث ولاتغيرك

الكوارث وبذلك الحيوانات اليك تنقاد وتعلم انك لها ركن متين للاعتماد وأما اذا تسترت بعثر النمر ثم أظهرت أذنيك الطوال من تحت الستر فتعاملك تلك الحيوانات بالاحتقار والهوان أكثر من معاملتها لك وأنت ظاهر الآذان

وعلى ذلك صرت أجوب موارد الافكار وأغوص مافيها من عميق البحار وأراجع نفسي في خلاصه من عدمه وبينما أنا أتردد في أمري وقد حار فكري بين الحمار والنمر اذ حضر يوسف وأخبرني ان زوجته مريم تقدمت تقدما زائدا وانتعش فؤادها مما هي فيه من الراحة الا انها ضعيفة من قلة الدم وخدرة من شدة ما أصابها من الرضوض في جسمها وبالاخص الجبر الذي حصل لها في ساقها فانه يمنعها التحرك جملة أيام الا اذا اقتفى أثرنا السردار فلا يمنعنا وقتئذ عن المسير بل نسير بالقوة الجبرية ثم قال وانها وان كانت لهذا الوقت لم تجد قوة كافية في نفسها لتقص جميع ما حصل لها من المخاطرات من عهد ما تركتني في قرية جومشلو الا انه يظهر من بعض ما حدثتني به انها لما وثبت خارجة من غرفة الزفاف قبض عليها العجمي ولما ان رآها بواسطة لمعان نور البرق انها فتاة صغيرة وجميلة أخذها وجرى بها مسافة ثم أوقفها وأركبها خلفه فوق جواده جبرا عنها بمساعدة أحد رفقائه وسار بها الى العسكر الموجود في أبيران وعرضها للبيع الى السردار وبعد ان قبل مشتراها أمر بارسالها الى سرايته الكائنة في أريفان وفيها سلموها الاشغال التي يجب عليها خدمتها ومع صعوبة هذه الخدمة وما أصابها من الرعب والخوف حصل لها هزال في جسمها وتغير شكلها حتى انها تأملت انها اذا ظهرت امام السردار بحالتها الكئيبة وصورتها الشنيعة ورأى ما بها من الضعف والنحول يتركها ولا يسأل عنها وفرحت لذلك خصوصا لما بلغها ماهو عليه من الخصال الذميمة وقساوته الزائدة في اعدام الكثير من المساكين حبا لمآربه الذاتية

ثم أومأت الى نفسها وقالت اني وان كنت دواما أعلل آمالي باني امرأة متزوجة مع علمي بانه سيكون لي المقام الاسمى في منزل المسلم زيادة عن خلافه الا اني لم أمل من تكرار اسم زوجي ووضع صورته نصب عيني ولسان حالي يقول

يا يوسف الحسن تمثيلا وتشبيها * يا طلعة ليس الا البدر يحكيها
من شك في الحور فلينظر اليك فما * صيغت معانيك الا من معانيها
ماللبدور وللتحريف يا أملي * نور البدور عن التحريف يغنيها
ان الدنانير لا تجلى وان عتقت * ولا تزاد على النقش الذي فيها

واستمريت قليلا على هذه الحالة بدون ان يطلع أحد على سري المكنون وأنا أؤدي ما فرض علي من الخدامات الثقيلة التي أثقلتها على عاتق الجواري الاخر ولكن من سوء بختي قد أبحت بسري الى امرأة عجمية ادعت محبتها الي ورجوت انها بذلك تحن الي وتساعدني في اطلاق حريتي فاصدقت أن اطلعت على مكنوناتي حتى اتضح لي خيانتها بالقاء جميع ما قلته اليها الى السردار فدعاني اليه ليثبت ذلك باقراري بلساني بعد ان هددني وبذا التزمت الاقرار اليه واظهار عدم تبصري في المسألة فاعلن عزمه عند ذلك بالاختلاء بي واغتنام الفائدة المقصودة مني وأمرني بالاستعداد لاستقباله في غرفتي

ثم قالت فتصور يا يوسف ما كان حينئذ من حالتي المرعبة ومخاطراتي المفزعة فاني لما سمعت كلام السردار بما سبق من الكلام ووليت مدبرة صار الضياء في وجهي ظلام وقلت حاشاه ان ينال مني المرام ولو أشرب كأس الحمام ولا أنقض عهد زوجي الفقير مهما بلغ السردار من الغنى والتدبير فان أمر بتعذيبي أو هلاكي أولى لي من كشف ستري وافتناكي كيف ذلك يكون ويغتصبني هذا الخؤون فاني راضية أن أعيش مع يوسف بالنذر اليسير ولا أقبل السردار وان يفي لي بالمال الكثير أو يهب

الىّ من الحلى والجواهر والحرير ماتعجز عنه الملوك والواصف التحرير كيف أكون خائنة وامرأة مائنة لا والله حاشانى حاشانى فنومى على الحصير خير من نوم الحرير كل ذلك وأنا باكية العين يسيل الدمع دما على الخدين حتى دخلت غرفتى وأنا أتدبر فى أمر الفرار متضرعة الى الكريم الستار أن يسدل علىّ الاستار ويعمى عنى بصيرة السردار حتى أقف لى على حال وعلى ذلك صرت أقلب مافى البال فلم أجد لى منفذا سوى الله منقذا وكنت قبل ذلك لم أنظر الى الهاوية التى تحت شباك سجنى المفتوح فنظرت اليها فقلت بشرى الآن جاءنى الفرج والفتوح وصممت على وقوعى فى الهلاك وتحملى لوعات الممات أولى من تسليم نفسى لهذا الظالم وقد رأيت بثار المنون ألذ لى من الشهد وطرب الغصون فى حفظ النفس والشرف والتمسك بعهد يوسف فقلت كيف لا أموت قياما بالعهود وأشرب فيه كأسا أحلى لى من ملك عاد وثمود وعملت بقول من قال

أنا الغريق فما خوفى من البلل ولكن بعد ان رأيتك ببضع ساعات على القنطرة وقد تباشرت برؤياك وبطلعتك المتلألئة أرسل لى السردار أمرا باستعدادى لاستقباله فى هذا اليوم

وكنت فتحت الشباك بقصد أن ألقى نفسى منه وأنا واقفة وقلت ربما صحت الاجسام بالعلل فاما ان أنجو وأرافقك والا أموت فاستريح وبينما أنا على هذا العزم اذ دخلت عندى جملة من النساء يردن أخذى الى الحمام للاستحمام بالساخن من الماء وتجميلى باحسن الملبوس فقلت ياله من يوم عبوس مشؤم كله بوس فلما رأيتهن أسرعت بقفل الدرف واعتذرت اليهن بامهالى مدة لقضاء مصلحة فلما خرجن من الغرفة فتحت بوقتها الدرفة وتوكلت على الله ورميت نفسى كما رأيتنى وهذه قصتى

قال الضابط السياف) وهو الحاج بابالم يتم يوسف حديثه من رحلته ورحلة زوجته الا وهو متلهف للوقوف على ما يكون من رأيى وترجانى بغاية

الانكسار والخشوع بالتكرم عليه بما استصوبه من مصالحه ومساعدته وكان اذ ذاك مضى معظم النهار واستعدت عساكرى للركوب للقيام الى تجريدتنا الاستكشافية وبينما هم كذلك وقد جهزوا جوادى للركوب وأنا أردد نفسى فى أمره اذ طرأ بفكرى أمر فاصل لهذا المشكل الصعب من جهة الارمنى وزوجته فناديته امامى وقلت له

يايوسف اعرض عما تريد اذ يستحيل بعد الذى حدثتنى به اطلاق سبيلك فانك من تلقاء نفسك اختطفت جارية من سراى السردار ونجيت بها طالبا الفرار ولم تعلم انك بذلك اقترفت ذنبا من أكبر الذنوب يحتمل عدم معرفتك بجزائه فى بلاد المسلمين فكل من فعل ذلك فعقابه الموت بالنسبة لما احرمنا من الشرف والصيانة ولهذا اذا أردت أن أحكم بالعدل فالواجب علىّ بعد وقوفى على خبركما ان أرسلكما بدون أدنى تأخير الى أربقان لتذوقا فيها أنواع الهوان ولكن لا أريد ذلك بشرط ان ترافقنا فى تجريدتنا وتبذل جهدك فى مساعدتنا بصفة دليل فى تلك الجهات اذ انك أعلم بها منا

ثم أعلمته بوظيفتى وبموضوع تجريدتى وقلت له اذا أخذتك الغيرة فى أمرنا وسلكت بالصداقة وبذلت الطاقة حتى تجعل لك اسما يوجب لك المكافأة فانى لا أفتر عن اخبار السردار بما أتيت به من الاتعابات والخدامات الصادقة وبمشيئة الله أتحصل لك على الخلاص والذى أراه الآن تركك زوجتك طرف أهل هذه القرية لما جبلوا عليه من الشفقة والميل اليها حتى عند عودتنا بعد مدة يسيرة تجدها بفضل الله فى غاية من الصحة

فلما سمع الفتى كلامى أخذ بيدى وقبلها ورضى بجميع ماقلته واستعد للرحيل صحبتنا وقد أذنت له بالتوجه الى زوجته واخبارها بهذا الاتفاق ومراضاة خاطرها وأن يؤكد لها انهما سيجتمعان ببعضهما فى أقرب وقت فشكرنى ثانيا لذلك وفعل ما أمرته به ولما أخذنا فى المسير قام أسرع من الغزال وطلع فوق قمة أول تل من قبل أن نبتدئ فى الصعود اليه

﴿الفصل التاسع والثلاثون﴾

﴿الكلام على ما ظهره يوسف الارمنى من الصداقة﴾
﴿والميل الى الحاج بابا﴾

(قال الحاج بابا) ثم اننا سرنا جهة حدود جورجيا فى مسالك الجبال الغير معتادة بمساعدة يوسف اذ ظهر لنا انه خبير بجميع المنافذ والطرق وحدودها حتى تعجبنا من فطانته والذى زاد عجبى عدم رغبته وتشوقه لزيارة قريته وقد سألته عن الاسباب فاكدلى بجزمه عدم دخولها ولو فرض وأذنت له بذلك لارتباطه بالقسم الذى أقسمه على نفسه عند خروجه منها انه لا يعود اليها مالم يكن مصحوبا بزوجته

أما ما نقل من الاخبار السابقة الى السردار عن تقدم جيش الموسكو فوجدت عارية عن الصحة حيث وجدناهم راسين على شواطئ نهر عمبا كى ومحتلين قرية هممالو ووضعوا استحكاماتهم فى قره كليسه لوقاية أنفسهم وكنا اذذاك قريبين من تلك الجهة فلما وصلناها مالت نفسى للوقوف بالدقة على خبرهم ومعرفة مقدار عددهم وحالاتهم وبينما أنا أتدبر فى الطريقة للحصول على ذلك وأتفكر فى أمر خلاص الفتى الارمنى الذى تحت حمايتى طرأ بى أمر اما ان يكون سببا فى خلاصه أو اعدامه ولم أجد أحسن منه رأيا وهو انى أرسله الى قرية هممالو ليكشف لى هذا الخبر وقلت اذا عاد وأخبرنى بالمرغوب فلا بد من الحصول على العفو اليه والى زوجته وأما اذا سلك مسالك الخيانة ولم يعد فانى أتخلص منه وأطلب مكافأة من السردار على ارتداد جاريته الآبقة فلما ناديته وأعلمته بالامر الذى نيط اليه لم ير مانعا لتأديته هذه المأمورية وكان قبوله مقرونا بالفرح والممنونية وأعد نفسه وشمر أذياله فى منطقته وأمال طربوشه على جبهته وطرح بندقيته فوق ظهره ووثب مسرعا لنزوله من الجبل فلم تكن الا طرفة عين حتى غاب عن

النظر

النظر بين الاخشاب والحشائش المنحدرة فعند ذلك قال الشاب دلى خان (رفت كه رفت) آهو راح راح فلم نعد نراه ثانيا فقلت وما الداعى لعدم عودته ألم يكن عنده نار هينة فانه وان كان أرمنيا لكنه لا يترك زوجته فاجاب نعم ولو انه أرمنى الا انه عيسوى أيضا وبالمثل الروسيون على دين النصرانية وانى أراهن على حصانى هذا بانه لو فرض وكان نفسه سيدنا يوسف الطاهر العفوف وكانت زوجته السيدة زليخا بشخصها فاننا لا نعود نراه ثانيا فاجابه رجل شديد البأس قائلا ايها الشاب الصغير لا تستعمل مثل هذا الكذب امامنا ونحن قد احترقت وجوهنا من الشمس وابيضت لحانا وحواجبنا وما يكفيك الان تأكل الخراء وتقل الحياء مع ان الحصان من خيول الشاه فكيف تدعى الرهان عليه ولكن قد دل على طبعك اسمك فقال الشاب ما للشاه فهو لى وما خصص الى فهو ملكى

هذا ولما رأيت ممن معى ما هم فيه من الجدال والهذيان وكنت أتروى فى مكان نستريح فيه فبعد ان أسكتناهم لمحنا على بعد قطعة أرض مخضرة جميعها مملوءة بالحشائش فعمدنا اليها وترجلنا عن خيولنا وتفرق كل منا الى جهة وتركنا الخيول بين الحشايش ترعى على رغبتها وقد أعلمتهم بالمبيت فى هذا المكان ان لم يحضر يوسف قبل هجوم الظلام واحتياطا لذلك أمرت فارسين من أقوياء عساكرنا بالجوب فى الخلاء لاحضار ما يجدونه من شياه وطيور أو خلافه بقصد العشاء فى هذا المساء فمضيا وعادا بعد ساعة ومعهما نعجة اختطفاها من قطيع كان يرعى بقرب النهر فذبحت فى الحال وأعدوا المعدات اللازمة لشيها وأدخلوا فيها سيخا من الخشب وأتوا بالحطب وأوقدوه ونصبوا كانونا لوضع النعجة فوقه وبعد ان أجروا اللازم فى كيفية شيها قدموها بسيخها امامهم ونزلوا عليها كأنهم لم يأكلوا شيئا من مدة وبنوع الامتياز قدموا الى ذيلها مشكوكا فى سيخ وبعض قطع من اللحم السمين بصفة صيب لى فاكلنا جميعا وحمدنا الله وكان الليل أقبل فتهيأنا للنوم وجعلت

فارسين منهم للخفر علينا وعلى الخيل
فلما كانت الساعة واحدة بعد نصف الليل والقمر آخذ فى النزول سمعنا صياحا على بعد و بعد برهة تكرر ثانيا فقمنا واستعدينا ومازال يتكرر حتى اقترب منا فلم نشك فى أن هذا صوت يوسف الارمنى فاجبناه ولم يمر زمان طويل الا وظهر امامنا وقد أضر به التعب مما قاساه ولكن مع هذا وجد فى نفسه قوة ليقص علينا مالاقاه من الاخطار بعد قيامه من طرفنا فقال انه بوصوله الى قرية هملو عرفه أحد العساكر الذى كان ضمن الفرقة الروسية فى قريته وهرب منها ليلة هجوم الاعجام عليها فاخذه وأكرمه وأطلعه الى الاستحكام وقدمه الى القائد الاكبر فساله عن أسباب هذه الزيارة فلم يجبه من شرهم الا كونه احتج بخروجه بعد تلك الوقعة للبحث على زوجته وكان هذا جوابا كافيا لمنع الشبهة فى أمره بخلاف ما أخبره به من تخريب قريته وهلاك عائلته ونهب أمتعته وبالاختصار فان خبرته ومعرفته بهذه الجهات والمواقع كانت سببا لنجاته من هذه الورطة ثم أذن له القائد بالتفسح داخل القلعة فصار يتمشى ويتفرج عليها وهو فى باطن الامر يتجسس عن حالتهم ومقاصدهم وكمية عددهم ولم يترك سؤالا حتى اجيب وأجاب عنه وكل ذلك كان بحكمته وتدبيره وتبصره بدون أن يظهر أدنى اهمية أو احتياج لاسئلته وبذلك وقف على جميع نواياهم ومخباتهم المستقبلة ولما أراد الهروب منهم قبل قفل بوابات الاستحكام اجتهد فى خروجه منها بدون أن يراه أحد حتى تملك الجبال وحضر الينا بدون أن يعيقه عائق
فلما تحقق لى ما عليه يوسف من المحبة نحوى والارتكان الى صداقته لوقوفى على جميع ما طلبته منه وأيقنت صدق مقالته أجلسته ليستريح ويأكل ثم أمرت العساكر بان يكونوا على أهبة الاستعداد للعودة الى أريفان اذ لا حاجة لزيادة الاستكشاف بعدما أحضره يوسف من حقيقة الاخبار وقد صرحت اليه بالركوب خلف اى فارس عند استشعاره بالتعب

وعلى ذلك سرنا نخترق مسالك الجبال القريبة العبور الى ان وصلنا قرية اشتارك فوقفنا بالقرب منها لاخذ راحتنا وراحة خيولنا وبالاخص لنقف على حركات واجرا آت السردار ورئيس السيافة وأذنت الفتى بالتوجه لعيادة زوجته فتوجه وعاد ووجهه يتلالأ بالفرح حيث وجدها شفيت تماما من جميع الآلام والرضوض وانها فى غاية من التشكرات الزائدة لحصول الكرم والمراعاة اليها وحسن المعاملة التى عاملوها بها مدة مرضها ثم وفى هذا الوقت وجدنا السردار ورئيس السيافة انتقلوا من أريفان وعسكروا بجوار دير البطريرك الارمنى فعمدناهما وبصحبتنا يوسف لعله أن يكون له من الخلاص نصيب

﴿الفصل الاربعون﴾

﴿فى ايضاحات الحاج بابا عن اجرا آته الى رؤسائه واظهار نفسه مغيثا للمكروب وطلب العفو اليه﴾

(قال الحاج بابا) وهذا الدير يسمى باللسان الارمنى دير ايتشميازن والعجم والترك يسمونه (أوج كليسا) أى الثلاثة كنائس وكان مشيدا فى وسط سهل متسع جميعه منزرع يسقى بماء من نهر أراكس وجملة جداول أخرى صغيرة وكائن بجانب جبل اكرى طاغ العالى وقد أخبرنا يوسف أن النصارى خصوصا الارمن يحترمونه جدا نظرا لرسيان فلك نوح فوق قمته الشهيرة المغطاة بالثلج
وقد اشتهر هذا الدير والكنيسة فى عموم آسيا بالنسبة لاحتوائهما على الامتعة والزينة الثمينة ومحصنين بالاسوار العالية والابواب القوية الهائلة العظيمة ويسكن هذا الدير دواما رئيس كنيسة الارمن ومعه أعوان من الاساقفة والكهنة والشمامسة ومنهم ينتخب القسس الى أغلب كنائس الارمن التى فى آسيا وكان هذا الرئيس مشهورا عند العجم باسم خليفة وهو

لقب الشرف الذى كان يلقب به المسلمون من يتولى عليهم فى بغداد وخلافها وأما النصارى فيلقبونه بالبطريرك وكانت كنيسته مقر الحجاج الارمن اذ يجتمع هنالك فى فصول مخصوصة المبالغ العديدة من جميع أقطار الارض

فثنينا العنان الى ذلك المكان فرأينا عساكر السردار ورئيس السيافة ضاربين خيامهم البيضاء بهيئة غير منتظمة حول الدير وقبل الوصول لاسواره سمعنا ان الرئيسين مقيمان داخله فى ضيافة الخليفة وبوصولنا الدير ناديت يوسف وأخبرته بالاستعداد حالا لما يدعى لاثبات أى قسم يلزمه التصديق عليه لجانب منفعته وأكدت عليه أن لا يحول عن الحق ويجيب عن كافة ما يسئل عنه من جهة العدو بحالة يقبلها العقل وما يكون مفيدا للسردار وحكومة الشاه وانه اذا فعل ذلك وانحسم هذا المشكل الصعب فليحتشم بارتداد زوجته اليه وبعد الاتفاق على ذلك مررنا من تحت القبوة المؤدية الى حوش الدير الاول فوجدناه مملوأ بالمهمات وخدم السردار ورئيس السيافة وبه أوتاد ممتد فوقه من كل جانب وبها احبال مربوطة فيها الخيول وسياسها قاعدون فى زواياه ومعهم السروج وعدد الخيول ومنه زاوية مملوءة بالبغال الممتازة بالاجراس وبجانبها المكارية وأما الحوش الثانى فكان به خيول السردار ورئيس السيافة مربوطة فى محلات محيطة بها فترجلنا عن خيولنا فى الحوش الاول وبوقتها سألت عن الجهة الجالس فيها رئيس السيافة فاخبرت بانه مع السردار لكون هذا الوقت وقت الظهر

وفى الحال أرشدت امامهما وأنا معفر بعداس وملابس السفر الوسخة ورى انهما استحوذا على المعبد الارمنى وعزلا الخليفة من محله وسلطته بالنسبة لاقامتهما فى نفس غرفاته أما القسس فأووا الى بعض الغرف مظهرين الخضوع والخشوع يمشون خافضين الرؤس خوفا وخجلا لكونهم أصحاب

المحل وبالمثل فكانت خيول رؤساء العجم مربوطة بجوار أسوار الكنيسة يراعونها بغاية الالتفات زيادة عن مراعاة الارمن

وحيث علم القارئ شخص وخصال رئيس السيافة السابق ذكرها فلذلك قبل الشروع فى الكلام يجب ان احيطه علما باوصاف السردار أيضا اذ انه ذو منظر لم ير أشنع وارد أمنه على وجه الارض أما عيناه فى الهيئة الظاهر يه فثل قطع الزجاج المظلمة واذا فتحهما وشخص بهما لا احد يرتعد منهما لبروزهما بحالة مرعبة من حجاجهما ثم بعد فتحهما يتبسم فيتصف وجهه حينئذ بصفة الجات شاعر الملك عندما يرى هذه الصفة يهجوه بقوله ان وجه حسن خان عند تبسمه يشبه طاغا كرى وهو الجبل المقيم بقربه اذ عند تراكم السحاب فوق قمته وضياء الشمس فى السهل يتلوه ذلك عاصفة فكذلك حالة السردار عند تبسمه يكون بهذه الصفة

ومن تمادى الزمن عليه حصل له تكرش شديد تحت خديه خال من الشعر لقلته فى عارضيه وقد سعى زمنا طويلا وتحمل مشاقا عظيمة لمنع هذا التكرش وتغطيته بالشعر فلم ينجع معه دوا بخلاف ما حصل له من الاهانة والذل بالعدو وخلع جميع أسنانه ما عدا واحدة بارزة من فيه تكون منها جملة نقر مغطاة بالشعر اليسير كهيئة التبن المحروق المطروح فوق منحدرات الوديان وعلى أى حال فان شكله لا يرى عليه صورة آدمى بل منظر الحيوان أبهى منه شكلا أما خصاله فمطابقة لاوصافه اذ لو تحركت شهوته وقام به الجنون فانه لا يطاق لعدم ارتباطه بحدود أو شريعة لشدة ظلمه وقساوته وقد تعودت اتباعه على أغلب خصاله ومع ما ذكر فانه كان رجلا ماهرا سياسيا ذا همة زائدة فى أشغاله ميالا لما يعود بالنفع على حكومة الشاه ولهذا كان محبوبا ومعتبرا عنده على انه كان سخيا جوادا فى أرغد معيشة ومشهورا بشدة الكرم والبشاشة وحسن السيرة وأعظم أصحابه هم الذين كانوا يتحدون معه فى الفسق والفجور وقد اشتهر بانه أول

سكير في بلاد العجم ولم يقارنه في الشرب سوى رفيقه السياف الجالس معه الآن ومع كثرة تعاطيه وادمانه في السكر فلم يغب عقله ولم يتأخر عن شغله ثم اني دخلت عليهما وخلفي اثنان أو ثلاثة من أكبر اتباعي واستمريت واقفا في آخر الصالة حتى دعاني رئيس السيافة وقال أهلا بالحاجي بحياتي تخبرني عدد الذين قتلتهم من الروسيين وهل أتيت برأس فلا نظر فعند ذلك عارضه السردار في كلامه وقال لي مجدا اما الذي أجريته ومامقدار الروسيين الموجودين على الحدود ومتى يتيسر لنا الهجوم عليهم فاجبته عن جميع أسئلته بعد تأدية المقدمة اللازمة قائلا نعم أيها الاغاوات لقد أجريت جميع ما يمكنني اجراؤه من البحث والتدقيق حيث الساعة التي قمنا فيها كانت أسعد الاوقات اذ تمكنت من الوقوف على كل أمر تريدون معرفته وما ذلك الا دليل ظاهر على ازدياد طالع السردار ورئيسي نظر الوجود شخص حقير ذليل مثلي يكون ذا منفعة اليهما فلما سمع كلامي السردار التفت الى رئيسي ونظر اليه بعينيه متبسما في وجهه وقال لقد صدقت لان حسن الطالع مما يسر ولا يضر ولكن اعتمادنا بالاكثر هو على سيوفنا فاجابه رفيقه نعم نعم حقا فان سيوفنا وبارودنا وحرابنا وطبنجاتنا تناهي المنجمون وبالله من وقت سعيد فيه أقطع رأس كافر فاني أنا قزلباشي (أبو رأس حمرا) لا أبالي بشيء ولا أطلب شيأ خلاف جواد جيد وسيف ماض وحربة في يدي وميدان متسع امامي مملوء بجيش عرمرم من المسكوب وبعد هادعني وشأني فقال له السردار وما قولك في نبيذ جيد فعلى ظني انه أحسن مما ذكرته جميعا فلندعوا الخليفة ويأتينا بكأس الى الحاج بابا ثم التفت جهتي وقال لكن اخبرنا أولا ما الذي رأيته وفعلته وفي أي جهة الروسيون مخيمون وكم مقدار الموجود هنالك وهل بطرفهم مدافع ومن هو القائد عليهم وأين القوزاق وهل سمعت شيأ عن الجورجانيين وفي أي جهة القائد الروسي العمومي وأين الخائن اسمعيل خان فاقترب وأخبرنا عن جميع ذلك وأنت

باميرزا (يشير الى كاتبه) اكتب جميع ما يقوله فلما سمعت هذا الكلام نهضت قائما على الاقدام وأزلت عن وجهي قناع الخوف والخجل وسترته بالبسالة والاقدام وقلت دمت في عز ونصر أيها القائد والرئيس المقدام فاني أقسم بحياة السردار وبملح رئيسنا الهمام أن الموسكوف شرذمة لا تذكر وفضل الاعجام لا ينكر فانها مريبة الانقلاب وهي بجانب الاعجام بصفة الكلاب فليس بعد نظري مخبر اذ ثبت في ذهني ان العجمي الواحد بسيفه يقتل عشرة من أولئك الاشقياء عديمي اللحى

فاجابني رئيسي وقد سر من مقالتي سرورا تاما وقال انك أسد ضرغام وبطل همام وقد تأملت فيك الخير من أول ما رأيتك وانك ستكون لنا ذا أهمية وفائدة فيحق علينا شكرك أيها البطل الاصبهاني والفارس الايراني فقل ما عندك من الحوادث والاخبار لينشرح بها صدر السردار

(قلت) أما عساكر المسكوف التي على الحدود فهي قليلة يبلغ عددها من خمسمائة الى ثمانمائة عسكري ولربما يكونون ألفا أو ألفين ولكن المحقق عندي انهم لا يزيدون عن ثلاثة آلاف عسكري بالاكثر وأما مدافعهم فمن عشرة الى ثلاثين ومن جهة فرسانهم فلا يذكرون ولا يعبأ بهم فان تفرقهم في النقط وهم حاملون حرابهم التي تشبه مناخس الثيران كالعدم فما أكثرهم وأقل شجاعتهم وأما خيولهم فلا تضاهي خيولنا مطلقا اذ الواحد منها لا تزيد قيمته بالاكثر عن الخمسين تومانا ولو اصطففنا للسباق لغابت خيولنا عن النظر من قبل أن تقفز خيولهم ثم قال رئيس السيافة وما الداعي لتعب نفسك في وصف خيولهم وفوارسهم يا حاجي هلا قلت دفعة واحدة انهم قرود يركبون دببا أولى لك من بحة صوتك ومن هو القائد على هؤلاء الكفرة قال يسمونه دلي ماير أو الماجور المجنون وسموه بهذا الاسم لعدم ارادته بالهروب مطلقا من امام العدو وقد قيل عنه جملة حكايات لهذا السبب حتى انه أخذ من سعادة السردار مصحف القرآن الشريف ووضعه في جيبه وكلما يرى

انسانا نريه اياه علامة على النصر

قال السردار حقا ما ذكرت فلقد خانوني وأغاروا على هؤلاء الكلاب العرايا السنة الماضية وكنت وقتئذ بعيدا عنهم بمسافة تبلغ الخمسة فراسخ فما صدقت ان نجوت من غدرهم بقميصي ولباسي وامتطيت جوادي بلا سرج فنهبوا الخيمة ومافيها من الامتعة ومن ضمنها المصحف المذكور ولكن لا أتركهم سدى وسأريهم ان شاء الله بخلاف ما أريتهم في وقعة جومشلو الاخيرة ومازلت متربصا لهم حتى أوقعهم في أشد الهلاك وأخرب ديارهم وقبور آبائهم وقل لي كم عدد مدافعهم التي قد ذكرتها

(قال الحاج بابا) عندهم أربعة أو خمسة أو ستة مدافع فصاح الكاتب الذي كان يكتب ما يسمعه وهو جالس على آخر السجادة اني كتبت الآن عشرين أو ثلاثين كما قلت فايهما الاصح فعند ذلك صرخ السردار وحلق عينيه مغضبا وقال اننا اذا وجدنا جزأ من كلامك كذبا فوحق رأس سيدنا علي لترى بوقتها ما يكون من نصيبك وتعلم ان لحانا ليست موضعا للضحك والاحتقار فما الداعي حينئذ للاختلاف الا كاذب فقلت مجيبا أقول الحق وهو اني لست براوي هذه الاخبار ولا الكاشف لها بل حسن طالع السردار ورئيسي الاغا كان سببا للحصول على حقيقة الامر بواسطة شاب أرمني تحمل الاخطار وكابد المشقات في اقتحامه جيش العدو بنفسه وأتاني بجميع الاخبار بعد ان وعدته بمكافأة باسم السردار فلما سمع السردار هذا الكلام صاح قائلا أي مكافأة باسمي فمن هذا الارمني وأي جنس من الارمن حتى يستحق المكافأة

(قال الحاج بابا) فلم يكن مني في هذا الوقت الا وأخبرته بحديث يوسف من ابتدائه الى آخره وما فعلت ذلك في حضرته الا بقصد الدخول في موضوع يوسف أمام الجوع مؤملا أن السردار بهذه الحالة يستحيل عليه مقاومة أحقية سؤالي الذي سألته فيه وبذا الفتى ينجو مما فيه من الوجل

والرعب والتصورات المتلبسة به من غضب رئيسه ويعود لامتلاك زوجته التي لا يجوز لاحد ان ينازعه فيها

فلما انتهيت من مقالتي لم يجبني أحد بكلمة ما بل ما كنت أسمع الا لغط الحاضرين من كل جهة بهذه الكلمات الله الله لا اله الا الله بصيحات تكاد تفلق صدورهم تخرج من شفاه المسلمين الحاضرين وأما السردار فبعد ان حلق بعينه يمينا وشمالا وفتح وقفل فمه على اشكال مختلفة برطم وبربر بقوله لقد أجرى الارمني على ذلك من الافعال ما يفوق العجب العجاب ثم صاح على خدمه بصوت عال ان يحضروا اليه بشيشته أوشبكه وبعد ان شرب منها نفسين أطال فيهما قال أين الارمني ومر الخليفة أيضا بالحضور ههنا

فما كانت الا طرفة عين حتى أدخلوا يوسف بحالة يرثى لها بما تعودوا عليه من طعن ودفع أي رجل مسكين من جنسه يريدون احضاره امام السلطة العجمية وأوقفوه أمام السردار كل ذلك ويوسف لا يسأل عما يراه من اهانة الخدم بل التزم الحزم والتجلد ووقف أمام المجلس المنعقد بغاية الثبات وقد أدهش الحاضرين جماله وحسن شكله الذي لم ير أحسن منه وهيج ميلهم نحوه لما رأوه من جسارته وشدة اقدامه وبالاخص فان السردار تفرس فيه وكان تطلعه اليه دلالة على الرضا والقبول ثم لحظ بعينيه جهة رئيس السياقة وأومأ له بعلامات معلومة بينهم تدل على تعجبه واندهاشه من هيئة هذا الفتى ولم يمض غير قليل من الزمن حتى دخل الخليفة بوجه بشوش عليه سيما الفرح وكان ضخم الجسم رزين العقل وردي اللون متبوعا بثلاثة من الكهنة يمشون وراءه وبعد الوقوف برهة أمام رفيقه أمره السردار بالجلوس فجلس بعد اجراء الاحترامات اللازمة في مثل ذلك وتغطية يديه وقدميه فخاطب السردار الخليفة بقوله

لقد اتضح جليا اننا نحن المسلمين أصبحنا أقل من الكلاب في أرض ايران ولا حاجة للبرهان اذ صرنا عرضة لهجوم الارمن على حرمنا وسرقتهم نساءنا

وعبيدنا أمام أعيننا ويدعون الناس لتدنيس قبور آبائنا فهذه الاحوال أيها الخليفة فهل ذلك أمر الله أنزله اليكم أم تفعلونها من تلقاء أنفسكم

وما انتهى السردار من حديثه الا واضطرب الخليفة وانزعج من هذه النازلة الفجائية وتمنى ان تنشق الارض وتبتلعه وسال العرق من جبينه بكثرة حتى كاد يغطيه وتبصر فى الامر فعلم ان هذه التهديدات لابد وان تكون مقدمة لذنب يتبعه القصاص الشديد فاجبر عند ذلك بالذب والمحاماة عن نفسه وقال متعجبا ما هذا الكلام أيها السردار فنحن كلاب من حتى نتجاسر على اقتراف أى أمر جالب للضرر والاذى الذى تقول عنه سعادتكم وما نحن الا رعية الشاه وأنت حامينا والارمن عائشون فى سلام وأمان تحت ظلك فما هو جنس وكيفية مثل هذا الرجل الذى أثار الرماد فوق رؤسنا وحملنا ما كنا لم نعهده فى زماننا فاجاب السردار مشيرا الى يوسف هذا هو قل أيها الشاب هل سرقت جاريتى أم لا

(قال يوسف) حلمك أيها السردار فانى اذا كنت مذنبا باسباب سلب شئ من أى انسان فها نفسى امامك اقض بها ما أنت قاض وأما أنا فمستعد لاجابتك عن هذا الكلام ولو يؤول أمرى للهلاك والمدافعة بروحى فاعلم ان الفتاة التى رمت نفسها من شبابيك سرايتك وأنا التقطتها على ذراعى هى زوجتى من قبل أن تصبح جارية لك وكلانا عبيد الشاه ومادمنا بهذه الحالة فلا يخفى على شريف علمك استعبادنا تحت قبضتك من عدمه ولا ننكر اننا حقيقة من الارمن الا ان حاسية البشر ما زالت تدب فى أجسامنا والمعلوم فى عموم العجم ان جلالة الشاه صاحب العظمة والمجد لم يشع عنه انه اغتصب حليلة أى انسان ولو كان من أقل رعاياه وبالنسبة لما أعهده وأتيقنه من العدل والامن ما كنت أتصور حصول مثل هذا الامر من سردار شريف مثلك قد استظللنا بظلك واحتمينا فى حكومتك العادلة ولكن بما أنت عليه من العدل والانصاف تأكد لى انك غششت

فيها اذ الذين أحضروها اليك قالوا انها جارية جورجانية ولو كنت تعلم انها زوجة أحد فما كنت حينئذ تقترب اليها وتتخذها جارية لك وتنفذ فيها دراهمك

فلما سمع الخليفة الفتى يخاطب السردار بهذا اللسان الحاد ارتعدت فرائصه وصاح عليه صيحة عالية مغضبة وأوقفه وكان السردار أثر فيه هذا الكلام الذى لم يسبق وصوله لاذنيه من خلافه وبدلا عن فورانه بالغضب ظهرت على وجهه علامات البشر والسرور من جسارة وطلاقة لسان هذا الشاب وكان يتطلع اليه بعين الاندهاش والحيرة حتى تراءى منه انه نسى أسباب احضاره أمامه وأراد صرف ما حصل منه وايقاف ما هو حاصل بين الخليفة ويوسف من المجادلة فقال بغتة

يكفى يكفى قد رددت اليك زوجتك فخذها ولا تزد من الكلام ومادمت انك خدمتنا خدمة صادقة فى مهمة لوفقد عينتك تابعا من ضمن أتباعى الخصوصية فاذهب الى كبير الخدم لتأخذ منه التعليمات اللازمة عن واجباتك وبعد ان تلبس الملابس اللائقة بوظيفتك احضر ههنا ثانيا فاذهب واعلم ان رضاى عنك لا يركن اليه الا عند مشاهدة سلوكك المستقبل

فامتلأ قلب يوسف فرحا وسرورا وتقدم نحوه وخر ساجدا على ركبتيه وقبل طرف جبته وكل ما فى جسمه يترنم اليه بالشكر والامتنان حتى انعقد لسانه عن الكلام لعدم امكانه القيام بواجب الشكر على هذا الاحسان وما ناله من السعادة التى لم تخطر بالبال وقد تعجب الحاضرون وهز رئيس السياقة كتفيه وهو غريق فى بحار العجب بما كان وأما الخليفة الذى كان جالسا كأنه حامل حملا ثقيلا فوق ظهره فانه فاق من ورطته وانتصب من حينه ومد نحو ذيه ونشف العرق الذى كان يرشح منه وكأنه لم يكن وضاء وجهه وقام مسرورا داعيا شاكرا وقام الحاضرون وهنؤا السردار على ما كان منه من المبرة والاحسان وحسن الخلق والحكمة والتدبير حتى عدلوه

بانوشروان وصار كل انسان يقول تبارك الله ماشاء الله ويسترغون بهذا العدل والاحسان ونشروا هذه الحادثة بين عموم العساكر لتكون نادرة يتناشدون بها على ممر الايام والليالى فان العدل أساس العمران

﴿الفصل الحادى والاربعون﴾

الحاج بابا يصف تجريدة ضد الروسيين ويبالغ
فى جبانة رئيسه وكسرته

(قال الحاج بابا) وبعد استيفاء السردار ورئيسى من جميع الحوادث التى أجاب عنها يوسف والتى أمكن شرحها عن جيش وموقع الموسكوف عزم على اعمال هجوم فى أقرب وقت وأمر الجيش بالزحف على همملو فاخذت العساكر فى الاستعداد وسارت الطوبجية بما لها من المهمات والمعدات الصعبة النقل تخترق الجبال والبيادة سلكت أسهل المسالك التى يريدونها وأما السوارى فكانت تشاهد فئات متفرقة فوق السهل

ويلزمنى الاقرار دون الانكار قبل الزحف بما كان من زيارة الفتى الارمنى ليقدم الىّ التشكرات نظير ما صنعته معه من الجميل وكان شكله فى مبدا الامر على هيئة جبلى متوحش وعليه طربوش من جلد الغنم الخشن ورداء جورجانى قصير ونعال فى قدميه وسكينه الطويلة معلقة على فخذه وبندقيته مرفوعة فوق ظهره بالميل بين كتفيه فما أدرى الاورأيته فى هذا الوقت متجملا بأحسن الملبوس ولابسا صديريا قرمزيا من القطيفة مشغولا بالشرائط المقصبة والازررة الذهبية وشد وسطه بشال من الكشمير ملتف فوق عنتريه بغاية الانتظام وبداعة الشكل وطربوش صغير من جلد شياه بخارى فوق قمة رأسه وله ضفيرتان مسترسلتان خلف أذنيه باتقان واعتناء وكان مع ماهو فيه من حسن الشكل واطافة تخذيه المسبلة عليهما ملابسه لا يشك فيه الرائى بانه أنثى اذ لا يرى عليه هيئة الذكر فلما

اقترب منى احمرت وجنتاه خجلا من تغير شكله المضاد لمرغوبه وأثنى علىّ بما لا يحصى من الالفاظ الدالة على زيادة تشكره وممنونيته ثم قال ان ما تكلم به امام السردار من العبارات الغير مرضية ماهى الا قصدا منه أقر عليها عقله ليكون نتيجتها اعدامه واعدام زوجته فيستريحان من هموم الدنيا وتنغيصها ولذلك تكلم بحدة وجسارة رجل يطلب لنفسه الموت

ثم قال وانه مع ماصرت فيه من تغير حالتى هذه وحصولى بعد التعب والاخطار على هذا الحظ الوافر ولكن نفسى لا ترضى الذل والاحتقار بصفة خادم عرضة لاهوال السردار فلا يتغير خاطرك منى اذا رأيتنى بعد قليل متنازلا عن شرف خدمته اذ الواجب علىّ الآن الخضوع لكل أمر مادامت زوجتى غير مطلقة العنان ولم تكن فى مكان تأمن فيه على نفسها من غوائل السردار وعند تمكنى من ذلك فلا مانع يمنعنى عن الفرار فعيشتى فى جبال جورجيا أرعى الحشائش عريان ونومى فى الوديان أحب الىّ من لبس الحرائر والقطيفة والنوم فى القصور اللطيفة والتلذذ بالنعم البهية ولا أقبل هذه الخدمة التى هى عار ومذلة

فلما سمعت مقالة يوسف لم أتمكن من امساك لسانى عن مدح حاسياته وكنت أود أن يتخذ صاحبا خلافى لعلمى انه اذا فر هار بالابد وأن أسئل عنه فى أى حال ثم تركنى وأخذ الجيش فى المسير وبوصولنا الى اشتارك طلب يوسف اذنا لاحضار زوجته مريم بصحبته فاحضرها وجعلها مع زوجة أحد الرجال الذى اشتهر بانغماره فى احسانات وخيرات السردار فاركبوها جوادا وسارت بغاية الاحترام والاعتبار كأنها واحدة من أتباع العسكر المعدودين دواما من الجيش العجمى ومازال الجيش سائرا حتى خيم بين جومشلو وايبران وأمر السردار بابقائه لحين عودته اذ انه قصد مع رئيس السيافة اتخاذ فرقة سوارى منه وكل منهما يكون معه فرقتان من الطوبجية للزحف بهم ضد العدو ثم أمر باستعداد العساكر اللازمة له

وقاموا عند الغروب وعند وصولهم الى محل الوقعة لم يجد السردار صبرا للتأخير ولكونه ينكر فائدة البيادة ويزدرى بها كما هى عادة كل عجمى أظهر ميله للهجوم على العدو بالسوارى

وانى لا أطيل القول أيضا فى قلق رئيسى وعدم صبره وهو انه استمر يفتخر مدة ويتباهى بشجاعته وقوته حتى اعتقد كل انسان يسمعه انه لو ظهر أمام العدو لالقى القبض عليه بدون تعب وارتد مهزوما من أمامه وقد رأى السردار تقسيم الجيش الى فرقتين بموافقة رئيس السيافة فاستصحب فرقة قام بها للزحف على همملو وأما أنا فتأخرت لاكون تحت أوامر رئيسى وعزم السردار على الوصول لتلك الجهة قبل طلوع النهار ليكتشف على أبواب القرية ويجتهد فى عبوره نهر چباكى ومررنا نحن أيضا كى نصل همملو عند طلوع النهار بصفة جيش المؤخرة لحفظ الطريق فيما اذا تقهقر السردار وعلى ذلك لم يمض الليل الا وقد وصلنا الى شواطئ النهر المذكور وكان اذ ذاك رئيس السيافة محاطا بفرقة من السوارى نحو الخمسمائة نفر ويتبعهم البيادة سائرين سيرا شديدا بقدر الامكان

وبينما نحن على اهبة الاستعداد فى عبور النهر لم ندر الا وصوت يخاطبنا بغتة من الجانب الآخر ويصيح بكلمات بلغة لا نعرفها ثم شرح معناها باطلاق رصاصة فتوقفنا عند ذلك عن المسير وكان ذلك موجبا لتيقظ رئيسنا الذى اصفر وجهه زيادة عن اصفرار الموت وصاح بصوت متغير جدا عن العادة قائلا ما الخبر وما الذى نفعله وأين نحن ذاهبون أجبنى يا حاجى بابا أأنت الذى أطلقت هذا العيار قلت كلا وقد علمت من ألفاظه ما لحقه من الوهم والفزع فانى لم أطلق عيارا ولربما هذه أصوات غيلان موجودة عند الموسكوف كالغيلان التى فى اشتارك عند الارمن ثم بعد لحظة سمعنا صيحات وحشية وصوت رصاصة أخرى فلما افضح النهار رأينا رجلين من العساكر على الشاطئ الآخر فتفرسنا فيهما افادانهما من

عساكر الروسيين فلما علم رئيسى باتساع الخرق وامتداد الخطر ومعارضة العدو لنا تغيرت هيئته واستعمل الجد وأظهر على وجهه الشجاعة والشهامة وصاح بنفس واحد على من حوله قائلا هيا روحوا اهجموا اقبضوا اضربوا اقتلوا هيا اذهبوا وائتونى برأسى هذين الرجلين

فانكبت جملة من العساكر ليعبروا النهر وهم شاكون السلاح وأما الفارسان الروسيان فلما رأيا هجوم العساكر العجمية عليهما هرعا الى مكان عال حصين وصارا يطلقان الرصاص على الهاجمين بثبات شديد اندهشت منه عقولنا فوقع رجلان من عساكرنا وقتلا فلما رأى الباقى ما حصل لهما ارتد الجميع خائبين الى قائدهم ولم يكن فيهم ذو قوة يقتفى أثر الفارسين الروسيين فصار القائد يقسم الاقسام ويترجاهم باعادة الهجوم ويردهم ويوعدهم باعطاء الدراهم لمن يذهب ويأتيه برأسيهما فلما لم يجد فائدة لكلامه ولم يجبه أحد قال بصيحة الغضب أنا بنفسى أروح وأسقيهما الكؤس وأطيح منهما الرؤس فهلا يتبعنى أحد منكم وبعد ان سار قليلا وقف يخاطبنى بقوله يا حاجى يا روحى يا صديقى ألا تذهب بنفسك وتأتينى برأسيهما ولك منى جميع ما تطلبه ثم اقترب منى ووضع يده حول عنقى وقال

هيا هيا اذهب فانى على يقين بان فى امكانك قطع رأسيهما

(قال الحاج بابا) فبينما نحن فى مثل هذا الحديث واذا باحد الروسيين قذف رصاصة أصابت قائش رئيس السيافة ففزع فزعا شديدا وصاح على العساكر يحلف الاقسام المؤكدة وهو يتقهقر لنقطة أخرى ويقول اللعنة على لحاهم اللعنة على آبائهم وأمهاتهم وأجدادهم وذريتهم انى لم أر فيما سبق أحدا يحارب بهذه الصفة يقاتلوننا كاننا حلاليف فانظروا انظروا أى نوع من الحيوانات هذان الفارسان وافعلوا ما تريدون بهما فانهما لا يقرآن لانهما أردأ من البهائم (كلا) فالبهائم ذات حواس آه يا الله يا الله لو لم يكن فى هذه الوقعة قتل لكانوا يرون ما يوقع الاعجام بالروسيين من

الفشل والانهزام

(قال الحاج بابا) وكنا في اثناء هذه المحاورة قطعنا مسافة ثم وقفنا ولما لوحنا لرئيس بان العساكر الروسية تقطع عليه الطريق من كل جانب فاحتار أي الطرق يجتازها وبينما هو يتدبر في أمره اذ وجدنا المسئلة انتهت من تلقاء نفسها بعودة السردار متقهقرا مهزوما بسرعة زائدة جهتنا فعلمنا ان مأموريته قضيت بالخيبة والوبال ولم يبق من شاغل لجيشنا الآن الا عودته مهزوما ولا لزوم حينئذ للكلام على ما كان من منظر عساكر السردار من الهيئة المحزنة ناشرين على وجوههم رايات الانكسار والذل والدمار من عودتهم خائبين وقد خرست ألسنتهم لايدرون بما ينطقون وعاد الجيش آفلا لوطنه وبقدر ما كان حاصلا لهم من المضايقة والتعب كان قائدنا بضد ذلك اذ كان يمتدح مقاومته وبسالته أمام العدو وما أصابه من جرح الرصاصة وما أجراه من المناوشات وانه قبض على حربة ورمح بجواده على آخر مسرع للهجوم على طباخه الذي فر هاربا باذوانه وثن عليه وضربه بقوته فاصابته الضربة في طرف شاله المتمنطق به

وهكذا انتهت هذه التجريدة بالكلام الغير مفيد حيث منها السردار كان مؤملا حصاد الشرف الاعلى ويكون فوق رؤس المسكوف وبالمثل رئيس السيافة تعشم بارتفاع درجته وشهرته مدة حياته والاعجب من ذلك انه مع ما حصل لهم من الانكسار فمازال رئيس السيافة يبحث عن أمر يفتخر بفعله في هذه التجريدة واستمر يتباهى بين جملة من رفقائه حتى حضر رسول من السردار برسالة بارسال الحاج بابا اليه فقلت يا ترى ما الذي سيكون من أمري وتوجهت مع الرسول وبمجرد ما تمثلت بالوقوف أمامه فاول كلام ابتدرني به ان قال (أين يوسف وأين زوجته)

فلما سمعت كلامه علمت بوقتها ان يوسف هرب مع زوجته ولم يسعني الا اظهار البراءة منهما وتطلعت اليه بعين قوية وأنكرت معرفتهما فصار السردار

يلتفت بعينيه في كل جانب ويبرم شواربه باشكال مختلفة وغضب غضبا شديدا وظهر الغيظ على وجهه ونذر بالانتقام من يوسف وزوجته وجنسه وقريته وأقاربه ومن يكون متحدا به أو من معارفه وبعد تهوره بما لا يليق من الكلام الفارغ أعلمني بانه اذا وجد فيما بعد أني مساعد له على الهروب أو توسطت له في أدنى شيء من هذا القبيل فلا يكون عقابي عنده الا خسفي كلية من فوق وجه الارض

وقد بلغني بعد ذلك ان السردار أرسل فرقة من العساكر الى جومشلو للبحث على يوسف والقبض عليه وعلى عائلته وأقاربه وكل من ينتمي اليه ومايمتلكه والذي لا يقدرون على احضاره يحرقونه ويخربون منازلهم ولكن سمعت ان يوسف العاقل البصير تدبر الامر قبل وقوعه بحزم وتبصر ينجو به من مخالب السردار وأخذ زوجته وأقاربه ووالديه وجميع عائلته ومايمتلكونه من الامتعة وهاجروا جميعا الى أراضي الروسيين ولم يتركوا هنالك سوى أرضهم المحروثة وأخبرني بعض الناس انه نجح مشروعه واستقبلهم الاهالي والحكومة بالبشر والترحاب وأحسنت عليهم بالاراضي الواسعة وساعدتهم بغاية الجهد لتعويض ما فقدوه من خسائرهم وتحسنت أحوالهم

﴿الفصل الثاني والاربعون﴾

توجه الحاج بابا الى معسكر الملك وما يلقيه من الاكاذيب والتهويلات الفائقة الحد

(قال الحاج بابا) ثم انني عدت الى رئيسي وأنا مملوء من الاوهام بما هددني به السردار ولعلمي ماهو عليه كبار رجالنا من التحكم والسلطة على خدمهم فلم أتأخر عن اخباره بما أنذرني به وما قصده في اضراري ومازلت كذلك أزيد في النار اشتعالا وأضيف من الكلام المزوق مالم يخطر ببال حتى اشتد غضبه وفار دمه من فعله وكاد أن يقع بينهما الخصام فخشيت عند ذلك عواقب

الاضرار التى تهجم الىّ من جهة السردار وامتلأ قلبى رعبا وخوفا من أذيته وما يكون من مستقبل مكيدته زيادة عن وثوقى بعقدرة رئيسى فى حمايتى من ضرره ونجاتى من شره ولذا خطر ببالى لراحة الفريقين وخلاصى من هذا البين التباعد عن هذه الهيئة وألححت عليه بان يأذن لى بلا توان فى العودة الى مدينة طهران

فلما تمكن رئيسى من الوقت المناسب فى طلب الاذن لى من السردار بعد ان شرح له ماله من الهيبة والسطوة فى قلوب المعسكر دعانى اليه وصرح لى بالرحيل ولكنه قبل كل شئ ابتدأ يعطينى التعليمات عن الحوادث التى سألقيها أمام الصدر الاعظم بخصوص تجريدته الاخيرة وصار يبين لى الكيفية التى يلزم شرحها باى صورة لاظهار اقدامه وشجاعته أمام العدو ثم قال لى وانك يا حاجى كنت فى هذه الوقعة ومشاهدا لها وبذلك يمكنك وصف جميع حركاتها كشخصى وانه لا يمكننا أن نقول بالدقة اننا انتصرنا لا نتسالم نتحصل على رؤس الاعداء، وهذا مما يزيدنا أسفا ولكن لا نقول اننا خسرنا أو ارتد بنا مهزومين فان السردار على ما هو عليه من شدة الجهل والغفلة بدلا عن أن ينتظر حضور الطوبجية ويصحب معه البيادة التى هى له فائدة كبرى رغب الهجوم بعساكره السوارى فقط على مدينة حصينة ذات اسوار وقد أخذه العجب الزائد من كون عساكر العدو المحافظين أغلقوا أبوابها وأطلقوا عليه النار من فوق الاسوار ولا شك انه بهذه الحالة لا يمكنه اتمام أمر وارتد بالويل والعار ولو كنت أنا الرئيس عليكم ما كانت تتأتى هذه الكسرة بل كنت أجرى الترتيبات والاحتياطات اللازمة بخلاف التى أجراها ولكن مع حصول هذا الامر فكنت أنا الرجل الوحيد الذى اقتربت من العدو وكما تعلم فانى أصبت بجرح يئست منه ولولا النهر منعنى من العبور لشتت شمل العدو ولم أترك منه من يبلغ خبر هذه الوقعة الى رؤسائهم وهذه هى الاخبار التى تنقلها عنا وتضيف اليها من الزيادات

والتهاويل ما يحسن لديك

(قال الحاج بابا) وبعد ذلك ناولنى رئيس السيافة ربطة خطابات برسم الصدر الاعظم ولبعض دوات الرتب المختلفة وعريضة الى الشاه ثم أمرنى بالرحيل فقمت وأنا حامد الله على نجاتى من مخالب السردار قاصدا طهران واذا بالشاه لم يزل معسكرا بجيشه فى السلطانية وقدم أغلب فصل الخريف واقتربت العودة الى المدينة فعمدت الى الصدر الاعظم واستأذنت بالدخول عليه مع جملة سعاة حاضرين من انحاء مختلفة من المملكة ومعهم الرسائل ثم ناولته ما معى من الخطابات وبعد البحث والتدقيق فيها أمر باحضارى فلما تمثلت امامه قال لى بصوت عال (أهلا وسهلا) هل كنت معهم فى همملو يا حاجى بابا وأظن الكفار لم يتمكنوا من مواجهة القزلباشى وعادوا بالخيبة اذ لا يمكن لاحد مطلقا مقاومة الفارس والسيف العجمى وانى أرى ان الخان رئيسك جرح فهو لا شك من أحسن رجال الشاه ولكن لله الحمد لم يحصل لكم تلفيات بل قمتم بواجب الخدامات وقاومتم الاعداء على حافتى النهر ببأس شديد وقاسيتم المشقات واشتغلتم شغل الابطال فلله دركم من رجال فلم أجب عن جميع كلامه هذا وخلافه الا بلفظة نعم نعم ولا لا بمجرد ما أرى ضرورة لزوم أحدهما حتى سرمنى وكل من يرانى يظن انى أتيت من ميدان حرب ثم انه دعا بالكتبة وأمرهم بتحرير (فتح نامه) تقرير النصرة وارساله فى الحال الى الاقاليم المختلفة خصوصا الى بلاد خراسان لالقاء الرعب والفزع فى قلوب مشايخها العصاة وأخبرهم بجعل الحادثة موافقة لشرف ومقام جلالة مليكنا المنصور ولا تنافى حاجة لتنظيم تقرير نصرة فى هذا الوقت بشرط أن تكون محبوكة الطرفين يقبلها العقل تكون نتيجتها الدائرة على الاعداء وسفك الدماء وانتصار الاعجام ثم سألنى الكاتب وقال كم كان عدد العدو فاجبته بعد ان توقفت برهة وأنا متحير عما يكون موافقا للجواب وقلت (بسيار بسيار) كثير كثير فقال له الوزير مبتدأ اكتب

خمسين ألفا فسألنى الكاتب وكم عدد القتلى بعد ان تطلع للوزير أولا ثم حول نظره نحوى فاجابه الوزيرا كتب قتل من العدو من عشرة الى خمسة عشر ألفا وتذكر ان هذه الرسائل سترسل الى بلاد بعيدة وانه يخس بشرف ومقام الشاه ان يقتل أقل من عدد الآلاف من عساكره أو عشرة آلاف فهل تريد أن تكون قوة جلالته أقل من رستام الشهير أو أضعف من افرسياب كلا فان ملوكنا يلزم أن يكونوا شاربين الدماء وقاتلين الاعداء كى بذا تعتبرهم رعاياهم والامم المجاورة لهم ثم ان الصدر الاعظم بعد استحسان ما كتبه الكاتب قال له وهل كتبت جميع ماقلته لك قال نعم انى مستعد لاوامر دولتك العالية واليك ما كتبته وهو ان الموكوف الكلاب الكفرة نسأل الله أن يمن علينا برحمته و يشويهم على خوازيق من اجل تجرؤا بالظهور امام عساكرنا المنصورة بجيش مركب من خمسين ألف فارس متسلح يصحبهم مائة مدفع يقذف النيران و بمجرد ماتقابلوا مع جيش جلالته لم تكن الا طرفة عين حتى قتل من العدو من عشرة الى خمسة عشر ألفا وأما الاسرى فكانوا كثيرين لا يحصى لهم عدد وبذلك تنازلت أثمان العبيد الى مائة فى المائة فى أسواق عموم جهات آسيا

فلما انتهى الكاتب من قراءة ما كتبه انبسط الصدر الاعظم وقال له (بارك الله) ماشاء الله لقد أحسنت المقال لانه وان لم يكن الامر تماما كما ذكر فحسن طالع الشاه ينتهى حسب المرغوب و يبلغ الدرجة التى ذكرناها فما أحسن من قول الحق اذا أتى مطابقا لرأى الانسان وأما اذا زاد بدرجة لا تتصور فلا يقبلها عقل أى انسان فصدق على كلام الكاتب وقال جملة من كلام السعدى معناها (ان الكذب الممزوج بالمقاصد الحسنة أفضل من الصدق المؤدى للخصام المهيج)

ثم طلب الوزير مداسه وقام من كرسيه وامتطى الجواد الذى كان مستعدا لركوبته على باب الخيمة وتوجه لمقابلة الشاه ليعرض على جلالته ملخص

الرسائل التى اقتبلها فتبعته ضمن زمرة من خدمه حتى انه التفت نحوى وقال لى لقد انتهى أمرك فابرح وارح نفسك

﴿الفصل الثالث والاربعون﴾

فى ذكر حكاية شنيعة تنتهى بقتل زينب معشوقته وانغماره بالفقر والشقاء والمذلة والعناء

(قال الحاج بابا) فلم تمض أيام قلائل الا وحل العسكر خيامه المضروبة وعاد الشاه الى مساكنه الشتوية فى مدينة طهران بموكب حافل يعلوه الهيبة والوقار والعز والافتخار بالهيئة التى قام بها منها واستقريت فى وظيفتى بصفة وكيل لرئيس السيافة واشتغلت فى ترتيب العساكر الذين تحت ادارتى ليكون الانتظام تاما اثناء المسير وقد صدر لى أمر بارسال رسول الى طهران باوامر مقتضاها استعداد (البازى كار) الراقصات والمغنيات لاستقبال الشاه عند وصوله الى السلطانية وهذه الجهة كما ذكرت سابقا هى سراية كائنة على شاطئ نهر كراج فلما وصلنى هذا الامر عاد لفكرى ذكر زينب معشوقتى السابقة وتذكرت ما كنت أقاسيه فيها من تباريح الهوى ولواعج الغرام وحركت ما كان ساكنا باسباب اشتغالى فى هموم المعيشة واستحر فؤادى وأخذت النار تنمو فى الاشتعال وانتعشت الاعضاء ولم أطرحها عن فكرى مدة السبعة شهور وهى من وقت معرفتى بها لحد الآن وأنا موجود بين رجال عديمى الاحساس بلغوا من التوحش الغاية التى بها قد ضعف قلبى وغطوا على وجدى بفعالهم الوحشية ومع ما كنت فيه من المشغولية كانت تزعجنى الافكار المهولة بانه لا بد من حصول الاذى لها مثل ما تصورت سابقا ولذلك كان قلبى يرتعد كل وقت تأتى بفكرى ومازلت كذلك حتى ظهرت علامات أفكارى بصدور الاوامر التى تماسبق فلحقنى ما هيج شغفى وقلت يا حبذا ان لم تكن هذه مبادى تلفى ثم قلت فى نفسى كل

آن قريب وسيظهر في مدة وجيزة تأثير ما يتهددني من الخوف والفزع من جهتها وعما قليل نصل الى السلطانية وهناك يتضح لي ما يكون من نصيبها وعاقبة أمرها

ليس للانسان الا * ما قضى الله وقدر
ليس للمخلوق تدبير بل الله المدبر

هذا وفي يوم وصولنا سررت في مقدمة الموكب لمشاهدة التنظيمات والترتيبات التي حصلت بالسراية وعند اقترابي من سور الحريم المعد لجلوس (البازي كار) فيه سمعت أصوات آلاتها الموسيقية فقلت في نفسي وقد ذهل عقلي واضطرمت النار في قلبي وما يضر لو تحايلت على مكالمة زينب أو بالاقل مشاهدتها على بعد وبعد برهة استيقظت من سكري وعدلت عن هذا الامر لما ينجم منه من الخطر ورأيت انه ليس من العقل والتبصر السؤال عنها حيث تلبستني الاوهام وأنذرتني بما يحصل لي ولها من المصائب والاخطار التي ربما ان تكون سببا في هلاكنا أقل من لمح البصر وفي الحقيقة لو استغرقت زمنا طويلا في تأملاتي التي كنت أحدث نفسي بها فما كانت تأتي بثمرة قط لانه لم تمض برهة يسيرة بعد ذلك الا وسمعت اطلاق نار السلام تخرج من فوق جبال زنبورك التي يستدل بها على نزول الشاه عن جواده حتى اذا جلس الشاه في قاعة ديوانه وشرب شيشته صرف أرباب معيته ودخل حرمه الملوكي وقد سمعت في حال دخوله الحريم ترغمات النساء وأصوات ضربهن على الطنابير والعيدان والرق بأهوية مختلفة وهن يمشين امامه صفوفا منتظمة وصرت أنا استرق بجميع حواسي نغماتهن وأنا بين الرجاء والخوف لعلي اسمع صوت زينب بينهن فيطمئن قلبي ويهدأ روعي وقد بذلت جهدي فلم أتمكن من الوقوف على خبرها أو سماع نغمها ووقفت وأنا مشتت الافكار محاط بالاكدار لا يقر لي قرار

وبينما أنا على هذا الحال اذ صدر الامر بطلب سيدي القديم ميرزا أحمق

طبيب الملك باحضاره باسرع ما يمكن امام الشاه فقلت لا حول ولا قوة الا بالله ما كنت أحسبه من زمان ويتكون في ذهني من سوء الافكار المتراكمة قد استشعر الآن قلبي بحلولها وأنبأتني الحالة البتة من وقوعها حتى انه عند ما بلغني الامر بطلب الحكيم اقشعر جسمي وارتخت جميع مفاصلي وبرد مني الدم في العروق وقلت في نفسي (زينب غابت عن الوجود ولم يبق لها في الدنيا وجود) وما أدري الا وحضر الحكيم أسرع من البرق ودخل امام الشاه ولم يمكث طويلا فلما خرج من عند حضرته وتظرني واقفا بجانب باب الحرم أخذني على جانب في جهة مستترة وقال ان الشاه قد اشتد به الغضب الزائد فهل تتذكر الجارية الكردية التي أهديتها اليه في عيد النيروز فانها لم تظهر ضمن الراقصات وادعت انها مريضة وبالنسبة لمحبة الملك لها كان يطيب خاطره بمشاهدتها عند حضوره الى السراية فلما بلغه انها مريضة دعاني اليه وأمرني بالتوجه اليها والتفحص عن كيفية سلوكها ومرضها وردها عن غيها والالتفات لصحتها أولى من اتلافها وان تنزع ما يزين لها الشيطان في عقلها ثم قال لي واذا كان جلالته لم يجدها في غاية الصحة والاعتدال والظرافة عند وصوله الى سراية مدينة طهران في الساعة السعيدة التي يحسن فيها القيام فانه ينتف لحيتي من جذورها فلعنة الله على تلك اللحظة التي صارت فيها أسيرتي وبالاخص الساعة التي عزمت فيها الشاه في منزلي

(قال الحاج بابا) وبعد ان أتم الحكيم كلامه تركني للرحيل حالا الى طهران وأما أنا فعدت الى خيمتي أتأمل في المصائب المزعجة التي ستقضي على هذه البنت التعيسة وأجتهد في تعليل آمالي بلعل وعسى تكون مريضة ولم تأت أمرا غير ذلك حتى تنجو من المهالك وأقول انه من المستحيل ان تخفي نفسها عن الملك وتمتنع عنه الا بسبب قوي يدفع عنها الاذى ولكي ان أشجع نفسي في صرفها عن فكري فكنت اكرر أبيات أحد الشعراء الذي ترك معشوقته

باسباب هجرها وقساوتها اليه حيث قال

انا اعتاض عن عيونك بالعين * وبغصن عن قدك المياس
وببدر السماء عن ذى المحيا * حين يبدو للعين كالنبراس
ذاك أشفى لاوعتى وغرامى * من سقام أعيا على كل آس
فتنت مهجتى بنار صدود * منها أصبحت مثلة فى الناس
كلما آنست عيونى نارا * منك أرمى بطرف لحظ قاس
ليت لى فى الغرام منك بديلا * كان يرثى لحالتى ويواسى

ومازلت على هذه الحالة أبذل غاية جهدى فى زيادة بيان هذا الموضوع والاكثار من التكلم فيه رغبة فى انصرافها عن بالى وعدم اشتغالى مظهرا نفسى بصفة مسلم تقى يحتقر جنس النساء ولا يعبأ بهن ولكن لم أجد فائدة مطلقا اذ حيثما أدير وجهى وحيثما أذهب أرى صورة زينب نصب عينى ممزقة الجسم وملوثة بالدم واستمريت فى تصورى هذا زمنا طويلا لا أحول عنه فى كل لحظة وأوان ولم يثمر ما أجريه من الاغضاء عن حبها

اذا رمت عنها سلوة قال شافع * من الحسن ميعاد السلو المقابر
سيبقى لها فى مضمر القلب والحشا * سريرة حب يوم تبلى السرائر

ومابرحت على هذا الحال حتى اقتربت الساعة لتشريف الشاه المدينة وعند دخوله طهران هرعت جميع السكان لمشاهدة موكبه الحافل محفوفا بالعز والاقبال واقتبلته الاهالى والاعيان بعلامات الفرح والاحترام مظهرين لجلالته التهانى بوصوله بالسلامة وتشوقهم اليه بعد طول الاقامة وكان يوما أشد زحاما من يوم القيامة وأما أنا فكانت أفكارى وحواسى مضطرة لملاقاة الحكيم لوقوفى منه على خبر زينب والاستقصاء عن حالتها لاريح نفسى فى حالة ما اذا كنت أجد تأخيرها عن الشاه ليس باب مرض بل تسبب عن عرض عشق تستوجب عليه القصاص ويشتهر الملك بانى أنا المتسبب فاحرم من نفسى وأسكن رمسى

ثم وفى نفس مساء يوم تشريف الشاه على ما أنا فيه من العناء وروعات القلب تمت جميع مقاصدى الكئيبة وتصوراتى المميتة وذلك بينما كنت شارعا فى اعطاء بعض التنبيهات الى أحد السيافة اذ لمحت الحكيم على بعد وهو خارج من غرفة الشاه الخصوصية وكان يرى عليه انه يتبصر فى أمر معتنى به وهو واضع يده فى منطقته والاخرى فى جانبه ومنحنى زيادة عن العادة وعيناه يرمقان الى الارض فعرضت نفسى فى طريقه وأديت له السلام اذ كان ذلك موجبا لالتفاته نحوى فلما عرفنى وقف قائلا انك لانت الرجل الساعى فى طلبه فاقترب منى وأخذنى على جانب من الطريق وقال لى اقد شاع أمر من الغرائب عن الجارية الكردية جلب لنا العار والمصائب وجعل رأسى فى التراب وعما قليل يلحقنى الخراب ووالله لقد لحق الملك من الخبل والجنون ما أوجبه العزيمة على أن يسقينا كأس المنون ويقتل جميع جنس الذكور داخل وخارج الحرم المصون مبتدئا بوزرائه ومنتهيا بطواشيه وأقسم بانى سأكون اغوذجا للقتل نظير هذا الفعل ان لم أجتهد فى اظهار الجانى الذى تملك فؤادها وأشغل بالعشق عقلها ولم يخش سطوته وعذابه وقسوته

فلما سمعت كلام الحكيم أجبته قائلا أى جان وأى ذنب ومن هو وأى شئ وما الذى حدث فقال كيف كيف أتجهل الامر وهى زينب زينب فاجبته أى نعم حقا ما قلت فهمت كلامك وأظنها زينب التى كنت تحبها حبا شديدا فقال الحكيم متنكرا وقد ارتعدت فرائصه من هذا الامر أ أنا أستغفر الله من هذه التهمة فحاشانى ذلك واياك ياحاجى بابا التفوه بمثل هذا الكلام شفقة بى لانه لو حصل أدنى شبهة فى نفسى وتسامع بها الشاه فانه مما هو حاصل له من شدة الغضب يأمر باعدامى على الفور بدون تحقيق ومتى بلغك ياحاجى انى عشقت زينب أو تغزلت بحبها

قلت نعم لقد تبالغ عنك جملة اشاعات عن عشقك لزينب ذات الغنج والكحل

والخصر المنتحل والقد المعتدل والشعر الفاحم المنسدل من لا يعادلها في الجمال مثيل

حتى ان جميع الناس تعجبوا من هذا الامر وقالوا كيف يسوغ لرجل مثلك عاقل فريد أوانه ولقمان زمانه وجالينوس بلاد فارس أن يميل الى مداعبة وملاطفة جارية كردية معرضة للاهانة والاخطار خادمة بمنزلك غير مشكوك بانها من جنس الشيطان اذ انه لا يسعى في منفعة الغير وشقاوته معلومة وخطواته سيئة مشهورة ولا شك انه هو الذي تمثل في جسمها وجذب فؤادك لعشقها حتى تسبب من ذلك قلق وتعسة كبراء هذه المملكة العظيمة وبالاخص لخراب عائلة مشهورة مثل عائلتك

(قال الحاج بابا) فلما سمع مرزا أحمق كلامي أطاح رأسه المرار وخبط بيده على رأس معدته وقال صدقت يا حاجي لقد كنت من عجائب المجانين حينما أسرتني بسيف ألحاظها السود وفي الواقع لم تكن عيناها الا سحرا مبينا تلبسهما الشيطان فصادني صيد الاسود للغزلان وقد مضى لذلك مدة من الزمان فاخبرني ماذا أفعل الآن فاجبت الحكيم لا أدري ما الذي أقوله ثم سألته وما يفعل الشاه معها حينئذ فقال لتذهب الى جهنم وتقيم فيها بمنزل أبيها لا ردها الله فليس لي أفكار تشغلني الا أبناء جنسي ثم بعد ان انتهى من حديثه تطلع نحوي كالوالد الشفوق وقال آه يا حاجي انك تعلم علم اليقين محبتي الدائمة اليك وضيافتك في منزلي حيث لم يكن لك مأوى وتوسطي في تقليدك باحسن الوظائف ولم تترق الا بعد اخلائي ولذلك اسمح لي بان أقول انه اذا كان يوجد في هذه الدنيا ما يقال له الجميل أو رائحة منه فهذا وقته وهذه هي الفرصة التي انتظرها في رد جميل ما كان مني اليك ثم سكت يسيرا و بعد ان صار يعصر برهة في لحيته قال هل فهمت يا حاجي رغبتي قلت كلا فاني مازلت أجهل مقاصدك

فقال الحكيم لاخبرك حينئذ بكلمتين مختصرتين املك تجيبني فيهما فيكون

لك الشكر الزائد قلت وما هما قال انه نظرا لما ينتج لي من خفض مقامي وبخس شرفي واعتباري في عموم المملكة بما عساه أن ينسب الي من هذه الاشاعة التي تسقطني كلية من أعين الناس وقد أصبحت رجلا هرما لا أتحمل الاذى فبالنسبة لصغر سنك وقدرتك على مكابدة ما يحدث من خطر هذه الاشاعة ولوثوقي بشدة عزمك وجسارة قلبك والذب عن بختك أسألك نسبة الامر لنفسك وستجدني في كل حال باذلا جهدي لاكون عونا لك في نجاتك فلما سمعت كلامه صحت مغضبا قائلا ما هذا الاعتبار الذي يكون من ورائه سفك دمي وفقد حياتي حفظا لمقامك وصيانة لعرضك فهل تلبس بك الجنون أيها الحكيم حتى تأتي بالقول المذموم الغير مقبول أم ظننت اني مجنون وتريد أن تسقيني بذلك كأس المنون فما الداعي لحتفي بنفسي أتظن اني أعرض دمي للسفك فداء رأسك حاشاني من مثل ذلك انما غاية ما أقول اذا سئلت في هذه القضية انك لم تأت ذنبا ولم يكن لك بهذه المسئلة علاقة لما أعلمه من الروعات والمخاوف التي كانت محيطة بك من جهة الخانم زوجتك الا انه يستحيل اقراري باني أنا المذنب

(قال الحاج بابا) وبينما نحن في سياق هذا الحديث وقلبي يتوقد بالنيران اذ فاجأني أحد طواشية الشاه وقال لي ان رئيسه الباش أغا بناء على الارادة الملوكية أمره باخبار وكيل رئيس السياسة وهو أنت بالانتظار مع خمسة عساكر في منتصف الليل تحت البرج العالي الذي فوق باب الحرم ويحضروا معهم تابوتا لحمل جثة يدفنوها في الوقت المذكور فلما سمعت كلام الاغا أجاوبه الا بلفظة (بي چشم) على عيني وما صدقت ان تركني حتى تخلصت من الحكيم في الحال وكان اذ ذاك وقت مظلم ولم أعلم أكان هذا اظلام الليل او اظلمت الدنيا أمام عيني بالنسبة للفزع والرعب والغضب الذي أحاط بي في هذه اللحظة عند تبليغي هذه الرسالة وما أدري الا وجسمي جميعه يتقاطر منه عرق بارد ولاجت عيناي وتحلحلت ركبتاي ولولا ما عندي

من الخوف حذرا من أن يشتهر على أمرى أحد وأنا واقف فى وسط السراية لاغمى على ثم قلت لنفسى وقلبى يتفطر ودموع عينى فوق خدى بالدماء تتقطر اما يكفينى بان أكون سبب موتها فهل بعد ذلك يجب أن أكون القاتل لها والحافر لقبر مهجة قلبى وعقلى ولبى وثمرة فؤادى وحشاشة كبدى فمن يكون فعله مثل فعلى من العباد ومن المصائب التى تندرج ضمن العجائب صيرورتى قابرا لها وممددا لاعضائها المسترخية داخل قبرها وادرج دم حياتى الى أديمها فكيف تكون معيشتى بعدها يالوعتى ياحسرتى أو كيف أندب لمثل هذا الفعل القبيح آه من عجائب الزمن الخوّن ومافيه من خبايا الرزايا والشجون أم كيف يتيسر لى الفرار أو قتل نفسى بخنجر أو غدار ولكن أواه ياحسرتاه وبلوتاه فلا صبر على قضاء الرحمن ودواهى الحدثان اذ لامفر من المقدور ونوائب الزمن الغرور وأقوم بما أمرت به والامر يومئذ لله

تصبرت لانى صبرت وانما ✱ أعلل نفسى انها بك لاحقه
ولو أنصفت روحى لكانت الى الردى ✱ أمامك من دون البرية سابقه
فما أحد بعدى وبعدك منصف ✱ خليلا ولا نفس لنفس موافقه

ومازلت على هذا الحال هائج الافكار مشغول البال حتى شعرت انه صب فوق قلبى رواسخ الجبال فصبرت النفس وقد كدت أقطع النفس وجعت العساكر اللازمة لير افقونى فى هذه المصيبة الدموية بدون أن يبالوا بما انكب على من الاحزان والاكدار المخيفة ولما علموا ما ألقيت اليهم من التعليمات السابقة اختلفوا فيما اذا كان حضورهم بقصد حمل الجثة المقضية أو انهم يكونون المشاعليه حتى اذا أتى الظلام وجهزوا أنفسهم بآلات الاعدام وغامت السماء وتلونت الغيوم بالوان الدماء ثم تتابع الرعد قاتماً حتى السماء تظهر الحزن على فقد معشوقتى الحسناء وبعد احتباك الليل بالاعتكار رأيت القمر منسدلا عليه كثيف البخار فتطلعت

اليه قائلا يحق لك يا قمر أن تلبس ثوب الحزن على فقد من يشابهك فى الحسن كل هذا ودموعى مدرار وأحشائى تتقطع من شدة الاستعار وأنا جالس بمفردى فى كشك الظفارة ولم يمر غير قليل الا والحرس الذين فى الابراج يصيحون دلالة على حلول منتصف الليل واقتراب الساعة علينا بالويل وأصوات المؤذنين تعلو المنارات وصوت محبوبتى بينهم تتألم من عذاب القتل وتسأل الله النجاة والسيافة الذين بها لجون فى قتلها ينادونى بحلول الساعة والاستعداد فاسرعت بالقيام لعدم تحملى مناداة أولئك اللئام وجريت يأسا من نفسى حتى وصلت الى النقطة المشؤمة فوجدت الخمسة عساكر واقفين متأهبين وبينهم التابوت لنقل زينب حبيبتى الى دار البقاء فلم يكن لى عند ذلك قدرة على سؤالهم الابكلمة (شود) هل تم فاجابونى (نه شود) لم يتم ثم تلا ذلك سكوت ناشئ عن رعب وخوف فرجوت بذلك اتمام الامر وقلت لقد توفر على زيادة ما ألقاه من الكروب والفزع اثناء قتلها ولم يبق حزنى مقتصرا الا على حملها وسيرى أمام جنازتها لدفنها ولكن يا أسفى لم يتم الامر ولم يمكننى التقهقر بل انتظرت نفاذ المقدر

وكانت العنابر المختصة بغرف النساء فى سراية الشاه على هيئة برج مثمن الزوايا مرتفع عن الارض نحو الثلاثين جازا ذى شكل عظيم ويعلوه غرفة معدة لراحة الشاه فى أغلب الاحيان لاستنشاق الهواء وهذه الغرفة محاطة بسطح فسيح وأما باب الحرم فكان تحت حائط هذا البرج ويعلو جميع ذلك مشربية وهى الجهة التى لا أنساها مادمت على قيد الحياة التى (آه ياحسرتى) كنا جميعا متطلعين اليها ولم أزل أتطلع الى تلك الجهة وأرفع نظرى اليها الاورأيت على قدر مد البصر بواسطة شعاع ضوء القمر صورة رجلين وامرأة وقد ظهر لى ان الرجلين يسحبان المرأة بينهما بقساوة وتوحش يريدان قتلها وهى تستغيث فلا تغاث وتبكى وتتضرع وهى ساجدة على ركبتيها ويداها ممدودتان بانين اليأس من الحياة فلم تجد لها سبيلا للنجاة فهام

لسان حالى يصيح بقلب من الحزن جريح

ألا أيها الشخصان رفقا بزينب * ومن يقتل المظلوم لاشك يأثم

فياليتني يقضى على ولا أرى * حبيبة قلبي اليوم بالقتل تعدم

ومما تقشعر منه الابدان وتزول فزعا من رؤيته الجبال انه لما صبوها على حافة البرج صارت تولول وتصيح بصيحات تتفتت منها الاكباد وصراخ عال يمتزج بالاهوية الشداد حتى كل من يسمع ذلك غيرنا يظن انه صحلنا شئ عن جنون ولم يعلم ان حبيبتي تتجرع أنواع العذاب من المنون فعندما سمعنا ذلك التزمنا الصمت جميعا ولم نتحرك بل كنا للقضاء سميعا مطيعا أما أنا فثبت فى محلى كالحجر الاصم فاقد الحواس من شدة الغم والهم كانه لم يكن لى وجود فوق الارض ومع ما أنا فيه من غيبوبة العقل فكنت أعلم ماهو حاصل

ثم سمعت بعد هذا كله صرخة شديدة أزعجتني وصياحا كاد ينفطر منه قلبي وانقطع على حين غفلة اثناء هذا السكوت المرعب وما أدرى الا وهى ملقاة فى الهواء وساقطة فوق الارض فتيقظت لنفسي واعتدلت كالملهوف وأنا بحالة الجنون وهجمت على النقطة التى سقطت عليها زينب حبيبتي ومامعها من المثقلات التى تصادمها فوجدتها تفهق وقد لاحت عليها بشائر الموت ومع ما كان يسيل من فمها من الدماء فكانت تحرك شفتيها كأنها تريد الكلام وترمق لى بعينيها فلم أتمكن من معرفة ألفاظها المتلعثمة خلاف كلمة شبيهة بلفظة (ياولدى ياولدى) ولربما كان هذا ناشئا عن اختلال فى عقلى فلما رأيتها بهذه الحالة تعلقت نفسي بها وشعرت بخروج روحي ففرحت بذلك وأنا أقول لعلها لعلها كى أدفن فى رمسها ولسان حالى يقول

اليوم تاب لى السرور لانني * أيقنت انى عاجلا بك لاحق

فغدا أقاسمك البلا ويسوقني * طوعا اليك من المنية سائق

ثم دبت فى عقلى الافكار وذكرتني بحلول الهلاك اذا بحت بهذه الاسرار واطلع على أمرى العساكر فلا يكون من نصيبي الا أشنع الموتات فاستحسنت

التجلد بالحزم والاحتراس وتحايلت على تلويث منديلي فى دمها قائلا فى نفسي ليكن هذا بالاقل تذكرة مدة حياتى كأنها لم تزل على قيد الحياة ثم قفلت عينيها وفهقت فهقة كانت بها القاضية ولسان حالها ينادى

ليبكني اليوم أهل الود والشفق * لم يبق من مهجتي الا شفا رمق

اليوم آخر عهد بالحياة فقد * أطلقت من ربقة الاحزان والقلق

ثم تنفست فاذا هى ميتة ولم يمض القليل حتى سمعنا صوتا من أعلى البرج يقول هل قضى عليها فاجابه واحد من الكفرة ذات القلوب الصلبة الذين هى نعم صارت كالحجر فامر بحملها فقال أحد الاشقياء الى جهنم وعلى ذلك اجتمع عليها العساكر ووضعوها داخل التابوت وحملوها فوق الاكتاف وساروا بها خارج المدينة حتى وصلوا الى قبر مفتوح أعدلها وكنت أنا أسير خلف جنازتها بقلب لا يحصى مابه من الاحزان وأفكار تشيب الولدان حتى اذا وصلنا الى القبر جلست على حجر ولا أدرى أين أنا لحين دفنها فاخرجوها ومددوها داخل القبر وأتوا بحجر فوق رأسها وآخر تحت قدميها وأحاطوها بالتراب وعرشوا قبرها وبعد ذلك أتوا نحوى وأخبروني باتمام العمل فقلت فى سرى ياخيبة الامل ولم أجاوبهم الا بقولى اذهبوا أنتم الى المدينة وسأتبعكم بعد أخذ راحتى

وما صدقت ان غابوا عن النظر حتى كاد قلبي من البكاء يتفطر وقد تجرحت خدودى من شدة سيلان دموعى وأنا أنشد الاشعار وأسأل لها الرحمة من الكريم الغفار والنار فى قلبي تزداد استعارا ولم أجد على فراقها اصطبارا ثم تطلعت يمينا وشمالا فوجدت نفسي وحيدا بين الاموات فريدا فنفست عن صدرى بالبكاء وأخذت من حرقتى فى الرثاء قائلا

قضت زينب فليسعد الدمع ماطره * وتهتك من قلب المحب سرائره

أقمنا زمانا لانبوح بسرنا * ولما قضت لم يبق شئ نحاذره

ألا أيها الناعى أسأت بغدرم * وجئت بما تنشق منه مرائره

نعيت التى كانت تساعف بالمنى * وان غالبتها الـزمان دوائره
اذا صح ود المرء فى الحب لم يكن * وان أكثر اللاحى من العزل ضائره
الاان دهرا فرق اليوم بيننا * بعيد صفاء ظالم الحكم جائره
على غير شئ قد سقوها من الردى * بكاس حسود قاسى القلب غادره
فيا الحبيب غاله الدهر خلسة * وكان عفوفا طاهر الذيل طاهره
وألق من عالى البروج الى الثرى * بلا رحمة اذ قل فى الخلق ناصره
ومن شقونى انى أمرت بدفنه * وكنت أفديه فها أنا قابره
فلا نأمن الدهر ان صروفه * اذا مارمت ورضا زوى منه ناضره

ومازال الليل يزداد فى الاعتكار ويحبق ظلامه بالاستار وصوت الرعد يرن فى الصحراء والوحوش تصيح حول المقابر ومع هذا فلم أبال بعودتى الى السراية ولم أجد لى قلبا على ترك قبرها الى وظيفتى المشؤمة وآليت على الوحدة والانفراد عن هذه الخدمة التى جلبت لى المصائب وأبعد عن هذا الملك الجبار القاسى القلب الغدار وأسوح فى القرى والبلدان وأتوب عن هذا العصيان واتخذ حرفة الدرويش كسالف الزمان ولا أرجع لذلك المكان خوفا من اطلاع أحد على حالتى فيصيبنى ما أصاب حبيبتى وبينما أنا غريق فى الافكار اذ رأيت الليل أخذ فى الادبار وآن وقت طلوع النهار وأنا أشاور نفسى فى الرجوع الى وظيفتى المنحوسة من عدمه فجزمت أخيرا على تركها وهجر هذه المدينة بأسرها اذ لم يكن لى بغية فيها ولا لرؤية أهاليها وقيامى على الاقدام الى قرية كينار جود وهى أول محطة الى اصبهان وأنتظر فيها أول قافلة تقوم اليها فأصحبها والتزم العزلة بين عائلتى وانظر ما حصل لوالدى ووالدتى لعلى ألحقهما قبل مماتهما فأتمتع برؤيتهما وأتبرك بدعائهما وأسرهما بعد تقدمهما فى سن الشيخوخة بوجود ابنهما المفقود اذ لا طاقة لى بالمداومة على أشغالى وأنا مكربل بهذه الاحزان وكفانى ما عانيته من المشقات والاتعاب المدة الذى عشتها فلاستريح

الآن وأتوب عن فعل المظالم وأتجنب نكبات الزمان

ثم اننى أخرجت منديلى المبتل من دم زينب حبيبتى ومسحت به أدمعى ونشرته فوق قبرها وأنا بال لم يهدأ لى بال وأنا أتلو القصائد والاشعار ثم دعوت لها بالغفران وتضرعت الى الله سبحانه وتعالى أن يسكنها فسيح الجنان وأن يجعلها من نصيبى بعد الممات ثم تركتها مودعا ولفراقها آسفا وأنا أفرج حزنى بتكرار هذه الابيات

يا بؤس ما صنعت يد الايام * لما أطالت بالفراق أوامى
كنا جميعا والحبيب مواصل * متمسك من عهده بزمام
ما كان أوشك اذ تفرق بيننا * لما سقاه الدهر كاس حمام
ورماه جبار الملوك بحادث * منه العيون تفيض وهى دوامى
ألقاه من عالى البروج مجندلا * لا ناصرا يلفى لها فيحامى
انى سأترك صنعتى من أجلها * لا خير فى عيش بغير مرام
وأجوب فى عرض البلاد وطولها * متزهدا عن صحبة اللوام
أدعو الهى أن يجمع شملنا * ويمن باللقيا بدار سلام

فسبحان الواحد المعبود محيى العباد من العدم الى الوجود وهو أعلم بما يكون وما اليه عائلة تؤول انتهى

﴿التماس﴾

﴿يقول الفقير محمد لطفى مترجم هذا الكتاب﴾

تم بعون الله وقوته الجزء الثانى من اللطائف الاصبهانية وكان تمام طبعه يوم الخميس المبارك ١٩ رجب سنة ١٣٠٩ هجرية الموافق ١٨ فبراير سنة ١٨٩٢ ميلاديه فى أيام من بزغت به شمس المجد والكرم رب السيف والقلم مليك مصر وفريد هذا العصر مولانا الخديوى الاعظم ومليكنا الافخم ذى البأس والقوة والحكمة وعلو الهمة سمير المعالى وكوكب الشرف المتلالى من وافى للنفوس بهدايا سهايا الامانى أفندينا الاكرم ﴿عباس الثانى﴾ أطال الله بقاه وجعلنا فداه ونصره على أعداه ولازال مخلد الملك ماسارت الفلك وتعاقب الليل والنهار وغرد القمرى فى الاسحار على منابر الاشجار وهذا الكتاب كان خدمة لاعتابه الشريفة ولاعتاب شقيقه سمو البرنس ﴿محمد على بك﴾ المفضال رب الكمال والاجلال وثقتى فى كرمهما المامول الانعام بحسن القبول والمرجو من أولى الفضل والامتنان الاغضاء عما به من الهفوات فان الانسان محل النسيان وسيليه ان شاء المولى القدير الجزء الثالث وهو الاخير وأوله الفصل الرابع والاربعون فى مقابلة الحاج بابا بصاحب له من الدراويش الاول ونصيحته له بما يسر خاطره وخلاصه بواسطته من الضرر وصرف ما ألم به من الفكر

والمسؤل من الله حسن الختام

بجاه سيد الانام